١

میشیل ریفاکو

جوہانہ الشجاع

لابن بار دلیان

Ami
www.
has.
com

دار البحار

ميشال زيفاكو

ابن باردليان

جوهان الشجاع

رواية تاريخية غرامية حربية هائلة
جرت حوادثها على زمن
الملك هنريكوس
الرابع ملك فرنسا

الجزء الأول

دار ومكتبة الهلال
بيروت. ص.ب ١٥/٥٠٠٣

المقدمة

هذه القصة ليست من وحي الخيال ولا دبجتها اقلام أي كاتب كان خيالي ام غير خيالي .

فقصة ابن باردليان مشهورة ومعروفة لكل من طالع قصة باردليان وأتى على نهايتها عندما عرض ملك فرنسا على البطل باردليان بان يختار ما يشاء تقديراً لخدماته التي قام بها بالدفاع عن ملك فرنسا في ذلك الحين .

فكان جواب باردليان للملك أني أريد ان تأذن لي بالانصراف للبحث عن ولد فدهش الملك لما تفوه به البطل باردليان وقال ولد من ايها الفارس؟ فأجاب باردليان بعد أن لكز جواده وسار مودعاً الملك ولدي ... ولدي اه يا صاحب الجلالة ...

فقصة ابن باردليان قصة تاريخية معروفة لا نغالي ان قلنا انها قصة رائعة وهي اشهر قصة للكاتب الكبير زيفاكو .

ويكفي ان يكون بطلها جوهان الشجاع ابن باردليان والذي يجهل الابن اباه كما ان الأب يجهل ابنه .

وسيطالع القارىء كيف ان جوهان يبارز أباه ويتفوق عليه دون أن يعرف كلاهما من هو خصمه حتى اعجب باردليان ببراعة هذا الشاب الفارس القوي !

الفصل الاول

العاشق

ننتقل وقراءنا الكرام الى باريس عاصمة المملكة الفرنسية في يوم من ايام شهر ايار الجميلة وذلك ابان حكم الملك هنريكوس الرابع الذي كانت ايامه برداً وسلاماً على الامة الفرنسية .

فتحت نافذة في منزل حقير المظاهر والمطل على شارع الشجرة اليابسة وظهرت على شرفته فتاة حسناء تأخذ الالباب بمحاسنها وتسبي العقول بجمالها الفتان وكانت أشعة الشمس تنعكس على شعرها الذهبي فتزيدها بهجة ورونقاً وعيناها الزرقاوينان ترسلان أشعة كهربائية وهي ذات قامة ممشوقة كالغصن الرديني غير ان ملامح الحزن والكآبة بادية على محياها الوسيم .

وقفت برهة في مكانها جامدة لا تبدي حراكاً وكأنها دفعت بقوة غير منظورة فرفعت رأسها الجميل بوجل ونظرت الى المنزل الذي كان أمامها فابصرت شاباً في مقتبل العمر

وريمان الشباب واقفاً في مكانه وهو مكتف الذراعين ينظر اليها نظرات التدلله والاعجاب .

احمرت وجنتا الفتاة خجلا ثم اصفرتا وجلا وحدقت برهة بذلك الشاب الغريب ثم عادت الى غرفتها وقفلت نافذتها بعد ان تنهدت تنهداً خرج من أعماق فؤادها كأنها تأسفت لعدم بقائها في ذلك المكان .

*

وكان في الشارع رجل تدل ظواهره على الفقر والمسكنة واقفاً في احدى الزوايا بحيث يرى ولا يرى فلم يكد يقع بصره على تلك الحسناء حتى انقدت عيناه باشعة غريبة وبدت على محياه ملامح البهجة والسرور فضم يديه الى بعضهما وناجى نفسه بقوله :

— يا الله ما ابدعها ..

ولم يكد يتلفظ بهذه الكلمات حتى شعر بجسم غريب الشكل قد سقط على مقربة منه وانتصب أمامه شخص كأنه سقط اليه من السماء فدفته الأرض من جوفها وقال له :

— لا تزال أيها الأخ رافاليك كعادتك مستغرقاً بافكارك السقيمة التي لا معنى لها .

فارتجف الاخ جان فرانسوا رافاليك لسماعه هذا الصوت وانقلبت ملامحه فجأة من السرور العظيم الى الحزن الذي لا يوصف وقال لمخاطبه بمزيد التأدب :

— عم صباحاً أيها الاخ كولار الكامل ..

وفي تلك اللحظة أقفلت الحسناء نافذتها ولم يخطر ببالها ان تلقي نظرة الى الشارع لترى ما هو جار فيه فتنهد رافاليك من اعماق صدره وابتعد من مكانه ذاهباً نحو شارع سانت هونوري الذي كان على مقربة من ذلك المكان وأخذ معه الأخ كولار الكامل الذي سره كثيراً الاجتماع مع رفيقه .

وكان ذلك الراهب قد نظر الى تلك الحسناء بطرف خفي وسمع التنهد الذي صدر من صدر رافاليك ولكنه لم يتظاهر بوقوفه على شيء من هذه الاسرار وظل كعادته يبتسم ابتسامة تشف عن المكر والدهاء .

وبينما هما سائران صادفا رجلا تدل ملامحه على أنه من علية القوم ومن كبار الاغنياء وقد كان يخاطب احدى القرويات يحفاء وخشونة فلما مرا بالقرب منه ابدا للراهب اشارة سرية جاوبه عليها بحركة خفية من جفنيه فلم ينتبه رافاليك ولا القروية الى هذه الاشارة المزدوجة .

وظل الرجل الغريب والقروية سائرين حتى وقفا امام باب المنزل الحقير الذي رأينا حسناءنا واقفة على شرفته وهما يتحدثان بحماس يتزايد من حين الى آخر ولم ينتبها الى شخص كان مختبئاً في احدى الزوايا وقد سمع حديثهما مع ان كلامهما كان همساً لا يكاد يسمع .

أما الشاب الذي رأيناه في فاتحة روايتنا واقفاً في نافذته وقد نظرت اليه حسناؤنا بمنتهى الشغف والتدلة فقد ظل واقفاً في مكانه ولعل وقوفه كان على أمل ان يبصر شبح الفتاة التي أحبها واستأثرت لبه .

ونظر العاشق السعيد الى الطريق ولكنه لم يكد يرى ذلك الرجل الذي كان جامداً في مكانه حتى صرخ صوتاً دل على فرط غضبة وزمجر قائلاً :

— أرى فوكه اللعين قد عاد الى هنا فما الذي يعمله امام بابه ومن الذي يناديه ؟

وفي تلك اللحظة نادى الرجل الذي دعاه العاشق باسم فوكه السيدة التي كانت على وشك دخول منزلها وتحدث معها همساً فأوعز عليه على فؤاد الشاب تأثيراً غريباً لأنه لم يلبث ان غادر النافذة التي كان على مقربة منها وناجى نفسه بقوله :

— اراه تكلم سراً مع السيدة كولنيكل فلا بد لي من معرفة ما قاله لها والويل له من شقي سينال جزاءه مني .

قال هذا واندفع في السلالم كقنبلة وفي ذات اللحظة وقف ثلاثة شبان امام باب منزله وكانت ملامحهم تدل على الشر وهم متسلحون بسيوف طويلة يجرونها من ورائهم على الأرض ولكنهم وقفوا مترددين أمام الباب ولم يجسروا على طرقه الى ان قال أحدهم مخاطباً رفيقيه :

— انك يا كرنايل باريسي المولد وتحسن التكلم و...

— ما معنى هذه المقدمة يا اسكوركاس وأنت تفوقني زلاقة ومهارة غير اني أرى ان كاركان هو الوحيد فيما بيننا للقيام بهذه المهمة الخطيرة .

— يا لكما من رفيقين غريبي الطباع فانتما تريدان أن اتعرض لوحدي الى غضب الرئيس الذي حظر علينا المجيء الى عنده من غير رضاه او بدون دعوة منه وهل تخاذلني غراً الى درجة اقتحام غضبه دونكما .

— كيف العمل والواجب يقضي علينا بأن نخبره ان السيد كونسيني يريد مقابلته هذا اليوم .

— فلتحمل الشياطين هذا الرجل وقد كان بامكانه تكليف سوانا بهذه المهمة .

— إذا لم يكن بد من قضائها فلنتولج القيام بها سوية فلا ينال الواحد منا الا القليل من غضب الرئيس .

ولما اتفقوا على هذا الامر رفعوا سوية ايديهم الى الباب ليقرعوه وإذا به قد انفتح امامهم فجأة واندفع منه شخص فرقهم بمنة ويسرة وهذا الشخص هو صديقنا العاشق الذي اخذ يعدو في الطريق كالجانين فصرخ اسكوركاس برفيقه قائلاً :

— هذا هو رئيسنا وقد عرفته من تحيته الغريبة لنا .

Ami www.liilas.com

قال هذا ووضع يده على حنكه لتألمه من ضربة شديدة اصابته عليه وأعول كرنكليل قائلا :

– الويل لي لقد أصابتني منه ضربة حطمت بعض اضلاعي

– هيا بنا ولنتبعه الى حيث يذهب .

واسرعوا بالجري خلف الرجل الذي دعوه رئيسهم وظهر من هيئتهم انهم كانوا يرهبون جانبه الى درجة تفوق الوصف .

اما العاشق الغريب فكان يسير توأ الى أمامه لا يلوي على شيء وهو غير مبال باصوات الاحتجاج واللعنات التي كان يتفوه بها كل من اصابته أحد ضرباته الشديدة .

وبعد ان اجتاز نحو خمسين متراً وهو على هذه الحال صدم رجلا كان يسير أمامه بتمهل فلم يلتفت اليه ولا اعتذر بل ظل مندفعاً الى الامام ولكنه اخطأ في حسابه هذه المرة لأن الرجل صرخ به قائلا :

– أيه أيها المستعجل قف قليلا لالقنك درساً في الأدب .

فلم يقف العاشق ولالبى هذا النداء كأنه لم يسمعه وإذا بيد قد وضعت على كتفه بشدة فلم يلتفت الى واضعها بل انه كان معتمد على قوته العضلية فهز جسده بعنف ليتخلص من اليد الموضوعة على كتفه ولكن الضغط زاد عليه حتى اضطر

للوقوف في مكانه فالتفت الى الرجل الذي اعترضه في سيره وهو يصرف باسنانه من فرط حنقه .

وتناظر الرجلان برهة وجيزة وهما صامتان وكانت امارات الدهشة والخجل والاعجاب والغضب واليأس تبدو على ملامح الشاب اما الرجل فكان ينظر اليه بسكينة تامة كأنه يستطلع افكاره ويقرأها في كتاب مفتوح ولم يلبث ان ظهرت عليه امارات الشفقة واللطف المقرونة بالعظمة وقال له :

– أرى ياسيدي اني بابقائي إياك رغماً عنك قد أجر عليك مصاباً يسوءني تعرضك له لذلك يسرني أن اتناسى فظاظتك فاذهب ايها الشاب واعلم بأن باردليان قد نسي أمرك .

فانتفض العاشق كمن لسعته أفعى وأبرقت عيناه باشعة غريبة وقبض بيده على سيفه كأنه يريد امتشاقه في الحال ولكنه عدل عن عزمه وقال :

لا ليس لي من وقت أضيعه سدى .

ثم اقترب من باردليان حتى كاد يلامسه وحدق به بعينين تتوهجان غضباً وقال :

– إذا كنت تريد أن تعفو عني فاعلم باني انا جوهان الملقب بالشجاع لن اعفو قط عن الاهانة التي الحقتها بي ولا بد لي من قتلك فاذهب وتمتع بالساعات القليلة التي أجود عليك بها وسأنتظرك في الساعة التاسعة من صباح الغد قرب دير الرهبان

الشارع وإذا خطر لك ان تتناسى هذا الموعد فسأظفر بك ولو اختفيت في السحاب أو نزلت الى الجحيم .

قال هذا واندفع راكضاً الى الامام كالجانين فخطر لباردليان ان يستوقفه مرة ثانية ولكنه توقف عن عزمه وهز كتيفيه بغير مبالاة وسار في طريقه وهو يغني لحناً كان معروفاً في تلك الايام .

الفصل الثاني

جوهان وسياتا

بينما كان جوهان الشجاع وهو اللقب الذي اطلقه صديقنا العاشق على ذاته مندفعاً في أثر فوكه كان هذا الرجل يسير بسكينة في شارع سانت هونوري قمر بجانب الراهب كولار الكامل وأبدى له اشارة خفية وعاود سيره نحو اللوفر .

ولم يكد يبتعد عن الراهب حتى لكز هذا رفيقه بكتفه وقال له :

ـ أرأيت هذا الرجل الماشي أمامنا فهو فوكه ماركيز دي لافارين الذي يثق به صاحب الجلالة مليكنا المعظم كل الثقة لأنه معتمده في سروره وملاهيه .

وأبرقت عينا رافاليك بأشعة غريبة كأنه تذكر امراً كان قد نسيه فضحك وقال :

ـ لقد صادفناه قبل الآن في هذه الليلة بينما كان واقفاً مع السيدة كولينيكل صاحبة المنزل الصغير الذي نراه امامنا ...

ولقد أدوكت الآن سر مقابلتها فان هذه السيدة مؤجرة في منزلها ملاكاً في منتهى الظرف والجمال ولا شك بأن صاحبنا الماركيز قد أحب الوقوف على أفكار صاحبة المنزل واذا أحببت فأنا اراهنك على ان مليكنا سيمر من هذا المكان في هذه الليلة وغداً نسمع بخليلة جديدة له .

ولما ابتعد المركيز فوكه دي لافارن عن السيدة كولنيكل التي كان يحادثها خرج الرجل الذي كان يسمع حديثهما من مخبأه وهو رجل في مقتبل العمر ومنتهى القوة تدل ملامحه على القسوة فتوقف برهة متأملاً ومحدقاً في نافذة جوهان الشجاع حتى إذا رآه خرج من منزله ومر أمامه كالسهم المارق تبعه ببصره وهو ينظر اليه نظرات رهيبه ويبتسم ابتسامة غريبة ثم تقدم بخطى ثابتة نحو شارع سانت هونوري ودخل منزلا يدل ظاهره على بسطة عيش ساكنة وسعتهم وهو المنزل الذي يقيم فيه السيد كونسيني .

بقي الرجل نحو نصف ساعة في هذا المنزل ثم خرج منه وأخذ يتمشى بسكينة ظاهرة نحو شارع الشجرة اليابسة وإذا به يرى جوهان الشجاع يسير على عجلته التي ذكرناها فالتقت عيناه باشمة غريبة ودنا منه بخفة ووضع يده على كتفه فالتفت الشاب الى الرجل الذي اعترضه في سيره وقد بدت عليه امارات الاستياء ولكنه لما عرفه تظاهر بالابتسام وقال له :

– هذا انت يا سيانا ... لقد كنت ارجو ..

– ما الذي تبحث عنه وما الذي كنت ترجوه يا ولدي ؟

فانقلبت ملامح جوهان الشجاع لسماعه هذا الجواب وبدت عليه امارات الاضطراب ورفع رأسه بشدة وقال :

– لماذا تدعوني ولدك وأنا لست ابنك وأنت على يقين من اني لا أستطيع مناداتك بهذا اللقب .

– صدقت فأنا لست والدك ولكني لما التقطتك منذ ثماني عشرة سنة وأنت تكاد تموت من البرد والجوع إذ كنت ملقى على قارعة الطريق ولم تكن تتجاوز وقتئذ السنة الثانية من عمرك فلو لم اعتن بك وأسهر عليك ليلاً ونهاراً لكانت أودت بك الحمى التي كنت مصاباً بها . ولما كبرت وشببت اعتنيت بأمرك فجعلتك رجلاً قوياً شجاعاً وأنا الذي وضعت في يدك هذا السيف وعلمتك امتشاقه حتى أصبحت لا يباريك فيه أحد من الناس وصرت رئيساً على جماعة لا ترهب الشياطين في جحيمنا ولكنهم يخافونك ولا يجسرون على مخالفة أمر من اوامرك وهم يرهبون جانبك ويخشون بأسك وهم ينتظرون كلمة منك لينادوا بك ملكاً عليهم . قل لي بربك من الذي اوصلك إلى هذه الدرجة الرفيعة ؟ الست أنا ؟ وإذا لم أكن والدك الحقيقي أفلست مديناً لي بشيء من الشكر كما يقضي به الواجب .

– صدقت .. صدقت .. وان ما تقوله هو الحقيقة التي لا مرية فيها ولكن أخيال ذاتي حين أخاطبك وحشاً كاسراً

فإنك حين تسدد إلي نظراتك الهائلة يخال لي أنك ألد أعدائي وانك لم توصلني إلى هذه الحالة الا لقصد خفي تكتمه عني وعندئذ أشعر بميل داخلي يدفعني الى قتلك بلا شفقة ولا رحمة .

— وما الذي يمنعك عن تنفيذ مرأبك وسيفك في يدك كما أن سيفي في يدي .. لقد كنت فيما مضى معلماً لك ولكنك قد فقتني بدرجات وصرت استاذي الأكبر .

— يا للهول يا لشقائي فانك علمتني كل ضروب الشقاء والدعارة ولكني لا أتدانى لأن أكون قاتلاً سفاكاً وحمداً لله لم أتلقن هذا الدرس على يدك .

— انك رقيق الشعور وما ذنبك إذا كانت الطبيعة اوجدتك في هذا الخلق الغريب أما أنا فقاسي الفؤاد لا يتأثر قلبي لشيء من المؤثرات التي يسمونها العواطف الكاذبة لذلك قل من يحبني من معارفي ولكنني غير مخطىء إذا لم اتبع غير آمالي وقد بذلت جهدي لأجعلك شجاعاً بكل معنى الكلمة وما كان والم الحق يخطر ببالي انك ستتخلق باخلاق النبلاء وإني سأضطر لمخاطبتك بلهجه لم أتعود عليها

وألقى على الشاب نظرة ملؤها العطف والحنان وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال له :

— لقد احببتك حباً جماً فانت الرابطة الوحيدة التي تحببني بهذه الحياة ولم يبقى لي في هذه الدنيا سواك وبما اني لا اريد

فقدك او التخلي عنك فأعدك بأني سأبذل كل جهدي لتلطيف اخلاقي معك وهذا كل ما أستطيع وعدك به .

وظهر على ملامحه انه يبذل عناء كبيراً لينطق بهذه الكلمات التي كانت تخرج من صدره رغماً عنه غير ان الشاب لم يتأثر لحالته بل ظهر عليه الاستياء وحاول ان ينطق بعبارة يلطف بها أشجان مربيه فلم يستطيع التغلب على عواطفه ولا خرجت الكلمة من فمه وكان سيانا قد أدرك من ربيبة ما يكنه في ضميره فقال له وهو يحاول الابتسام :

— لم تذكر لي شيء من أمانيك وآمالك ولا أطلعتني على ما كنت تبحث عليه .

فضرب جوهان جبهته بيده وصرخ قائلاً .

— تسألني عما كنت ابحث عليه الا فاعلم اني كنت افتش عن وقح .. ولكن قل لي قبل كل شيء الست على ثقة من قوتي العضلية وانك تعتقد كما أعتقد أنا بأنه لا يوجد من يستطيع الثبات أمامي في موقف الخصام بيد أنه لا يسعني أن أكتمك ما جرى لي واني صادقت في هذا الشارع شخصاً وضع يده على كتفي بخفة ولكنه تدرج في العنف فلم أعد استطيع التخلص منه .

— رباه ما الذي اسمعه منك ولدي فاني لا أعرف أحداً في العالم له مثل هذه القوة الا .. الفارس باردليان .

— يا للهول ويا للشقاء فان الرجل الذي ذكرت لي اسمه هو

الذي اعترضني في طريقي ثم ضربت موعداً لمبارزته في صباح الغد .

– ويلاه ويلاه انت صادفت باردليان وتنازعت معه ودعوته لمبارزتك .. ولئن كان الأمر جرى كما توقعت فانك بحثت عن حتفك بيدك .

– أراك تتعمد السخرية معي على غير سبب موجب لها .

– قلت لك ان باردليان هو الرجل الوحيد الذي يفوقك قوة أما انا فلا أريد ان يقتلك فاعد لي قولك ان موعد مبارزتكما هو صباح الغد لاطمئن عليك .

– أجل فاننا لا نتبارز قبل الغد .

– حمداً لله فقد سكنت هواجسي وزالت مخاوفي .

– لم أفهم عليك فزدني ايضاحاً .

– أعلم ان غداً لا يعود لباردليان سبيلاً لأذيتك .

فهمس الشاب في نجواه قائلا :

– يا للعجب مما اسمعه فاني لم ار في حياتي سياتا مثل هذا التأثر فهو لا ريب يحبني حباً خالصا ولولا ذلك لما جزع علي مثل هذا الجزع فهل بلغ بي الكنود الى درجة اقتاسى بها نعماه.

وخاطب مربيه بصوت عال كأنه غير مبال بما سمعه منه :

– هل أنت في حاجة الى نقود ؟.

– كلا ولكني لا أرفض ما تعطيني إياه .

وتناول الكيس الذي أعطاه أياه جوهان وابتعد وهو يناجي نفسه بقوله :

– غداً صباحاً يكون الوقت قد فات ولا يبقى لباردليان مجال اليك لأنك تكون صرت في قبضة الجلاد .

واستغرقته الأفكار العميقة فصمت برهة وهو مطرق ثم همس في نجواه قائلا :

– إذا اقتضت الحال فاني أدع باردليان يفتك به ولكني الآن منهمك فيما هو اهم من ذلك فسريا ابن فوستا وباردليان نحو الهوة التي حفرتها تحت قدميك وأنت غير شاعر بمقاصدي وأعلم بان ساعة انتقامي قد دنت .

والتف بردائه الطويل حتى ستر ملامحه وسار بخطى متمهلة نحو اللوفر .

www.liilas.com

الفصل الثالث

الملكة والليونورا

كا بلاط الملك قائماً قاعداً وكل من فيه قلق مضطرب لان الملك لم يتناول طعاماً ولا تعرف جفناه النوم وانقطع عن المباحثة في شؤون المملكة مع وزرائه .

وأخذ يتجنب الاجتماع مع اصدقائه والمخلصين اليه وكان يقضي كل أوقاته منزوياً في غرفته الخاصة فكان البعض يقولون عنه انه مريض والبعض الآخر يأكدون انه عاشق متيم .

وإليك ما كان يعلمه خمسة أو ستة من أخصاء الملك المقربين عن حقيقة حاله ولكنهم كانوا يكتمون ما يعرفونه حذراً من تقولات الناس .

رأى الملك فتاة في السادسة عشر من عمرها وهي في منتهى الظرف والجمال فتيمه هواها ولم يستطع الوصول اليها رغماً عن رفعة منزلته فكان يتنكر كل ليلة بزي غريب ويذهب ليقضي لياليه تحت شرفة منزلها الكائن في شارع الشجرة اليابسة .

وكان أخصاء الملك يتراحمون على الاقبال حول ذلك المنزل الذي صادفت صاحبته استحساناً في نظر مليكهم ليتقربوا اليها ولكنهم لم يعرفوا من أمرها إلا أنها تدعى الآنسة برنيل وأنها لا تغادر منزلها إلا صباح الأحد لتحضر الصلاة في كنيسة قريبة منها وترافقها وقتئذ صاحبة المنزل المدعوة السيدة كولنيكل .

وبعد ظهر اليوم الذي جرت فيه الحوادث التي ذكرناها في الفصلين السابقين كان الملك جالساً في غرفته الخاصة وهو يلاعب نظارتيه بيديه ويناجي نفسه بقوله :

— عجباً ما الذي دعا المركيز دي فارين لهذا التأخير وقد علم اليقين إن هذه الفتاة قد أثرت على فؤادي تأثيراً لم أعرفه من سواها . إنها تدعى برنيل فما اجمل هذا الاسم وما أرقه على المسمع فهل تمنعها عن اجابة رغائبي ناجم عن عفاف هي دلال ؟

وأخذ يتمشى في غرفته وأمارات اليأس الشديد بادية على محياه وإذا به قد توقف فجأة وقال :

— أن مليكة فؤادي تشبه الآنسة دي سوجيس شبهاً عظيماً ولكن معرفتي بها تمتد الى زمن بعيد .. نعم اني لم أعامل تلك الحسناء بمقتضيات اللياقة والأدب ولكن الله جواد غفور وهو لا ريب يسامحني بزلة لم ارتكبها عفواً وعن تعمد . ولكن الغريب بالأمر ان الافكار السيئة تداهمني من كل ناحية فالآنسة دي سوجيس قد ماتت منذ مدة طويلة على أثر ولادتها

طفلا وهو يبلغ اليوم السادسة عشرة من عمره لو كان حياً وهو عمر الآنسة برنيل التي تيمني هواها فهل ولدت دي سوجيس ذكراً ام انثى ؟ والله ما كنت افكر بهذا الامر لولا المشابهة الغريبة التي رأيتها بين الفتاة التي أحبها اليوم والتي أحببتها بالأمس ..

يسرني وايم الحق التخلص من هذا العناء فقد ارتاح فكري الآن واني لا أتأخر اكراماً لخاطر برنيل عن التفتيش على ولد سوجيس سواء كان ذكراً ام انثى ولا بدع إذا قمت بهذه المهمة فما ذلك الولد إلا ولدي ولكن ما الذي يعمله دي لا فارين الآن؟

وبينما هو يتساءل هذا السؤال بعد أن كرره أكثر من مئة مرة دخل عليه لافارين وأمارات البشر والسرور بادية على محياه وصرخ قائلا :

– بشراك يا صاحب الجلالة بشراك .

فاصفر وجه الملك حتى شابه الاموات بلونه ووضع يده على فؤاده وهمس قائلا :

– هل أنت صادق في قولك يا صاح؟ فهل قابلتها وحادثتها وما الذي قالته لك وهل هي تحبني ولو قليلا بربك لا تكتمني أمراً وهل استطيع مقابلتها هذا المساء ومحادثتها ... ألا تكلم وخلصني من هذا العذاب الذي لا يطاق .

– لقد اشتريت صاحبة المنزل بالمال وهي ستفتح بابها هذا المساء .

– وما الذي دفعته لها مقابل ذلك .

– مبلغاً زهيداً في حد ذاته وهو عشرين الف فرنك .

وكان من مميزات الملك هنريكوس الرابع أنه كثير الجود في مسائل الغرام ولكنه شديد البخل مع الذين يخدمونه في غرامه فالتفت الى مخاطبه وقال له :

– لقد سألتني أن تكون مفتشاً عاماً على مصلحة البريد وقد منحتك هذه الوظيفة منذ اليوم .

فانحنى لافارين أمام الملك ليشكر له هذه المنحة وناجى نفسه بقوله :

– اني وايم الحق نجحت نجاحاً باهراً لم أكن اؤمله فهذه الوظيفة ستعوض علي أضعاف اضعاف ما اعطيته لتلك اللعينة على أن تفتح لنا بابها .

وبينما كان هذا المركيز يقص على مولاه حكايته جرى في الجهة الثانية من اللوفر حادث خطير لا بد لنا من ذكره لارتباطه بسياق هذه الرواية .

كانت أحدى الحسان وهي في مقتبل العمر ومنتهى الجمال مستلقاة على كرسي طويلة وقد زانها شعرها الذهبي الذي كان مسترسلا على كتفيها وما تلك الحسناء إلا ماري دي ميديس ملكة فرنسا .

وكان أمامها على مقعد من المخمل القرمزي فتاة لا تزال شابة ولكنها هزيلة الجسم واسعة الفم احدى كتفيها أعلى من الثانية وهي في منتهى القبح والشناعة أو بالحري على نقيض تام مع الملكة التي كانت تمثل بذاتها كل معنى الجمال .

ولم تكن تلك الفتاة الشنعاء الا ليونورا دوره المعروفة بلقب كاليكاس وهي احدى وصيفات الملكة زوجة كونسيني الشرعية وزوجها لم يكن قد صار مركيزاً ولا مارشالاً ولكنه كان يؤمل كما كانت زوجته ترجو وصوله الى هذه الدرجة الرفيعة لانه كان خليل الملكة وكفاءة هذا اللقب لتدرجه في معارج الرقي والفلاح .

لم تشعر تلك الشنعاء في حياتها إلا بعاطفة واحدة وهي ان يحصل زوجها على كل الرتب الرفيعة التي كانت تتمناها له ولعلها أملت بهذا الرجاء ان تستأثر له فيغفر لها قبحها وشناعتها لقاء ما تبديه له من ضروب التقدم في مضمار النجاح وسعياً وراء هذه الغاية القت الرجل الذي تحبه محبة تقارب العبادة بين يدي الملكة وهي واثقة بان الملكة تستطيع متى أرادت ان توصله الى الدرجة التي تتمناها .

ولم يكن يعترضها في سبيل ادراكها مـا أرادت الا أمر واحد وهو شديد الخطورة لأنه يتعلق بشخص الملك لذلك عزمت على الفتك به والتخلص منه كما فعلت بسواه وهو أمر

يسهر عليها نظراً لضعف الملكة وجبنها واستسلامها الى الشهوات والاهواء .

والقت على الملكة وهي في تلك الحال نظرة ملؤها الحماس كأنها تريد التسلط على أفكارها بحدة نظراتها وقالت لها :

— ما معنى هذا التردد فهو يليق بجماعة العوام .

وظلت ماري دي ميدسيس صامتة واجمة وهي مطرقة تفكر بامرها وأردفت مخاطبتها قائلة بتهكم وتهديد .

— لما تطردين من مركزك السامي باحتقار ويعلن ابنك الشرعي دعياً لا أصل له يحل محله ولد السيدة انتريك عندئذ تبكين بدل الدمع دماً وتندمين على ضعفك وجبنك غير أن الوقت يكون قد فات ولا يعود الندم يجديك نفعاً .

— وهل أنت على يقين يا اليونورا أنه سيذهب هذا المساء الى شارع الشجرة اليابسة ؟

— أجل يا سيدتي .

فاطرقت الملكة برهة وكانت مخاطبتها تنظر اليها باحتقار ظاهر إلى أن تغلبت على عواطفها وسألتها قائلة :

— هل أنت واثقة من هذا الشاب ؟.

فلم تجاوبها على سؤالها بل هزت كتفيها بسخرية واردفت الملكة سؤالها بقولها :

— لعله يبوح بسرنا بعد أن يدرك مأربه .

– إني أكفله يا سيدتي كما اكفل نفسي وكوني على يقين بان هذا الشاب يضرب من غير تردد وهو لن يبوح بالسر لأنه انما يعمل لحسابه الخاص .

– ابلغ كرهه للملك الى هذه الدرجة .

فتبسمت اليونورا ابتسامة مكر ودهاء وقالت : كلا يا سيدتي فهو لا يكره الملك ولكنه عاشق ولهان وغيور كعادة العشاق ولا يخفاك ان الغيرة تولد البغض بسهولة تامة .

– لا أظن انها تبلغ بصاحبها الى درجة يصبح فيها قاتلا سفاكاً ويلطخ يديه بالدماء الطاهرة .

– بل يفعل أكثر من ذلك إذا كان حاد الطباع وغرامه كغرام هذا الشاب وقد كان هذا الصباح يتفاز اليها من خلال النافذة فلما ابصر المركيز دي لافارين يخاطب صاحبة المنزل المقيمة فيه حبيبته اندفع في أتون كالقنبلة التي تقذفها المدافع ولو تمكن من اللحاق به لكان انجز أمره ، وانك وايم الحق تخطئين خطأ فادحاً إذ تنسبين له القتل فهو شاب شجاع الى درجة لا تصدق ولا يأخذ بعدوه غيلة بل هو يطعنه من الامام ويقتله ببراز شريف .

– وما هي الوسيلة التي تعتمدين عليها لاغراء هذا الشاب على القيام بمأربه ؟

– اني اهتم به اهتماماً كبيراً ويحق لي ذلك لأنه ابن بالتبني

لأحد مواطني ولكي اثبت له اهتمامي به امر في أذنه خبراً خطيراً ولا أكون مذنبة إذا اثار الخبر في نفسه كوامن الحقد والبغضاء ولا أكون مخطئة إذا كان بغضه لا يظهر إلا بسفك الدماء .

وكانت سكينتها مخوفة في حد ذاتها فقالت لها الملكة وقد بد الرعب على ملامحها :

– انك هائلة يا اليونورا .

فتبسمت اليونورا وام تجاوبها على قولها ودفع الفضول الملكة لسؤالها بقولها :

– من هو هذا الشقي وما هو اسمه ؟

– أنه معروف باسم جوهان الشجاع أما إسم والديه فسر لم يطلع عليه أحد من الناس ، وقد التقطه سيانا وهو طفل صغير ورباه كولده ، ولعله الشخص الوحيد الذي يستطيع الجواب على هذا السؤال ولكنه لا يبوح بكلمة قط لو سئل في هذا الشأن أما أنا فلا أعلم من أمره إلا انه قوي إلى درجة لا تصدق ، ومن سوء حظه أنه غريب الطباع الى درجة الشذوذ .

وفي تلك اللحظة فتح باب الغرفة وظهر منه رأس كاترينا سلفاكيا وصيفة الملكة وأمينة سرها فأبدت اشارة خفيفة الى اليونورا وانسحبت خلسة كما ظهرت ولم يشعر أحد بامرها .

أما الملكة فقد انتصبت على كرسيها وأبرقت عيناها بإشعة السرور وقالت :

— لا ريب بأن القادم هو كونسيني فري أيتها العزيزة بادخاله الى هنا في الحال .

ثم استطردت اليونورا الحديث قائلة :

— هل يجب علي يا سيدتي أن احرك غيرة جوهان الشجاع ؟

— انك هائلة ورهيبة يا اليونورا .

— ما الذي تريدين أن أقوله لك فدعي لي الوقت الكافي للافتكار وما أظن ان الانتظار قليلا يسوءك .

فنهضت عندئذ اليونورا واقفة وانحنت أمام الملكة بمزيد الاحترام وقالت لها بصوت متهدج :

— التمس من جلالتك أن تسمحي لي بالاستقالة أنا وزوجي كونسيني .

فاصفرت الملكة اصفراراً شديداً حتى شابهت الاموات باونها همست قائلة :

— هل تريدين التخلي عني يا اليونورا ؟

— نعم يا سيدتي وصباح غد نغادر فرنسا .

— لست أسمح لك بذلك .

— عفواً يا مولاتي على الحاحي فان ما قررته بات مبرماً لا أستطيع الرجوع عنه وقد هيأت معداتنا للرحيل .

— وما قولك إذا كنت لا أريد الإجابة على سؤالك ؟

— سيدتي !

— كفى كلاماً لا معنى له فاني ارفض قبول استقالتك فاذهبي من أمامي وإلا فاقسم لك بالعذراء الطاهرة إني أصدر أوامري بالقبض عليك .

فتظاهرت اليونورا بالامتثال لهذا الامر فاحنت رأسها بخجل وانسحبت الى الوراء فندمت الملكة على عنفها معها وتأسفت لأنها ستحرم من زيارة كونسيني .

أما اليونورا فانها ظلت سائرة القهقري حتى وصلت الى الباب فوقفت في مكانها باحترام وقالت :

— لا يسوءك يا سيدتي اذا ذهبت تواً الى جلالة الملك .

— وما الذي تريدينه منه .

— اسأل جلالته أن يمنحنا النعمة التي بخلت علينا بها .

— وهل تجسرين على ذلك رغماً عن إرادتي ؟

— أجل إني أجسر على أعظم من ذلك محافظة على زوجي ولو اضطررت أن أقتحم في هذا السبيل غضب ونقمة مليكتي المعظمة .

— يا لك من خائنة .

ولم تعد الملكة تقوى على الثبات طويلا وقد كادت تجن لمجرد افتكارها بقرب مفارقتها كونسيني الذي تساط حبه على فؤادها ولم تعد تحيى إلا به .

Arnl
www.liilas.com

وكانت اليونورا تعتمد على هذه العاطفة فقالت :

– ان جلالة الملك سيقبل بسرور استقالتنا التي تخلصه من عبء ثقيل كما تعلمين .

– وما الذي يدعوك الى هذة الاستقالة !.

– أراك تغتفرين للملك كل عمل يأتيه وأنت مستعدة لتبذلي له كل تضحية ولعلك تضحين ذاتك أمام السيدة دي فرنيل الذي بدأ نجم سعدها يسطع في فلك فرنسا .

– وهل أنت خائفة من أن اتخلى عنك .

– نعم يا سيدتي ولو كنت وحيدة في هذا العالم لقلت لك تصرفي في حياتي كما تريدين ولكن هناك زوجي كونسيني الذي أحبه أكثر من حياتي ولا اسمح لاحد أن يمسه بسوء .

– ما زالت في قيد الحياة فلا تمس شعره من رأسه .

– ان جلالة الملك هو الحاكم المطلق يا سيدتي .

– وما قولك إذا كنت في مأمن على حياتك .

– لست ابالي يا سيدتي على حياتي وما عزمت على فراق جلالتك إلا واليأس ملء فؤادي وهيهات ان يذكر حزني بجانب يأس زوجي الذي تعلمين اخلاصه اك .

– أراك محقة في قولك وانه قد آن الوقت المناسب لتحريك الغيرة في فؤاد الرجل الذي تحبينه وتحمينه .

وأصدرت ماري دي مدسيس بهذه الكلمات الوجيزة المبهمة حكمها النهائي على زوجها الشرعي الملك هنريكوس

الرابع فانحنت اليونورا امامها لتكتم الفرح الذي كان يساور فؤادها وقالت لها بسكينة عجيبة :

– سأبعث اليك يا سيدتي زوجي لتتفقي معه .

وخرجت من الغرفة وهي صامتة ولكنها تحمل حكم الموت في ثنيات ثوبها. أما الملكة فكانت تتبسم لجرد افتكارها بخليلها كونسيني وقد ادركت أهمية الدور الخطير الذي ستضطر على تمثيله في المقتل الفظيع الذي كان أعداء الملك يعتمدون عليه .

★★

الفصل الرابع

ابنه الملك

وكان الملك هنريكوس الرابع قد قرر ان يذهب في الساعة الحادية عشرة مساء الى شارع الشجرة اليابسة ، ولكنه كان غريب الطباع لا يستطيع الصبر على أمر ينوي عليه .

فلم تكد تقرع الساعة التاسعة حتى لم يعد يقوى على الصبر فغادر اللوفر من باب خفي وقد ارتدى لباساً في غاية البساطة كعادته عندما يريد التنكر فكان يبدو بمظهر أحد النبلاء الفقراء ولم يصحبه غير المركيز دي لافارين الذي كان متفقاً معه على تركه عند باب خليلته .

وكان منزل السيدة كولنيكل يطل على شارع الشجرة اليابسة ولهذا الباب صفير تعلوه الستائر السميكة ويصعد إلى الباب الرسمي بثلاث درجات وفوقه شرفة طويلة وهي التي رأينا عليها في ذات الصباح الفتاة الحسناء التي كان يحاول ذلك العاشق الغريب أن يدخل خلسة الى منزلها كأحد اللصوص .

ولما وصلا قرب الباب صفق المركيز دي لافارين بيديه

مرتين وهي الاشارة المتفق عليها مع صاحبة المنزل والمخفى على إذن الملك وهمس له قائلا :

– هيا يا مولاي وادخل الحصن فاتحاً .

فوضع الملك رجله على الدرجة الأولى وتمتم قائلا :

– لم أتأثر في حياتي مثل هذه الليلة .

وفي تلك اللحظة ظهر شبح خلف أحد الأعمدة وانتصب واقفاً أمام الملك وسمع صوتاً لطيفاً يقول له بلهجة الأمر :

– انصرف من هذا المكان أيها الرجل .

وكان المركيز دي لافارين قد ابتعد عن الملك فلما سمع هذا الأمر اسرع بالرجوع الى حيث كان واذا باحد الفرسان يتقدم من ذلك المكان بسكينة حادة فلما سمع صوت الغريب يخاطب الملك بتلك اللهجة وأبصر الشبحين في أسفل السلم وقف على مقربة من الباب محتبئاً امثال يشعر به أحد وقد دعاه الفضول الى معرفة ما يمكن حدوثه .

تراجع الملك خطوة الى الوراء ووقف المركيز دي لافارين على مقربة منه وقال يخاطبه بلهجة السخرية :

– ما الذي تقوله أيها الاحمق ؟

– قلت اني مستعد لعقابكما بما تستحقان إذا لم تبتعدا في الحال عن هذا المكان .

– لا شك يا صاح بانك مجنون لأنك تعارض المارة في سبيلهم وتمنع الناس من الدخول الى منازلهم .

– كذبت أيها الرجل فانك لا تقيم في هذا المنزل .

– حذار لنفسك أيها الأحمق فانك تهين نبيلين ...

– كذبت أيضاً فما انتما من النبلاء ولا ريب انك من اللصوص فاذهب وفتش على البيئة التي تستطيع الاقامة في وسطها .

– يا لك من شقي لئيم .

فضحك الغريب ضحكة استهزاء وأردف حديثه قائلاً :

– وكيف يكون رفيقك من النبلاء وهو يحاول أن يدخل خلسة في الليل منزلاً تقيم فيه فتاة لا مدافع لها ليلقى فيه العار والإثم ... إنه ولا شك من صميم النبلاء بل هو صفوتهم لأنه لم يخجل من ارتكاب عمل لا يقدم عليه أسفل العامة .

فشهر المركيز دي لافارين سيفه فجأة وضرب به من الأعلى الى الاسفل وهو يزمجر قائلا :

– خذ ما تستحقه أيها الوقح الغرير .

وأدرك جوهان الشجاع مقصد المركيز قبل ان يرى الضربة التي وجهها اليه المركيز ولكنه لم يبد ولا حركة لأجل اتقائها وباشر من لمح البصر رفع رجله ورفس بها المركيز على وجهه وقذف به الى بعد عدة امتار .

وفي تلك اللحظة نزل من مكانه واقترب من الملك وقال له بلهجة الآمر :

–عفني يا سيدي بان لا تحاول مرة ثانية الى مثل هذا العمل السافل لاعفو وأطلق سراحك .

فذعر الملك لهذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها فهز رأسه بشدة وقال بعد أن وضع يده على قبضة سيفه :

– لست اقبل منك أمراً فاشهر حسامك وقابلني إذا كنت من الشجعان .

– فليكن ما أمرت واعلم بأني سأقتلك من غير شفقة ولا رحمة .

– حذار لنفسك أيها الرجل لأنك لا تعرف من تكلمه واني أستطيع بكلمة واحدة أن أعدمك الحياة

ولم يكد الفارس المختبىء يسمع هذا الجواب حتى همس قائلا :

– رباه ما هذا الصوت .. يخال لي اني سمعته قبل الآن .

وتقدم جوهان الشجاع خطوة نحو الملك وألقى عليه نظرة من أعلى رأسه الى أسفل قدمه وقال له بتنهى السكينة :

– اني على يقين مما تقوله ولكنك قبل ان تخطو خطوة الى الامام أو تبدي ادنى حركة سأغمد هذا السيف بصدرك وأودي بحياتك .

فزال الشك من فكر الملك هنريكوس حين سماعه هذا الجواب المبرم وأدرك بان هذا الخصم العنيد ليس من الذين يستهان بهم ولكنه لم يستسلم إلى الجبن واليأس وتظاهر بالشجاعة ، فقال بجرأته المعتادة :

– كفاك هزلاً أيها الرجل واعلم بأني أريد الدخول الى المنزل وإذا كنت تريد المحافظة على ذاتك ابتعد عن طريقي لئلا تنال

ما يسوءك مني .

– فأجابه جوهان أشهر سيفك وقابلني .

رد عليه الملك أمرتك للمرة الأخيرة بأن تنصرف من هنا لتسلم حياتك .

وأنا أطلب منك للمرة الأخيرة أن تشهر سيفك وتقابلني إذا كنت لا تريد أن احل عليك واقتلك .

وبلمحة اشتبك السيفان عندها تحقق للملك أن خصمه يفوقه وأنه امهر منه بكثير في امتشاق الحسام وأحس برعشة الموت تسري الى فؤاده والقى على ما حوله نظراً مشتتاً فابصر الفارس الذي اقترب منها كثيراً وصرخ به قائلا :

– قل لي أيها الرجل هل أنت رفيق لمن ابارزه .

وكان قصد الملك ان يستنجد به إذا لم يكن رفيقاً لعدوه فادرك الفارس مأربه واقترب منهما بسرعة زائدة وتمكن من الوصول في الوقت الملائم ليمنع جوهان الشجاع من الفتك بالملك .

وفي تلك اللحظة فتح باب المنزل الذي جرى ذلك القتال بسببه واندفق منه النور وظهرت منه الآنسة برتيل .

وكان جوهان الشجاع رافعاً سيفه بيده فلما ابصر أمامه تلك الآنسة انخفض ذراعه وانقلبت ملامحه من القسوة الشديدة الى اللطف المتناهي وبدأ كأنه يسترحم تلك الفتاة الحسناء .

ومي الملك يده على جبهته التي كان يقطر منها العرق البارد وهمس قائلا :

– يا للهول فقد كدت الامس الموت بيدي

أما الغريب فكان ينظر تارة الى الفتاة وطوراً الى الفتى وقد بدت على فمه ابتسامة دلت على السخرية وناجى نفسه بقوله :

– يا لعجائب الغرام كم يعلي صاحبه ويرفعه فوق منزلة البشر ولولا الحب لما جسر هذا الضعيف على أكراه اقوى ملوك الارض على طلب المساعدة من رجل غريب ... لقد أعجبني كثيراً هذا الشاب الباسل كما راقت في عيني هذه الفتاة الحسناء .

وكانت الآنسة برتيل مرتدية ثياباً بيضاء زادتها حسناً وجمالاً فتقدمت بتمهل الى خارج الباب وكانت السيدة كولنيكل حاملة مشعلا لتنير لها طريقها وذراعها ترتجف من فرط تأثرها .

وبعد أن شكرت الآنسة برتيل الشجاع شكراً جزيلا لما أتاه من البسالة في دفاعه عن المنزل المقيمة فيه التفتت الى الملك وانحنت أمامه باحترام زائد وقالت له بلهجة ملائكية :

– فليتنازل جلالة الملك وبشرف بحضوره المنزل الحقير الذي تقيم فيه برتيل دي توجيس النبيلة ؟

ولو انقضت الصاعقة أمام الملك وجوهان الشجاع لما احدثت التأثير الذي احدثته الكلمات القليلة التي فاهت بها الآنسة برتيل فان الملك اسرع بالدنو منها وكاد يفترسها بنظراته ولكنه كان شاحب اللون يرتجف كالقصبة التي تحركها الرياح وسألها قائلا :

– سمعتك تذكرين اسم توجيس فما علاقتك به .

– انه لقبي يا صاحب الجلالة .

– لقد عرفت فيما مضى من الأيام فتاة من هذه الاسرة وكانت تدعى بلانش فهل هي نسيبتك .

– بل هي أمي .

فزاد اضطراب الملك حتى لم يعد يقوى على الوقوف في مكانه وهمس في تجواد قائلا :

– رحمتك يا رباه فهي ابنتي ... وقد كدت ادنسها بيدي

والقى نظرة على جوهان الشجاع الذي كان لا يزال واقفاً في مكانه في الطريق وعاود تجواده بقوله :

– واني احمد الله الذي اوقف هذا الشاب في سبيلي ليمنعني عن ارتكاب جريمة لا أنساها في حياتي .

ورأت الآنسة برتيل الملك صامتاً وهي تجهل عادات أهل البلاط في مخاطبة الملك فسألته قائلة :

– وهل كنت تجهل هذا الأمر يا صاحب الجلالة قبل مجيئك الى هنا ؟

– بل كنت أعرف ذلك يا بنيتي ولكني أردت التحقق بذاتي منه وان اسمع من فمك الجميل هذا الاقرار .

– لم يكن يخطر ببالي قط الحصول على هذا الشرف الأثيل فليتنازل جلالة مولاي وبشرف منزلي الحقير .

فتقدم حينئذ جوهان نحو الملك وقال له بعد أن ضحك ضحكة رهيبة وكتف يديه الى صدره : ادخل يا صاحب الجلالة منزل الآنسة برتيل دي سوجيس التي لم تكن تحلم قبل

هذا المساء بالشرف الأثيل الذي ستناله منك .. ادخل فان مخدع العذراء سيفتح أمامك وهذه الفتاة الطاهرة الذيل التي كانت تتظاهر بالعفاف مستعدة لأن تضحي ذاتها أمامك .

فذعر الملك لسماعه هذا القول وشابهت الآنسة برتيل الأموات بلونها وألقت على ذلك المتحمس الغريب نظرة ملؤها التوبيخ والشفقة .

أما المجنون ونعني به جوهان الشجاع الذي لم يكن يفرق بشيء عن المجانين في تلك الساعة نظراً لفرط حنقه وغضبه فانه أردف حديثه قائلا بصوت كالرعد القاصف .

– حقاً أن حيلتكما لطيفة للغاية لم تكن تخطر على بالي ويحق لكما أن تسخرا مني أنا الشاب الأحمق الذي خدع بعفاف هذه الآنسة ولم يحجم في سبيل دفاعه عن مقاومة الملك واشهار السلاح عليه حتى كاد يفتك به ... اسخرا مني فاني لم أكن أتوقع أن أرى هذه الفتاة ربة الطهر تنتظر الاشارة الأولى لتنطرح بين ذراعي أول رجل يتقدم اليها خاطباً ودها .

وتظاهر الملك هنريكوس بعدم سماعه هذه الأقوال فالتفت الى الفارس الغريب الذي خلصه من جوهان الشجاع الذي كان واقفاً يبتسم لهذا الحماس وناداه قائلا :

– تعالى يا باردليان وأدن مني فقد كتب علينا أن في كل مقابلاتنا التي ليست لسوء الحظ عديدة ...

www.liilas.com Ami

– ان جلالتكم ادرى الناس باخلاصي واني في كل احـ انين ان كنت قريباً أو بعيداً فاني من اخلص الخدم .

اني على يقين من ذلك ولكن اخلاصك لا ينفي انك تهمل صديقك كثيراً .

ولم يكن هذا الفارس غير صديقنا باردليان فالتحنى أمام الملك والتزم الصمت وتنهد هنريكوس الرابع تنهـــداً خرج من فؤاده وأردف حديثه قائلا :

– انك لدى كل مقابلة تقدم لي خدمة لا انساها ابد الدهر فتارة تخدمني وطوراً تخلص تاجي من أشد المهالك حتى أكتسبت شكري الأوفر واني اسألك الآن ان تقدم لي خدمة جديدة ..

– مر يا سيدي تر في طوع أمرك .

فانتصب هنريكوس واقفاً وقال :

– احتفظ بهذا الشاب فقد كدت انساه والظاهر انه يتطلب اهتمامي بأمره فحذار ان يفلت منك .

ولما سمع بوهان هذا الامر القى على الفارس الذي وجـه اليه الملك عناية خاصة احدى نظراته الرهيبة أما الآنسة برتيل فانها نظرت اليه نظرة توسل واسترحام امـا الفارس فتظاهـر بعدم ملاحظه هاتين النظرتين وقال :

ان الاحتفاظ عليه أمر سهل للغاية يا صاحب الجلالة .

– إذن خذه الى قصر اللوفر وسلمه الى قائـد حرسي ولا تهتم بالباقي فان ذلك من شؤون الجلاد .

وضرب باردليان جبهته بيده كأنه قد تذكر امراً كان قد نسيه وقال :

– ويل للايام التي أثرت علي بعواملهـا وافقدتني ذاكرتي فقد نسيت امراً في غاية الاهميـة وتواني يا صاحب الجلالة في يأس عظيم وكدر لا يوصف لعدم استطاعتي الامتثال لأوامركم.

– وهل لك ان تطلعني على سبب هذه المخالفة ؟

– لقد تذكرت الآن ان هذا الشاب قـد وعدني بالمبارزة معه صباح غد ولا يخفى جلالتكم ان الرجل النبيل لا يستطيع التخلف عن مثل هذا الموعد كي لا يلحق به عاراً كبيراً .

– نرغب اليك اطلاعنا على السبب الحقيقي الذي يدعـوك الى هذه المخالفة

– لا أرى ما يمنعني من تلبية هـــذا الامر وبما ان جلالة الملك لم يدرك حقيقة مقصدي فاطلعه عليه... اني رجل قضيت حياتي بالاعمال الشريفة ولم أكن قط رسولا للجلاد ولا اريـد بعد ان بلغت العقد السادس من عمري ان اتدنى الى مثل هذه السفالة .

– ويحك اتقدم على هذه الجسارة ؟

فصعد باردليان درجتين على السلم حتى أصبح على مساواة من هنريكوس الرابع الذي كانت قامته اقرب الى القصر ونظر اليه بعينين تتوهجان غضباً وقال له بسكينة هائلة :

تسألني إذا كنت أجسر على عصيانك وقد جسرت على أهانتي إذ عرضت عليالتدني الى أسفل المهن .

فارتجف الملك من فرط غضبه وكاد يصب جام حنقه على باردليان ولكنه لم يتمكن من ذلك فان جوهان الشجاع الذي كان جامداً في مكانه وملتزماً الصمت تقدم فجأة بدوره وهو غير مبال بالفتاة التي كانت تنظر اليه بمنتهى التذلل وقال بكبر لا مزيد عليه :

– قبل ان يختصم مع هذا النبيل الشجاع الشريف يجب أن تعلم إذا كنت اسمح له بالقبض علي فان للملك وحده الحق بالقبض على جوهان الشجاع فاذهب الآن لأني لا اريد ان اكون سبباً لتأخرك ومتى خرجت من هذا المنزل تجدني عند بابه واقفاً بانتظارك ومستعداً لإتباعك الى اللوفر .

ولما سمعت الفتاة هذا الاقتراح الغريب زاد اضطرارها حتى شاهبت الاموات بلونها واغمضت عينيها كأنها تريد ان تحجب عنها منظر العذاب الهائل المعد له .

ودهش الملك من هذا الاقتراح فسأله قائلاً :

– هل تنتظرني هنا وتتبعني بعد ذلك الى اللوفر ؟

– نعم والى أي مكان تحب أن تذهب بي ؟

– هل علمت ان الجلاد يكون بانتظارك ؟

– اني انتظره بسرور زائد .

وألقى على الفتاة نظرة غريبة كأنه يشكوها لوحدها بوتقه وتظاهر الملك بعدم اهتمامه بما سمعه وقال :

– اني اذكر لك قولك وسنرى اذا كنت تضمن على تنفيذ ما تعهدت به الآن .

– لم يعتد جوهان الشجاع على الاخلال بعهده .

فنظر اليه الملك بدقة كأنه غير واثق من سمعه ودخل المنزل ، أما الآنسة برتيل فانها كانت بمنتهى اليأس فنزلت الدرجات التي كانت تفصلها عن جوهان الشجاع وقالت له بصوت ملائكي :

– لماذا وعدت الملك بانتظاره وقد كان باستطاعتك الذهاب من هذا المكان بكل سكينة ؟

– ما الذي يعنيك من أمري وبأي حق تتدخلين في شؤوني وليس بنا رابطة سابقة وأنت لا تعرفين من أنا .

– صدقت بقولك اني لا أعرفك وهذه هي المرة الأولى التي حادثتك بها وأنت ايضاً لا تعرفني ولكنك لم تتردد باشهار سيفك على ملك فرنسا لتدافع عن منزل تقطنه فتاة غريبة عنك

– لقد كنت أحسب .. ولكن يا سيدتي .. إن الملك ينتظرك .

– اني أعلم ذلك ولأجلك أترك الملك ينتظرني ، ولكني أراك راغباً في الموت لذلك تراني مكرهة لأن أطلعك دون

سواك على سري الخاص فاعلم بأني لم ار الملك إلا مرة واحدة عن بعد ولم أكلمه قط ولست اعرفه قبل الآن وهو لم يتم بي ولكنه والدي ولا أستطيع نكرانه .

– عفواً .. عفواً يا سيدتي .

فألقت على المسكين الذي كان ينتحب امامها نظرة ملؤها الاشفاق ولكنها لم تبد أدنى أشارة لينهض من مكانه ، وسألته بلطفها المعتاد :

– هل كان بامكاني أن أدعك تقتل والدي ؟

– اني استحقيت اللعنة يا سيدتي فاسحقيني بغضبك .

– أما وقد وقفت على سر ولادتي فلم يبق لي ما أقوله لك إلا اني توهمت .. فهل كنت مخطئة ؟

– بربك انهي حديثك .

– لست أدري ما أقوله الآن .. ولكني لا اريد ان تموت لأني أشعر الآن أن موتك يكون سبباً لموتي قالت هذا وعادت وأقفلت الباب وراءها بلطف .

الفصل الخامس

نجاة جوهان من الموت

ولما اصبح جوهان الشجاع لوحده شعر بأن فؤاده يكاد يتمزق في صدره وان الدنيا لم تسعه على رحبها فصرخ قائلا:

– رحماك يارب فإنها تحبني .. ولكن ألم يخدعني سمعي؟ كلا فان نظراتها إلي كانت تشف عن غرام صادق .. فهل أنا في اليقظة ام هي أضغاث احلام ؟

وكاد يطير من مكانه لفرط فرحه وسروره فوضع يده على قبضة سيفه كأنه يسخر من العالم ومن فيه ، فأبصر عندئذ الفارس باردليان الذي كان لا يزال واقفاً في مكانه ولكنه لم يلاحظ منه انه كان ينظر اليه وهو يبتسم ابتسامة الحزن لأن الحادثة التي شهدها جددت في فؤاده تذكارات قديمة لا يمكن نسيانها فتأثر تأثراً عظيماً ونسي خصامه مع هذا وأنه كاد يقتله منذ برهة وجيزة وهو متواعد المبارزة معه في هذا الغد ولم يدرك من أمره إلا انه وقف أمام شاهد سمع حديثه مع ملبكة فؤاده فهو يستطيع التكلم معه عنها لذلك سر سروراً لا مزيد عليه وسأله قائلا :

– لا ريب بانك سمعت حديثنا واني لم أكن حالماً ، فهي قد قالت لي أنها تموت إذا مت .

فارتجف باردليان من رأسه الى أخمص قدميه كأن هذا الحديث قد اعاده فجأة الى الحقيقة الراهنة وتمتم قائلا :

– أجل لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل .

– قلت لك اني سمعت منها هذا التصريح فقد صرت أرى العالم ملكي ومن فيه عبيدي وسأفتح كنوز العالم وأحوز عليها لاطرحها تحت قدميها ولا بد لي من تاج كريم اضعه على رأسها النبيل وذلك أقل ما تستحقه مليكتي الحسناء .

فتأمله باردليان برهة وأمارات العطف بادية في عينيه ، فرآه شاب معتدل القامة اميل منه الى الطول خفيف الحركات تدل عضلاته على قوة زائدة وتناسب ملامحه تشف عن جمال فتان وعيناه كانت أبدع ما فيه لانهما كانتا ترسلان أشعة غريبة كلما وجه نظراته الى أحد ، وهو عريض الصدر واسعه أبيض اللون اسود شعر الرأس ولم يكن يطير شاربه الاسود وعلى كتفيه وشاح حريري أبيض لأنه لاحظ ان حبيبته الآنسة تفضل اللون الأبيض .

وكان باردليان يحدق بجوهان الشجاع بدقة لا مزيد عليها كأنه يريد الوقوف على حقيقة سره ولكن الشاب العاشق لم يبال بهذه النظرات وقال وقد كاد يجن من فرط فرحه :

– أن الملك ابوها وقد صرحت لي بذلك فهل تعتقد صحة

ما قالته ، أما أنا فأكاد أموت من خجلي لما أتصور اني جسرت على اهانتها ويخطر لي ان انزع لساني من فمي والقيه الى الكلاب جزاء لي على قبحي ووقاحتي .

ولو لم تكن موجوداً يا سيدي لقتلت اباها الملك ، أما الآن وقد اطلعت على هذا السر الرهيب فلم يبق أمامي إلا أن اذهب وأغرق نفسي في مياه السين لاتخلص من شقاء هذه الحياة .

وبينما هما كذلك إذ رأى باردليان شبحاً ينسل خلسة نحو الشاب ويقترب منه بخفة ثم قفز عليه وكان في يده حسام مصلت يلمع في ظلام الليل وكاد القضاء يحم بعاشقنا المسكين لو لم يلاحظ باردليان هذا الأمر لأن حركة الشبح الغريب كانت القاضية على آماله وأحلامه فلم يتردد باردليان بما يجب عليه عمله فمد يديه القويتين نحو جوهان الشجاع وخطفه الى صدره كما يفعل بطفل صغير .

أما القاتل الغريب فان اندفاعه على عدوه ليفتك به كان قوياً للغاية فلم يصادف أمامه إلا الخلاء وأصاب سيفه احدى الدرجات فانكسر .

وكان جوهان الشجاع معتاداً على اقتحام الاخطار من غير مبالاة ولم تكن هي المرة الاولى التي تعرض فيها لمثل هذا الخطر المداهم لذلك لم يبد عليه شيء من التأثر أو الاضطراب ولما افلته باردليان من يده التفت نحو عدوه المجهول ونزل درجات السلم التي ارتقاها رغماً عنه .

وبأسرع من لمح البصر ورغماً عن الظلام الحالك أدرك لأول وهلة ان خصمه هو أحد القتلة الأشقياء فقد كان واقفاً في مكانه مذهولاً لا يعلم ما الذي يجب عليه عمله وكان السيف المكسور لا يزال في يده وقد كان قابضاً على مسكنه بيده المتشنجة

ولما تأكد القاتل فشله ورأى سيفه محطماً في يده زمجر كالرعد وبلاه انه غير الشخص المطلوب .

فاضطرب جوهان الشجاع لسماعه هذا القول وقفز بارديليان واقفاً في مكانه ونظر الرجلان كأنهما مدفوعان بفكر واحد إلى المنزل الذي تقطن فيه الآنسة برتيل ذي سوجيس وهو الذي دخله الملك منذ هنيهة .

ولم يطل ترددهما فان جوهان اقترب كالبرق الخاطف من الرجل الذي كان حاول الاعتداء عليه كعله يعرفه ولكنه لم يكد يقع عليه بصره حتى صرخ قائلا :

– رافالياك .

– مولاي جوهان الشجاع فالويل لي من شقي بستحق اللعنة لأني جسرت على رفع سلاحي على الرجل الوحيد الذي اشفق علي ورأف بحالتي . .

– إذن فقد كنت يا رافالياك ناوياً على قتلي .

– كلا يا سيدي فانك لم تكن الشخص المقصود .

– كيف كانت الحال فاني لولا هذا السيد النبيل الذي

تكرم بحمايتي لكنت الآن مع سكان القبور فاعلم يا رافالياك اني لو كنت في غير هذه الظروف لانتقمت منك انتقاماً رهيباً على جرأتك وجسارتك ولكن اليوم فان فؤادي طافح سرور وأتمنى خدمة وسعادة جميع البشر ولا أريد الانتقام من رجل مسكين مثلك فاذهب بسلام فاني أعفو عنك .

– شكراً يا سيدي عفوك عني .

– أما وقد سامحتك وعفوت عنك ولكني سمعتك تقول بأني لم أكن الرجل المقصود فمن هو الذي كنت تريد الفتك به .

فبدت امارات التردد على محيا رافالياك وانقلبت هيئته الى حزن عميق وقال :

– منذ يومين لم اتناول طعاماً ومنذ يومين المجول في الاسواق شبه الكلاب الشاردة فهل ادركت حالتي ؟

– يالك من مسكين . نعم اني ادركت ما تعانيه من الشقاء وانك كنت تسعى للفتك برجل يكون طائل الثروة فتفتك به وتسلبه ما يحمله من الاموال وبذلك تكفل عيشة الرغد والرخاء مدة طويلة من الزمن ... ولكن هذا الرأي لا يدلني على مقصدك بقولك بعد ان عرفتني باني لست الرجل المطلوب .

– لقد كنت اتعقب رجلا توهمت من ملامحه انه ذو ثروة طائلة كما قلت الآن ولست ادري كيف اضعت اثاره ولم ادرك

خطأي إلا بعد أن تعرضت اليك ووقفت امامك وعرفتك لذلك نطقت بهذه العبارة

– ألست تدري يا صاح بان من كان مثلك متمسكاً بمبادئه الدينية حتى لبس السواد ويأتي مثل هذه الأعمال السافلة لا يبشر بمستقبل حسن لأنك لو اكتفيت بسلب المال لكانت جريرتك تغتفر الى درجة ما ولكنك حاولت الفتك به وخطف حياته وهذا ما يدهشني منك .

– ان الجوع يا سيدي رسول الشر والضلال .

– فليكن كما تقول ولكني لا أريد ان يقال انك بقيت هذه الليلة من غير طعام بسببي فخذ هذه الدنانير وهي كل الثروة التي احملها واقض بها حاجاتك وإذا قضي عليك سوء الطالع ان تعود الى هذه الحالة التي لا اريدها لك فتعال وقابلني وكن على يقين بأني لا اخل عليك وقتئذ بما يكون معي لقضاء حاجتك أما الآن فاذهب من حيث أتيت ودع الشكر لي الى فرصة أخرى .

وكان باردليان صاغياً الى هذا الحديث فلما ابتعد رافاليك اقترب من جوهان الشجاع وسأله قائلا :

– اريد أن اعرف منك رأيك في هذا الرجل فهل تعتقد أنه صدقك بقوله ؟

– كلا فهو كاذب بكل معنى الكلمة .

– لقد كان يجمل بنا ان لا نتركه بمثل هذه السهولة .

– أخطأت يا سيدي فاني اليوم في يوم نعيمي وبشق علي

إيذاء اعدى اعدائي ، أما اذا اقتضت الحال فاني استطيع العثور عليه متى أردت .

فليكن كما تريد ولنصفح عن هذا الرجل .

– انك يا سيدي خلصت حياتي هذه الليلة من أشد الاخطار فكيف السبيل لمكافأتك على جميلك .

– كفاك هزء الأرذل لي اذا كنت لا ترى ما أراه من وجوب ابتعادك من هنا إذا لم يبق ما يستوقفك في هذا الشارع .

– كيف ذلك يا سيدي وقد سمحت منذ هنيهة وعدي للملك بأن أبقى بانتظاره .

– بل سمحت ما قلته له وهذا هو السبب الذي يدعوني لنصيحتك بسرعة الإنصراف .

– أخطأت يا سيدي لأني لو عملت بنصيحتك اكون كالهارب من قضائه .

– انك لما وعدت الملك بانتظاره على باب هذا المنزل كنت قود الموت ولم تكن تعلم ما تعلمه الآن .

– كفاك يا سيدي تحريك عواطفي فما أنا بالصاغي اليك لأني وعدت الملك بالبقاء والانتظار وسأبقى وانتظر ولست أخالك تحسبني جباناً الى درجة اتركهم يقتلونني فيها كالأرنب .. اني وعدت الملك بأن اتبعه الى مكان يريده وسأنفذ هذا الوعد دون سواه وأرى ان يجدر بك بعد أن جرى لك مع الملك ما جرى ان تنصرف ولا تدعه يراك .

– اني اعرف الملك منذ عهد بعيد وهو يعلم علم اليقين

أن صالحه يقضي عليه بأن لا يتخذني عدواً له وهو سيفكر بأمره ملياً قبل ان يشهر غضبه علي وأنا على يقين بأنه لن يستعمل معي وسائل العنف والشدة التي تحاذرها .

★ ★

كان المركيز دي لافرين قد عاد الى رشده لما دخل الملك منزل الآنسة برتيل دي سوجيس ولأول وهلة عرف شبح الرجل الذي ضربه تلك الضربة الشديدة التي اوجبت اغماءه وحسب ان باردليان رفيق لذلك الشقي القاتل .

وكانت اخلاق هذا الرجل في غاية السفالة والانحطاط رغماً عن مركزه الرفيع وتقربه من الملك هنريكوس الرابع وقد خلق ليكون جاسوساً فجمد في مكانه وأخذ يصغي بكل جوارحه الى الحديث الذي كان يسمعه وكاد يحن من فرحه لما تأكد ان الشخص الذي بات يكرهه كره الموت قد صمم على انتظار الملك في ذلك المكان فوطد عزمه على الانسلال خلسة من مكمنه وان يذهب الى قصر اللوفر الذي كان لحسن الحظ قريباً من ذلك وبحجر يصيب هدفين فانه ينتقم من الرجل الذي اهانه وضربه ويقدم الى جلالة الملك خدمة مأثورة لا ينساها له .

وانتهز فرصة الظلام الحالك واشتغال الرجلين وانهماكهما في الحديث تمكن من الزحف على بطنه والابتعاد من غير ان يراه ولما حسب ان المسافة كافية في البعد عنهما انتصب واقفاً وأسرع كالسهم المارق نحو قصر اللوفر .

وكان الفائد ألمواج الحراسة تلك الليلة يدعى براسلين أدرك للكلمات الأولى أهمية وخطارة الخدمة التي انتدبه اليها نديم الملك وان الدهر قد اسعده بفرصة ثمينة لن يجود عليه بمثلها للحصول على ما كان يؤمله ويرجوه من الثروة وفي الحال استدعى عشرة من رجاله تولى قيادتهم وخرجوا من قصر اللوفر والمركيز دي لافارين يتواثب امامهم ولما وصلوا الى الباب المقصود أمر براسلين رجاله بالقبض على باردليان وجوهان اللذين كانا واقفين ينظران اليه بمنتهى الاحتقار ولم يكادا يسمعا هذا الامر حتى امتشقا حسامهما كالبرق الخاطف وسمع صوت يقول بسكينة تامة :

— أين اضعتم أدبكم يا براسلين هذه الليلة ؟.

ولما رأى الجند استعداد الرجلين للهجوم عليهم توقفوا مدهوشين لكن ترددهم لم يطل كثيراً فانهم اشهروا سيوفهم وأرادوا الفتك بهذين الشقيين لو لم يوقفهم قائدهم الذي دهش لسماع اسمه وسأل مخاطبه قائلاً :

— من أنت أيها الرجل الذي نادیتني باسمي ؟

— اني أدعى الفارس باردليان .

— الفارس باردليان ؟ اعني السفير السابق .

— انا هو بالذات .

فالتفت القائد براسلين الى المركيز وقال له ذهبت الى اللوفر وأتيت بي وبرجالي للقبض على اخلص الرجال موده لجلالة الملك وأوفاهم عهداً وبذلك تدعي اهين الرجل الذي يعتبره

مولاي الملك كصفوة النبلاء لذلك أقول لك اني لن اغتفر لك هذا الخطأ الذي دفعتني لارتكابه كما لن يغفر لك الملك عملك هذا .

فارتجف المركيز لسماعه هذا القول لأنه كان قد سمع مولاه يذكر الفارس باردليان وتأكد بأنه سيعاقبه عقاباً صارماً على الخطأ الذي ارتكبه ولكنه كان كثير المكر والاحتيال فلم يلبث أن تمالك روعة سريعاً وقال :

— أذكر لك يا عزيزي اسم الفارس باردليان الذي لم أتشرف بمعرفته وهو لا ريب بعيد عن كل تهمة ولكني ذكرت لك رفيقة وأنا على يقين من صحة ما أقوله .

وكان يتكلم بصوت عال ليسمع باردليان حديثه ويقبل منه اعتذاره فيما بعد ، وقال له القائد :

— صدقت يا سيدي المركيز فيها اثنان .

ثم اقترب من باردليان ورفع قبعته أمامه باحترام وقال له :

— اسألك العفو يا سيدي باردليان فان ما جرى كان ناجماً عن سوء تفاهم ما كان ليحصل لو عرفت الشخص الذي دعيت للتشرف بمقابلته .

— بل أني اسألك العفو على تسرعي ومجاوبتك بهذه اللهجة القاسية .

الفصل السادس

حاكم الملك دي نوفي

وتبادل الرجلان التحية بمزيد الاحترام ، وقال القائد براسلين :

— عفواً يا سيدي باردليان فاني محتاج الى رفيقك .

وأراد جوهان الشجاع مجاوبة القائد ولكن باردليان لم يدع له مجالاً للكلام إذ سبقه بقوله :

— وما الذي تريده من رفيقي ؟

— أريد أن أرجوه اتباعي .

— يستحيل علينا أجابة سؤالك لأني ورفيقي ننتظر جلالة الملك في هذا المكان بأمر منه وبصفتك قائداً في الجندية تقدر معنى هذا الامر اكثر من سواك .

— وهل استطيع معرفة السبب الذي لأجله تنتظران الملك؟

— أجل وذلك اننا نريد مرافقة جلالته الى قصر اللوفر .

— اتقسم لي يا سيدي بارليان انك مقيم هنا بناء على أمر جلالة الملك لأجل مرافقته وحراسته ؟

— لقد كان يجب عليك وأنت تعرفني حق المعرفة ان تعلم بأني لا اتدانى الكذب فقد قلت لك اني ورفيقي هنا بانتظار الملك لمرافقة جلالته الى قصر اللوفر وقد كان عليك ان تقتنع مني بهذا التصريح

— أعرك يا سيدي واني ذاهب مع رجالي وأكرر أسفي للدور السافل الذي اكرهوني على تمثيله معك .

وأمر رجاله ان يعودوا معه الى اللوفر وكان وهو سائر يسخط على المركيز دي لافارين الذي كاد يوقعه في عداء عظيم مع هذا الفارس العنيد .

وفي تلك الساعة اقبلت من شارع سانت هونوري فرقة كبيرة من الجند وتقدمت من اول شارع الشجرة الباسقة ، وفي ذات الحين ظهرت في مؤخرته فرقة ثانية يقودها أحد الفرسان ، وكانت الفرقتان تسيران لمقابلة بعضهما ، فأصبح الجمع الواقف أمام منزل الآنسة برتيل وبات القائد براسلين ورجاله مضطرين بانسحابهم ان يصادفوا الفرقة التي يقودها الفارس .

وابصر باردليان ورفيقه هاتين الفرقتين فتناظرا برهة وظلا

يتبسمان كعادتهما ولكن ابتسامتهما كانت رهيبة فنزلا درجات السلم وهما صامتين وقال جوهان ضاحكاً .

— عجباً هل تواعد كل جند الحرس على الاجتماع في هذا المكان ؟

وأراد المركيز دي لافارين الانتفاع من هذه المساعدة التي أرسلتها له الاقدار فاسرع نحو الفارس الذي كان يقود احدى الفرقتين وصرخ به قائلا :

— قف في مكانك فالمرور ممنوع . ثم القى على جنده أمراً سريعاً وفي الحال انبرت المشاعل واقتدت الفرقة التي كانت آتية من الجهة المعارضة برفيقاتها وانارت المشاعل فتأكد عندئذ المركيز دي لافارين بمزيد السرور انه موجود امام المستر دي بيلانكور دي نوفي الحاكم الأعظم لتزل الملك وقد كان يقود بذاته في تلك الليلة فرقة من الحرس وعرف بدوره نديم الملك وسميره فسأله بصوت اجش من فرط جزعه :

— أين هو جلالة الملك . . .

— كن مطمئناً فانه سليم معافى .

— حمداً لله فقد خشيت أن أكون وصلت متأخراً .

ونظر الى ما حوله فرأى القائد براسلين مع رجاله فقال له :

— يظهر لي من وجودك في هذا المكان أيها العزيز ان جلالة الملك قد انذر بالخطر المداهم في الوقت الملائم لأني رغماً عن السرعة التي بذلتها للحضور لم اتمكن من الوصول الى هنا إلا

بعد حدوث المعركة رفع بصره على باردليان وجوهان الشجاع اللذين كانا واقفين كالصنمين وقال :

– أرى ان هذين الرجلين هما القتلة فاقبض عليهما وأعهد اليك أمر العناية لأني على ما أرى لا اتجرأ على القيام بهذه المهمة رغماً عن القوة الكافية الموجودة معك .

– أية معركة وأي قتلة تعنيهم يا سيدي ؟

– اني اتكلم عن قتلة جلالة الملك الذين تصدوا للفتك به وهما هذان اللصان اللذان لا تحسن السهر عليهما .

– وهل كانا ينويان على قتل الملك .

– ألم تكن مطلعاً على هذا الأمر .

– كلا وهذان الشخصان ليسا من أحرى ولم اتكلف بالمحافظة عليهما أما كونهما من القتلة فان هيئتهما لا تدل على ذلك .

وتبادلا ايضاح أمرهما فقال دي نوفي انه تبلغ في الساعة التاسعة من ذلك المساء بان أحد الاشقياء وهو زعيم عصابة من اللصوص قد عزموا على الفتك بجلالة الملك وان هذا الشقي أو فارس الفريسة [1] وهو شاب في مقتبل العمر يدعى جوهان

(١) كانوا يطلقون هذا اللقب على النبلاء الذين يتعيشون من كسبهم بالسلاح ومما يحكي أن هنريكوس الرابع كلف وزيره دي سانس ان يحشد له جيشاً ولما لم يكن له ما يدفع رواتب الجند كمن في الطريق العام لقافلة وسلبها اموالها ودفع رواتب الجيش . وقد فعل ذلك لخدمة الملك .

الشجاع غير ان التقارير التي وردت للحاكم الأعظم بشأنه دعته للارتياب به وقد جاء بها ان تلك الجريمة الفظيعة ستحدث في الحادية عشرة من الليل بينما يكون الملك مع واحد او اثنين من أخصائه في زيارة سيدة تقيم في شارع الشجرة اليابسة فلما وثق من هذا الأمر استدعى خمسين جندياً وأسرع بهم إلى الشجرة اليابسة ورغماً عن بعد المسافة تمكن من الوصول اليه قبل الساعة المضروبة .

وأخذ المركيز دي لافارين الذي جاء هذا الايضاح موافقاً لمرامه يقص على الحضور كيف ان الملك لما عيل صبره خرج من قصر اللوفر قبل الساعة المضروبة فغادره في الساعة التاسعة بدلاً من الساعة الحادية عشرة وقص عليهم خبر اعتداء جوهان الشجاع على جلالة الملك وقد لفق الحكاية حسب مرامه حتى جاءت موافقة لما رواه الحاكم الاعظم وختم حديثه بان اظهر لهم آثار الضرب الذي سقط على رأسه ووجهه .

وقص القائد براسلين على الحاكم الأعظم ما دار بينه وبين باردليان ورفيقه من الحديث وكان كلامهم همساً ولكن باردليان وجوهان الشجاع تمكنا من سماعه .

وحدق باردليان برفيقه برهة وهو يفحصه من رأسه الى اخمص قدميه وأخذ يناجي نفسه بقوله :

– عجباً أيكون هذا الشاب زعيم عصابة رهيبة من اللصوص ولكن ليس الأمر بالغريب وكثير من النبلاء وفي مقدمتهم ذلك

www.liilas.com

الطاهي الذي تلقب بالمركيز دي لافارين والحاكم الاعظم الذي يفاخر اكثر من الملك كلهم بعيشون من السرقة والصوصية ... اني اعتقد بأن السيد نوفي يبالغ قليلاً في حديثه ووصفه هذا الشاب بتلك الاخلاق السافلة لأن ملامحه الشريفة وصفاء وجهه ووضاحة جبهته ونقاوة عينيه كل ذلك من الدلائل التي لا تتفق مع هذه الأوصاف السافلة اما ذنبه الوحيد فيقتصر على أشهار السلاح على الملك ومبارزته وهي عرف القانون جريمة ضد الجلالة فما معنى هذا التعريف الفاسد وما معنى الجلالة؟..

ان هذا الشاب قد دافع عمن يحبها ولم يهتم بمعرفة سارق الشرف إذا كان مليكاً أو اميراً وعلى حسب رأيي أرى أنه عمل بشريعة الطبيعة ... ان الوالد او الزوج او الأخ او الخطيب الذي يسلم ابنته او زوجته او اخته او خطيبته إلى ذي جلالة يغمر بالألقاب والنعم ويكون محسوداً من الجميع والذي يترفع عن السفالة بهان ويحتقر ويتعرض لكل الاخطار فهل هذه هي الشريعة الحقيقية التي يحب السير بمقتضاها ؟ اني فيما مضى من الأيام احببت لسوء الحظ فتاة شريفة طاهرة فتاة الطلعة تشبه الفتاة التي يحبها هذا الشاب بكل معنى الكلمة واضطررت ان ادافع عنها من الوحوش الكاسرة الملقبة بالملوك والامراء وأنا أيضاً طوردت واضطهدت من الجميع ولو لم تكن لي بحمد الله قوة فائقة تمكنت بها من مقاومة اعدائي لكنت مت حتى الآن اكثر من مئة مرة .. هلا نسيت يا باردليان وقائمك الشهير مع الامراء والملوك والباباوات وهم يمثلون الشرف والطهر

والديانة في هذه الحياة الدنيا .

أما جوهان الشجاع فكان يناجي نفسه بقوله :

– لقد بلغ الحاكم الاعظم اني سأقتل الملك في الساعة الحادية عشرة من هذا المساء وذكر له المخبر اسمي فمن هو الذي اطلع على سري وافشاه ؟ إني لما وقفت امام هذا المنزل مدافعاً عن ساكنيه لم أكن اعرف من هو الشخص الذي سأتعرض له أما الذي اباح بسري فقد كان يعرفه ... ان لي والحالة هذه عدواً رهيباً يريد موتي ليتخلص مني فمن هو يا ترى ؟.. لم يكن أحد عارفاً بأني سأحضر الى هذا المكان وقد وطدت عزمي على قتل من يحاول دخوله سواء كان بالقوة او بالحيلة ... لم يكن مطلعاً على هذا السر غير اليونورا غاليكاي وهي التي قالت لي أن احد اللصوص ينوي دخول منزل الفتاة التي احبها ليسرق لها شرفها ولكنها لم تذكر اسم هذا اللص مع انها كانت تعرفه معرفة صحيحة فهي التي انذرت الحاكم الاعظم بالأمر ولماذا ؟ وإذا كان الحاكم الاعظم قد وصل متأخراً لتخليص الملك كما كان يظهر لكنه لم يتأخر للقبض عليّ .. لقد انفتحت الآن عيناي للحقائق وبدت امامي هوة الشرور والفضائح المفتوحة تحت أقدامي فالويل لك يا اليونورا والويل لزوجك كونسيني إذا كنت مصيباً في ظنوني .

ولم تكن هذه المناجاة تمنع باردليان وجوهان الشجاع من مراقبة ما هو جارٍ حولهما وفي أثناء ذلك كان الحاكم الاعظم والقائد براسلين والمركيز دي لافارين يتداولون في الأمر وسأل

القائد رفيقه وهو مسرور من تخلصه من المسؤولية التي كادت تلقى على عاتقه عما ينويان عمله فصرح له الحاكم الاعظم بأنه ينوي القبض على هذين الرجلين فأجابوا بقوله :

– شأنك وما تريد يا سيدي فان هذه المسألة من مهمات البوليس وهي من جملة اختصاصاتك فلا تحق لي المداخلة بها غير اني ابدي رأيي بصراحة فان جلالة الملك قد دخل هذا المنزل وهو لا يزال فيه ولكن لا بد له من الخروج منه عاجلا او آجلا وبما ان هذه الحادثة الغريبة بدت لي بشكل غامض فلست انصرف من هذا المكان وسأبقى هنا الى حين خروجه فارافق جلالته واحرسه وادافع عنه إذا اقتضت الحال لأن هذه من اختصاصاتي .

قال هذا وصف رجاله على جانب وقد وطد عزمه على مراقبة الحوادث وهو ملتزم تمام الحياد فترجل الحاكم الاعظم عن جواده وتقدم من الباب وهو يتظاهر بعدم رؤية جوهان الشجاع ووقف أمام باردليان وبعد أن حيّاه بمزيد التحية والاحترام قال له :

– يسوءني يا سيدي باردليان ان اراني مضطراً لأن اطلب منك تسليمي سيفك ولا يخفاك ان ما أعمله هو تدبير عن احتياط بسيط أقوم به بصورة وقتية .

– يسوءني يا سيدي دي نوفي ان لا استطيع اجابتك الى سؤالك فلا تشق عليك مخالفتي .

– وهل ترفض اطاعة هذا الامر ؟.

– أجل وذلك رغماً عني ولا يخفاك ان ما اعمله هو عبارة عن أخذ الاحتياط لا بد لي منه .

– قل لي إذا كنت لست من رعايا جلالة الملك الامناء المخلصين .

– ان جوابي يتوقف على ظروف الاحوال .

ففر هي نوفي فجأة هجته وقال لباردليان ورفيقه بلهجة الآمر :

– سلما سيفكما في الحال .

فلم يستطع جوهان كظم غيظه وصرخ به صوتاً كالرعد القاصف :

– إذا كنت تريد سيفينا فتعال خذهما .

فوضع دي نوفي قدميه على درجة السلم الاولى وكان البرد قارصاً للغاية ، فحسب الحاكم الاعظم انه لا يحتاج إلا الى مد يده ليأخذ سيفي العاصيين ، وقد توهم انه لا يحتاج الى كبير عناء للتوصل الى مأربه ، ولم يخطر بباله قط ان خطراً يتهدده منهما ، بل تصور انه تحت رعاية رجاله الاشداء .

ثم وضع قدمه على الدرجة الأولى ولكنه لم يتجاوزها ، فأنه شعر برأس حسام لامس صدره وسمع جوهان الشجاع يقول له بسكينة لا مزيد عليها :

– إذا تقدمت خطوة الى الامام فأنت رجل هالك لا محالة .

فتوقف الحاكم الاعظم في مكانه وقد اوقفه الخوف

والانذهال ولكنه كان شجاعاً من فطراته فتغلب سريعاً على عواطفه وأراد المرور .

عندئذ شعر برأس الحسام يخترق جسده وأحس بدمه يسيل من صدره وسمع ذات الصوت يقول له بذات اللهجة :

– ارجع الى الوراء أيها الرجل وإلا قتلتك وحق المسيح .

فأدرك عندئذ ان مخاطبه لا يود المزاح معه فتراجع الى الوراء بسكينة مدهشة ونفض عن ثيابه قطرات الدم التي كانت تسيل من جرحه وقال بصوت اجش مخاطباً باردليان :

– اني أحكم باسم جلالة الملك فآمر بان تستسلما إلي في الحال .

– ونحن لا نطيع لك أمراً .

– هل تتظاهر بالعصيان ؟

نعم !

فهز دي نوفي كتفيه باحتقار ووقف جانباً وأمر رجاله بالقبض عليهما وكانت بعض النوافذ مفتوحة فأطلت رؤوس المتفرجين الذين ذعروا مما ابصروا .

رأوا الجند قد هجموا مرة واحدة على باردليان وجوهان الشجاع ولكن المكان لم يكن متسعاً لهذا الأمر ولم يكن يكن يستطيع ان يرا أكثر من ثلاثة رجال إذا أرادوا ان يكون لهم حرية في حركاتهم .

وكان الشارع حتى تلك الساعة ساكناً هادئاً وإذا به قد امتلأ حركة وضوضاء وكان الاهالي قد استيقظوا من منامهم

مذعورين على هذه الضجة .

أما العاصيان فقد كفا عن الضحك والمزاح ووقفا جامدين كالأصنام وقد اشهرا سيفيهما بايديهما وانقضا على الجند المهاجم ؟ وفي الحال سمعت اصوات الألم من كل جانب فذعر الجند من هذه المباغتة غير المنتظرة وتراجعوا الى الوراء بعجلة وبغير انتظام وساد على الجميع سكون عميق .

مرّ بضع ثوان على هذه الحادثة فكان الحاكم الاعظم يزبد من فرط حنقه ودهشتهما عندما تحقق ان ستة من رجاله لم يعودوا صالحين للقتال وان أربعة منهم قد جرحوا اقل خطراً

بينما السكوت سائداً على الجميع سمع صوت يدل على الألم الشديد وكان صاحب الصرخة هو المركيز دي لافاربن الذي انسل خلسة الى احدى جهات السلم وهو يبذل جهده ليختفي وراء العمود الواقف أمامه جوهان الشجاع فيضربه ضربة شديدة على ساقيه تمنعه من مداومة القتال فمد ذراعه ليضرب به ولم يظهر على ملامح جوهان الشجاع انه شاعر بالخطر الذي كان يتهدده ولكنه في حقيقة الأمر كان يراقبه من طرف خفي فلما شعر بدنوه رفسه برجله رفسة شديدة أصابته في ام وجهه قلبته على الأرض فانقلب سروره الى ألم لا يوصف وقد أخذ الدم يتصبب بغزارة من الجراح التي اصابته .

وأبدى دي نوفي اشارة من يده فاقترب الجنود من العاصيين وحصروهما في نطاق ضيق وفي الحال سمع صوت يأمر الجميع

بان يخفضوا سلاحهم فتوقف الجند في مكانهم والتفت الحاكم الأعظم الى مصدر الصوت لعله يعرف صاحبه فرأى رجلاً يقترب بسرعة من دائرة النور ولم يكن يراه حتى عرفه فرفع قبعته عن رأسه باحترام وفرح قائلا :

— جلالة الملك .

وظل باردليان وجوهان الشجاع واقفين في أماكنهما ولكنهما رفعا سيفيهما للتحية ولم يعرف أحد من الحضور إذا كانت هذه التحية موجهة للملك او للجند المغلوب وبسكينة مدهشة اعادوا السيفين الى الاغماد وظلا واقفين وقفة المبارز المدافع غير ان ابتسامة السخرية والامتهان لا تفارق فمهما وقد ظهر من ملامحهما ان كلا منهما مسرور وراض عن الآخر .

الفصل السابع

المكاشفة

قادت الانسة برتيل جلالة الملك بمزيد الاحتفاء والاكرام الى بهو صغير مفروش برياش في غاية البساطة وهو واقع خلف المنزل وليس له الا نافذة واحدة تطل على شارع كورباتون .

وهذا ما يدلنا على السبب الذي دعا الملك للتأخر في المداخلة بين المتخاصمين .

ارتمى الملك على مقعد صادفه امامه وتفرس برهة وهو صامت بالفتاة التي كانت واقفة امامه بمنتهى العظمة وبعد ان حدق بها وتنهد تنهداً خرج من أعماق صدره وقال لها :

— اجلسي يا بنيتي .

فاطاعت الفتاة هذا الامر وجلست على الكرسي الذي دلها عليه الملك الذي عاود تأملها بدقة اكثر من الأولى وتنهد تنهداً أشد من المرة الأولى وسألها قائلا :

— هل انت حقيقة ابنة بلانش دي سوجيس .

نعم انا هي ابنة بلانش دي سوجيس التي ماتت من ألمها وخجلها يوم وضعتني في هذه الحياة وذلك منذ ستة عشر سنة وخلفتني لقيطه كما يلقبني الأشقياء لأن أمي لم يكن لها زوج شرعي اما ملك والدتي فواقع قرب نوجان ليروا وانا هي الفتاة التي ترتاب بها ووالدي هو .. الشخص الذي تعرفه .

وكانت تتكلم ببساطة مقرونة بالحشمة والكرامة فخجل الملك من حديثها وأحنى رأسه الى الامام وهمس قائلا بصوت خافت :

– ابنتي .

وكان تأثيره ناجماً عن تفكيره بغرامه لهذه الفتاة التي هي ابنته أما خجله وكدره فكان لمقصده السافل بدخوله منزلها .

وتذكر انه دخل فيما مضى من الايام منزل الأم بهذه الطريقة المعيبة وخدعها وغشها كما كان ينوي ان يعمل اليوم مع ابنته ، فأخذت له هذه الذكرى توبيخاً شديداً في ضميره لأنها ذكرته بذلة كان قد نسيها منذ مدة طويلة .

وبعد ان تفكر ملياً بامره معها جزم بان ما كان يتوهمه حباً وغراماً لم يكن سوى شعوره الوالدي الذي تحرك في فؤاده لما رأى ما بين الفتاة وأمها من المشابهة الغريبة وكان هذا التعليل كافياً لأعادة السكينة الى نفسه المضطربة .

يقيت مسألة الاعتداء وهي مسألة قديمة العهد ، ولكن الأمر الذي لا يغتفر من تخليه عن هذه الفتاة مع علمه انها ابنته

ولكن هذه الزلة قابلة للتعويض والتفكير ، لذلك وطد عزمه على الاهتمام بابنة بلانش دي سوجيس اهتماماً ينسيها حزن الماضي .

وكان ينظر خلسة باعجاب الى هذه الفتاة البالغة منتهى الجمال وكان كلما زاد تأملا فيها زاد عزمه توطيداً وغلب عليه تأثره فمد اليها ذراعيه وقال لها :

– تعالي الى صدري يا ابنتي .

وخيل له بانه باعترافه بانها ابنته وفتح ذراعيه لاقتبالها على صدره قد زاد في التلطف والمجاملة معها وانها لا تلبث ان ترتمي بين ذراعيه وتناديه بلقب الوالد وهي شاكرة لمعروفة ، ولكن أمانيه قد خذلته هذه المرة ايضاً ، فان الآنسة برتيل ظلت جامدة في مكانها ولم تتحرك ، بل هزت رأسها بلطف وقالت بحزن لا يوصف :

– لسوء الحظ ليس لي والد ولن يكون لي الى الأبد .

فأخذ الملك هنريكوس يدرس ملامحها بدقة اذ كانت تنظر اليه بحزن عميق ولم تؤثر عليها جلالة الملك ولا السلطة الوالدية وأدرك بان هذه الفتاة التي شبت على الشقاء والتعاسة قد ربأها الدهر وعلمها قوة الارادة فلا تخدعها الظواهر الكاذبة ولا تغشها الثروات الطائلة وعلم علم اليقين انه واقف أمام حاكم شديد القسوة يجب عليه ان يقدم لها حساباً دقيقاً عن اعماله الماضية وانها ليست الفتاة الغرة الساذجة التي توهمها والتي تكتفي بكلمة واحدة لتناسي الماضي .

وكان قد تأمل انه يستطيع التخلص من الايضاحات التي يسوءها سردها باستعمال المواربة والدهاء ولكنه لم يلبث ان تحقق خيبة آماله .

ومن مميزات هذا الملك في اخلاقه انه كان كثير العدل فحكم بان الفتاة محقة بعملها وان استياءها منه في الحاضر لاهماله اياها في الماضي أمر مشروع إذ ليس عليها من سلطة خصوصاً وانه لم يفكر بالاعتراف بها رسمياً والاقرار بانها ابنته الشرعية كما فعل مع باقي اولاده ، وجزم بان لا مسوغ له لاستعمال سلطته الملوكية في مثل هذه الظروف التي تعود عليه بالعار والخجل ، لذلك عزم على مقابلة الكوارث بصبر جميل وان يوضح لها كل المسائل التي تريدها ويظهر لها كل ما يستطيعه من ضروب العطف واللين وان يكتسب فؤادها وثقتها بالحسنى حتى اذ رأى منها عقوقاً زائداً يستعمل سلطته الرهيبة .

وأحب أن يبرهن لها عن اقتناعه باصابة عملها واعترافه بانه كان المسبب لنعاستها الماضية فسألها بلطف ظاهر :

— هل تعذبت كثيراً يا ابنتي ؟

— نعم فقد كنت كثيرة التعاسة يا صاحب الجلالة .

— اني شاعر من نفسي باني كنت سبباً في شقائك وتعاستك ولكن لا يجب ان تنسبي اليّ الذنوب التي ارتكبها او تحسبيني مجرماً اكثر مما أنا هو ، وستعلمين في مستقبل الايام ان الملوك والأمراء لا يعيشون لنذواتهم ولكن للشعوب التي يتولون

حراستها والسهر عليها فهم لا يستطيعون دائماً ان يطيعوا عواطف قلوبهم ولا ان ..

فقاطعت حديثه بشدة قائلة :

— اخطأت يا صاحب الجلالة اذا كنت تحسب اني في جوابي اتعرض لأية شكوى كانت ولم يخطر ببالي قط ان اطلب من الملك أي إيضاح عن سلوكه معي . ان الملك هو سيدي ومولاي المطلق ولیس له ان يبرهن عن اعماله لغير ضميره وليكن على ثقة تامة باني لا انساه أبد الدهر .

ولم يكن الملك يتوقع هذا الجواب الذي سره سماعه لأنه خلصه من مكاشفة تثقل عليه ، وفي الحال عاد الى سروره وانشراحه فقام عن المقعد وأخذ يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يفرك يديه دلالة على ارتياحه وقال :

— لقد احسنتي يا بنيتي في هذا الجواب وقد تحققت بمزيد السرور والارتياح ان حكمتك توازي جمالك ولا أريد ان اكون أقل صراحة لذلك فاني اعترف بخطأي السابق معك ولكنني أعدك واعداً ملوكياً بان امر مستقبلك سيكون منوطاً بي بعد الآن وسأجعلك أسعد الفتيات فتحسدك اعظم السيدات قدراً ، وكوني منذ الآن على يقين تام باني انفذ كل رغباتك وكل طلباتك مقضية عندي من غير رده .

— إذا كان الأمر كذلك فاني التمس نعمة واحدة من جلالة الملك وأجعله في حل من كل وعوده لي .

– تكلمي يا بنيتي وإذا كان ما ستطلبينه ليس من المستحيل فهو مقضي منذ الساعة .

– هل استطيع مقابلة صاحبي جلالة الملك نحو الشاب الذي ينتظره عند باب منزلي .

– من انبأك بان الجنون يبلغ به الى حد انتظاري .

– سمعته وعدك بذلك .

– إذن فانت تعرفينه أكثر مني وتعلمين انه من الذين يبرون بوعدهم .

– اخطأت يا سيدي فاني لست اعرفه ولم اتكلم معه قبل هذه الليلة ولو لم يذكر اسمه لجلالتك امامي لما عرفته .

– وما الذي يهمك من هذا الشاب ولماذا تسألين عنه .

– انه اقتحم غضب جلالتك ليدافع عني .

وما الذي يعنيه من هذا الشأن ولماذا يتداخل في أمور لا تعنيه ؟ وكيف يدافع عنك ولم يكن من خطر يتهددك ؟

– هل جلالتك على يقين من هذا الامر .

فارتجف هنريكوس الرابع لسماعه هذا السؤال لأن لهجة الفتاة الملائكية اللطيفة انقلبت فجأة الى لهجة قاسية رنت في أذنيه كشكوى صريحة متوجهه اليه ونظر اليها فرآها تحدق به وعلائم التوبيخ بادية في نظراتها فاحب ان يستر خجله منها لذلك عاود التمشي في الغرفة وهو مدبر لها ظهره وبعد صمت قليل سألها بقوله :

– اخبريني كيف وجد هذا الشاب أمام باب منزلك في هذه الساعة فهل يقضي ليالية على حراستك وإذا كان الامر كذلك فمن الذي خوله هذا الحق .

– لست ادري .

– إذا كنت لا تعرفين فأنا اطلعك على السبب وهو انه يحبك ولا ريب بانك تشاطرينه هذا الحب .

– لماذا أكتم حباً قد يرى جسدي فاني لما كنت أراه يمر تحت نافذتي وعيناه تتقدان حباً وغراماً وشجاعة وشهامة كنت أشعر بسعادة عظيمة تساورني ولم اكن اعلم وقتئذ اذا كان يحبني او كنت أحبه .. ولما رأيته واقفاً يدافع عن بابي كالأسد الذي يدافع عن عرينه تولتني السعادة العظمى .. ولما ابصرتك عرفتك في الحال وأنا على يقين إنه عرفك أيضاً ومع ذلك فهو لم يتردد بأمره وقد هدد بحسامه صدر الملك .

– انصحك ايتها العزيزة بان لا تذكريني هذه الحادثة .

– ولما رأيت منه هذا الاقدام تأكدت بانه لولا حبه لي لما جسر على هذه الجرأة الغريبة فكنت واقفة في مكاني انظر بشغف الى اعماله حتى رأيته كاد يفتك بك ولم أكن استطيع تركه يتمكن من قتلك فتداخلت في الوقت الملائم وقد نسب مداخلتي الى صفتها الحقيقية ولست ادري ما الذي ظنه عندئذ ولكني تأكدت انه احب الموت ، لذلك وعدك برافقتك الى قصر اللوفر اذ لم يكن له غير هذه الوسيلة للانجاز وشعرت

عندئذ بان دمي كاد يجمد في عروقي وتحققت باني أموت اذا اصيب بسوء لاني أنا أيضاً احبه .

– اوهام لا يجب ان تفكري بها بعد الآن .

– ما الذي يعنيه بقوله جلالة الملك .

– اردت ان افهمك ان حالتك الماضية كفتاة خاملة وضيعة لا تتفق مع المركز السامي المعد لك في الغد فيجب عليك ان تودعي الماضي الحقير وإن تكوني ذات مطامع عظيمة تتفق مع مركزك الرفيع .

– اني اسأل جلالتك بان لا تهتم بي بعد الآن فان العظمة ورفعة المراتب لا تغريني اقسم لك بان وجودي في البلاط سيكون داعياً للكدر اما حالتي التي توهمتها حقيرة فاني اراها ليس ارفع منها والفقر لا يسوءني بل يسرني كثيراً واراني في غاية السعادة ولست ارجو الا بقائي في حالتي الحاضرة .

– انك تعيشين في فقر مدقع يا ابنتي وسأقدم لك قصراً انيقاً تعيشين فيه كالأميرات ويكون عندك كثير من الوصيفات والخدم والخيول والمركبات وازيدك مائة الف ذهب ايراداً سنوياً لقاء جهداً فاجعلك مركيزة اذا احببت وأزوجك امير اختاره لك يكون جميلاً وشجاعاً ففكري بما اعرضه عليك .

– لست اريد شيئاً من الالقاب والايراد والازواج ولست أرجو إلا ان ابقى على ما أنا عليه فان الجواهر التي خلفتها لي والدتي تؤلف ثروة صغيرة واملاكي في سوجيس تكسبني الغي

ذهباً كل سنة ولست انفق نصف هذا المبلغ بل اكرس ما ادخره الى الفقراء فأطلب من جلالتك بكل خضوع وثبات ان تتناساني وتتركني على حالتي لابقى لك شاكرة ابد الدهر .

– ان ما تقوليه ضرب من الجنون وما جنونك إلا لانك صادفت غريباً وتعلقت به وما هو إلا من المتشردين .

– لقد سألت جلالة مولاي ان يطلعني على ما ينوي عمله مع هذا الشاب الذي يدعوه متشرداً .

– هل تعلمين الجريمة التي ارتكبها ؟

– نعم فهو مذنب نحو جلالة الملك .

– إذن فهو ينال العقاب الذي تستحقه هذه الجريمة .

– الا توجد وسيلة لتغير عزمك يا صاحب الجلالة ؟

– كلا .

ان ابنة بلانش دي سوجيس هي التي تلتمس من جلالتك العفو عن الرجل الذي تحبه فما رأيك بذلك ؟

– لو قامت بلانش دي سوجيس من قبرها والتمست مني هذا الامر لقابلت طلبها بالرفض .

– يشهد الله علي يا صاحب الجلالة اني كنت اود عدم التعرض لعار الماضي لئلا تضطرني الحال لذكر عار الحاضر .

– وما الذي تعنيه بقولك ؟

– ستعلم ذلك عن قريب .. لو كنت لوحدي او كان الأمر منوطاً بي دون سواي لسكتت ولكنه يتعلق بالرجل الذي أحبه والذي أصبح تحت طائلة غضبك ، لذلك سأتكلم وإذا

كان ما أقوله سيسحقك خجلا فالذنب يكون عائداً عليك دون سواك لانك انت الذي دفعتني الى هذه الدرجة من اليأس .

– يا لها من كلمات كبيرة صادرة من فم جميل صغير .

– منذ ست عشرة سنة حسب رجل انه يكون ملكاً ولأن الخمره قد أثرت برأسه اصبح يحق له عمل ما يريده، ففي احدى ليالي الربيع انسل خلسة الى منزل احدى الفتيات التي كانت طاهرة من كل وزر.. انك تعرف هذا الرجل يا صاحب الجلالة لأنه لم يكن سواك أما الفتاة الطاهره فقد كانت والدتي .. لاحظ يا مولاي اني اذكر الحوادث الماضية ولا اعلق عليها شيئاً أمامك انت الذي لا تريد ان تعفو عن أحد المجرمين لأنه قاوم سيفك بمثله كأن سيف الرجل النبيل لا يساوي سيف الملك .. نعم أنا ابنة الفتاة الطاهرة البريئة من العيب التي ذهبت شهيدة الغدر والخيانة اسألك ان تغفر لي زيادة الاسهاب في وصف هذا الرجل وسلوكه .

– شكراً يا عزيزتي الحسناء فأتمي حديثك لاني وجدت أهمية عظمى لكلامك .

– ان الرجل انتهز فرصة قوته ليغدر بالفتاة المسكينة الضعيفة وأظن انا على يقين بان هذه الجريمة أكثر فظاعة من الذنب الذي لا تريد العفو عنه يا سيدي .

واليك ما لا تزال تجهله يا سيدي الملك فان بلانش دي سوجيس كانت مخطوبة .

فارتجف الملك حين سماعه هذا الجواب ولكنها تظاهرت بعدم ملاحظته وأتمت كلامها بقولها :

– لما تلحفت والدتي بالعار لم تجسر على الاباحة بسرها الى الرجل الذي كانت تحبه ولكنها جزمت على ذاتها بانها لم تعد اهلا له فاسترجعت الوعد الذي ابرمته معه وصرفته غير ان ذلك النبيل كان يحب والدتي حباً يقارب العبادة فالح عليها مزيد الالحاح الى ان تمكن من الوقوف على سرها فجاهر لها بانه لا يزال محافظاً على ولائها وعرض عليها ان يتزوجها رغماً عن الاهانة العظمى التي التحقت بها وكان مثل هذا الاقتراح يشرف قائله كما يشرف الفتاة التي عرض عليها ولكن والدتي كانت لسوء الحظ كثيرة الانفة والفخار فلم تقبل ما عرضه عليها واتفقا على الانتحار سوياً واعداً كل ما يلزم لهذا الانتحار المزدوج ، وبينما كانا على أهبة مفارقة هذه الحياة شعرت بلانش دي سوجيس بانها حامل وستصير اما عن قريب فقررا انتظار ولادة الطفل الصغير الخالي من الوزر لتنفيذ ما نويا عليه ... وفي اليوم الثاني من ولادتي شربت والدتي السم في كأس واحدة مع خطيبها وإذا ذهبت يا سيدي الى سوجيس تجد ضريحاً قائماً فوق صليبان مشتبكان فهنالك ترقد والدتي مع خطيبها الذي احبته وأحبها اكثر من الحياة وقد ذهب كلاهما ضحية طاهرة لأن المجرم هو كان مثلا مجرمة عظمته ففرقهما في الحياة ولكنها اتحدا في الموت افلا تعتبر يا سيدي هذا العمل قتلا مزدوجاً .

واستولى الحزن والكدر على الملك حين سماعه هذا الجواب وكان يصغي الى ما تقوله ابنته وهو يجهل تلك التفاصيل فلما رأته الآنسة برتيل صامتاً لا يحير جواباً اردفت كلامها قائلة :

– وفي غد ولادتي كنت يتيمة بلا والدين ولكنني كبرت وصرت افهم مكنونات هذا العالم علمت اني ولدت من والد . فمن هو ابي وما هي صناعته وما هو مركزه في الهيئة الاجتماعية وما هو اسمه وذلك كله كنت اجهله اما الخادمة العجوز التي نابت مناب والدتي في تربيتي فانها علمتني منذ ابتدأت انطق بالكلمات الاولى ان اصلي لوالدتي التي هي في السماء ثم علمتني ايضاً ان اصلي لوالدي ليتذكر ان له ابنة ويعود اليها وبواسطة هذه الصلاة التي كنت اردداها يومياً تأكدت ان لي والداً لا يزال على قيد الحياة ولست في حاجة لأن اعيد عليك ما تراكم على عيلتي من الاسئلة الغريبة لما تحققت هذا الامر ولكنني لم أكن القى إلا جواباً واحداً وهو ان المجرم ابي وان واجبي يقتضي عليّ بمساعته وتناسي زلته .

– ما الذي يوجبك لتجديد هذه التذكارات المؤلمة لكل منا ؟

– انك انت اردت ذلك ويجب ان تعلم تتمة حكايتي ولو كان فيها ما يسوءك سماعه فمنذ سنتين اخذتني مربيتي من سوجيس وقادتني الى باريس وقد سألتها عدة مرات عن سبب انقلابها الفجائي فأكدت لي بان والدي موجود في العاصمة العظمى وبذلك أكون قريبة منه ولعلي اتمكن من رؤيته في أحد

الأيام ومتى رآني يشفق عليّ ويعترف بي اني ابنة له فاطعت ممتثلة لهذا الأمر ولكن والدي لم يتقدم قط رغماً عن تأكيد مربيتي لي بي وقولها انه على مقربة مني .

– اقسم لك بالله العلي العظيم اني لم اطلع قط على شيء من هذه الاسرار .

– قد تكون صادقاً في قولك ولكن مربيتي كانت قد بلغت وفتئذ من الكبر عتياً فماتت وهي توصيني بان اطلع على بعض اوراق سرية اخفتها في محفظة سلمتني اياها قبل وفاتها وقد اطلعت من هذه الاوراق على حكاية والدي ولا يخفاك ما كان في هذه المكاشفة من الضغط والشدة على فتاة لم تبلغ السنة الخامسة عشرة من عمرها وهي تجهل كل معاني الشقاء في هذه الحياة غير ان مربيتي المسكينة كانت قد غرست في ذهني فكرة للعفو والصفح فلم أكد افكر بان العن الرجل الذي هو والدي وكان سبباً لشقائي لأني لم أكن افكر بغير التعرف على والدي الملك . لقد تمكنت بسهولة مما أريده وكان بامكاني أن أعود الى سوجيس ولكنني لست ادري نحو العاطفة التي تدفعني إلى البقاء في لمكاني .. ثق يا سيدي باني لم اكن ابالي سواء كان الملك او سواه ولداً لي غير اني لم أكون اتصور بان ملكاً عظيم الشأن يتدانى الى مثل هذه السفالة ولكني لم أكن استطيع الارتياب باقرار والدتي فاستجمعت الرأيين وحكمت عواطف فؤادي فحكمت بان والدي لم يكن مذنباً الى الدرجة التي اتوهمها وانه لو تنازل وأظهر لي بادرة من الشفقة

والحنان التي بخل بها علي كل تلك المدة الطويلة لكنت اغتفرت له جريمته مهما كان نوعها ولصفحت عنه باسمي واسم والدتي تلك الشهيدة البريئة من الزلات والعيـــوب .. لم اكن والله لأطمع بان يعترف بي الملك ابنة له ولكن الأمر الوحيد الذي كنت أتوخاه هو ان اتمكن من تقبيله وضمه الى فـؤادي سواء صدقت الاخبار التي بلغتني عنه أو كذبت .

– اني اصدق ما تقولينه فلا موجب للحلف .

– لسوء حظي ان والدي لم يأت كما كنت اؤمله وتوالت علي الأيام حتى امحت ذكراه من مخيلتي .

– اخطأت يا عزيزتي فها قد جئت اليـــك وسواء كان حضوري متقدماً او متأخراً فقد جئت والسلام .

– ليتك لم تكن اتيت فقد كان ذلك خيراً لنا وأبقى .

– ويحك ما الذي تقولينه أيتها الفتاة .

– قلت انك حاولت دخول منزلي كما فعلت ذلك قبل ست عشرة سنة مع والدتي... أقول اني لو لم ابح باسمك وأطلعك على سري لارتكبت معي الجريمة التي أتيتها مع والدتي .

– ويلاه جننت حتى صرت تهزئين بي !

– اخطأت يا سيدي فيما تقوله وإذا حاولت النكران فقل لي ما معنى الاشارة التي سمعتها من غرفتي إذ رأيتك تصفق بيمينك وأنت مختبىء في جنـــح الظلام بل قل لي لماذا تركت السيدة كولنيكل وهي الشهيرة بخوفها باب منزلها مفتوحـــاً

وهي التي تهتم بقفله كل ليلة قبل كل شيء .. بربك مـا الذي اعطيته لها حتى جارتك على هواك وتمكنت من خديعة هـذه المرأة السافلة .

فذعر الملك لهذه المباغتة التي لم يكن يتوقعها ولم يستطـع احتمال نظرات ابنته الحادة ، وعاودت الآنسة برتيل حديثهـا بقولها :

– لا ريب بانك تتساءل كيف ان فتاة لا تزال في مقتبـل عمرها تتمكن من ادراك هذه الفظائع ولكنك نسيت والحالة هذه اني اطلعت من حياة والدتي المسكينة على أمور رهيبة وقد زدت سلسلة جرائمك حلقة متينة لذلك يحق لي ان اتطلب منك الشيء الكثير ولكني لم افعل ... اني طلبت منك امراً زهيداً لا يكاد يذكر وهو ان تنسى او تتناسى كلمـة قيلت لك او كلمة سمعتها ولكنك ابيت اجابتي الى سؤالي فليكن ما اردته يا ابتاه واتم عملك الفظيع واقتل إذا احببت ابنتك فان عذرك واضح يا ذا الجلالة ... واعلم باني اهنت مثله شخص الملـــك فارسلنا إذا شئت الى العذاب لأني مستعدة على تحمله وكما قتلت الأم وخطيبها في آن واحد اقتل ابنتك والشاب الذي احبته .

وأراد الملك مجاوبتها لتسكين اضطرابها ولكنه سمع حركة بعيدة تشبه حركة القتال فصمت وأصغى وكانت الآنسة برتيل قد سمعت هذه الحركة ايضاً فلم تبال بالملك بل تركته في مكانه واندفعت الى الشرفة وفتحت نافذتها بعجلة زائدة وألقت نظراً

مشتتاً على الطريق وفي الحال عادت نحو الباب بخطى ثابتة ولكن وجهها كان يشبه وجه الاموات باصفراره فصرخ بها الملك قائلاً :

– الى اين تريدين الذهاب يا بنيتي ؟

– اني ذاهبة لأموت معه لأن رجالك يريدون الفتك به .

– اخطأت يا عزيزتي فاني لا اريد موته .واظنك قد ادركت مأربي. ابقي هنا ايتها الآنسة لاني لا اريد ان اتسامى أكثر مما فعلت باني انا الحاكم الوحيد الذي لا يعارض حكمه.

وذهب بدوره ليرى ما هو جار في الطريق وفي أسرع من لمح البصر ادرك حقيقة الحال فأقفل النافذة وهمس قائلاً :

– لا ريب بانهما سيتمكنان من الثبات دقيقتين او ثلاث بعد وسأصل في الوقت الملائم .

والتفت الى الآنسة برتيل وقال لها بلطف :

– انى اسامحك يا بنيتي ولا اذكر ما قلتيه لي وانك تعمدت اهانتي انا أبوك وملكك فاسكتي ودعيني اتم عملي لأني لا اريد اكراهك بوجه من الوجوه وانت التي ستقررين مستقبلك كما تحبين لذلك اطلق لك الحرية التامة وبعد بضعة أيام سأحضر لزيارتك وتكون زيارتي لك في رابعة النهار وأنا مصحوب بحاشيتي ورجال بطانتي فلا ثمة مجال للتقول عليك أو الظن بك اما الآن فدعيني اخرج من هذا المنزل لأن ساعة العمل قد دنت . ولكن هل لمنزلك مخرج غير الباب الذي

دخلنا منه ؟

– نعم وهو باب مؤدي الى شارع كورباتون فتكرم يا صاحب الجلالة واتبعني الى حيث اقودك .

وبعد لحظة وجيزة كان الملك هنريكوس الرابع يجتاز الشارع بخطى واسعة كعادته الى ان وصل في الوقت الملائم ليمنع رجال الحاكم الأعظم من الفتك ببارديليان ورفيقه جوهان الشجاع .

الفصل الثامن

نزهة مع الملك

اقبل الملك بمزيد العجلة ووقف في اسفل الدرج ضمن الدائرة التي يسطع فيها نور المشاعل وخاطب الحاكم الاعظم بلهجة دلت على تهكمه به .

– ما الذي حدث من جديد يا نوفي ؟

– لقد اردت يا صاحب الجلالة القبض على هذا الشاب ولكنه ابدى العصيان وأبى الاذعان .

– أجب ايها الشاب على هذه الشكوى .

فتقدم جوهان حتى آخر الدرج وانحنى أمام الملك وقال:

– ان هذا الرجل لا يدرك ما يقوله يا مولاي. واني اؤكد لجلالتكم بانه هو العاصي ولست انا .

– افصح كلامك أيها الشاب .

– ان الأمر بسيط للغاية يا مولاي فان جلالة الملك أمرني بان انتظره أمام هذا الباب ليذهب بي الى اللوفر أو الى محل آخر .

– لا أخالني انني اصدرت لك مثل هذا الأمر .

– لست انكر ذلك ولكن جلالة الملك قد صادق على قولي فكان مصادقته أمراً صريحاً لي .. وبينما أنا واقف في مكاني جاءني هذا الرجل وطلب مني من غير سؤال ولا جواب ان اغادر هذا المكان الذي امرني جلالة الملك ان انتظره فيه وقد كان الفارس باردليان شاهداً على نزاعنا فأراد ان يطلعه على حقيقة الأمر ولكنه لم يصغ له سمعاً وأصر على غيه وأبى الا أن يمنعني من تنفيذ اوامر الملك فبذلك يكون قد جاهر بعصيانه على جلالته مع ان اول واجباته تقضي عليه بطاوعته والامتثال لأوامره اما وقد خالفها فيجب شنقه علناً .

فكاد الحاكم الاعظم يجن لسماعه هذه الوقاحة وصرخ قائلاً :

– ايسمح لي جلالة الملك بالكلام ؟

والتفت الملك الى باردليان وسأله قائلاً :

– وانت هل تدعي انني اصدرت لك أمراً بانتظاري في هذا المكان وانك عملاً بهذا الأمر بقيت هنا الى ان انيت اليك.

– نعم يا صاحب الجلالة .

– ان ما اسمعه منك من الغرابة بمكان فافصح بقولك .

– لا اظن ان جلالتك امرتني بان اتولج حراسة هذا الشاب فضحك الملك ضحكاً عالياً والتفت الى الحاكم الاعظم وقال له :

– صدق هذا الرجلان بقولهما وما وجودهما في هذا المكان إلا بامري أما أنت يا نوفي فخادم امين ولست انسى لك حسناتك .

– النمس من جلالتك ان تأذن لي بمقابلة مستعجلة ومهمة .

– سأمنحك ما تريده غداً .

فخفض ذي نوفي صوته وهمس في اذن الملك قائلا :

– ان الامر يتعلق بهذا الشاب يا صاحب الجلالة فهو ليس من البلاء كما حسبته .

فتردد هنريكوس برهة وتطلع رغماً عنه الى نافذة المنزل الذي تقيم فيه ابنته وقال :

– وعدتك بالمقابلة التي طلبتها في الغد فاذهب الآن .

والتفت الى القائد برسلين وقال له :

– عد أيها القائد العزيز الى اللوفر وتولى حراسته . أما أنا فان هذين النبيلين الشجاعين يتوليان حراستي .

– إذاً فانا ذاهب مرتاح البال لانهما يساويان لوحدهما فرقة كاملة من الجند .

وانحنى أمام الملك باحترام وانصرف مع رجاله وخاطب الملك باردليان وجوهان الشجاع قائلا :

– هيا بنا ايها العزيزان فاني اريد انتهاز هذه الفرصة الثمينة والتجول قليلا في عاصمتي المحبوبة .

ونأبط الملك ذراع باردليان لأنه كان معتاداً ان لا يمشي إلا متأبطاً ذراع أحد أخصائه وظل سائراً بهما الى جهة اللوفر

وقد بدت عليه أمارات البسط والسرور .

ولم يدلج اثناء الطريق ولا بكلمة واحدة الى ما عمله معه جوهان الشجاع الذي كان يسير عن شماله ولا تعرض لمخالفة باردليان لأوامره والكلمات القاسية التي سمعها منه ولا بالعراك الشديد الذي جرى بينهما وبين الجند وكأن هذه الأمور لم تحدث ولم تخطر بباله بل جعل حديثه دائراً على المارحة .

ولما وصلا الى آخر الطريق عطف الملك للجهة المعارضة للجهة التي كانوا يسيرون فيها ومروا مرة ثانية أمام منزل الآنسة برتيل وهم يضحكون حتى وصلوا الى شارع سانت هونوري .

وفي منتصف شارع الشجرة اليابسة كانت توجد عين للماء بنيت في أيام الملك فرنسيس الأول .

وكان مختبئاً في ظل هذه العين ثلاثة أشباح جالسين القرفصاء وهم سكوت وأيديهم على قبضات سيوفهم كأنهم يترقبون وصول الملك هنريكوس الرابع ورفيقيه لأجل الفتك بهم .

أما هؤلاء الأشخاص الثلاثة فقد كانوا اسكركاس وكرنكايل وكركان الذين صادفناهم في صباح ذلك اليوم أمام منزل جوهان الشجاع على ما رويناه لقرائنا الكرام .

قلنا ان الملك كان يستند على ذراع باردليان الذي كان يمشي على جهة اليمنى أما جوهان الشجاع فكان على يساره فلما

وصلوا الى قرب العين. ذهبوا في الجهة اليمنى فمر الملك وباردليان ولم يلاحظ الثلاثة الرجال الكامنين في ذلك المكان ، اما جوهان الشجاع فانه فسح مجالاً لمرور رفيقيه ثم توقف برهة عند حافة العين وهمس من فمه بضع كلمات سمعها اولئك الشجعان ثم أسرع خطاه حتى يلحق برفيقه وعاودوا السير في شارع سانت هونوري .

ولم يكد الملك ورفيقاه يبتعدون عن ذلك المكان حتى هب اولئك الشجعان الثلاثة واقفين في أماكنهم وهم ينظرون الى بعضهم نظرات دهشة واستغراب كأنهم نجـــوا من خطر عظيم ، وقال اسكركاس :

– اني احمد الله حمداً جزيلاً لخلاصنا من هذه الورطة الوبيلة.

– لولا القليل لكنا هاجمنا رئيسنا الاعظم .

– ولو فعلنا ذلك لنالنا من ضرباته ما لا ننساه ابد الدهر.

– صه يا كرنكايل فاني ارتجف فرقاً لمجرد افتـكاري بهذا الأمر .

– لم يكن في وسعنا ان نعرف ان رئيسنا هو القادم علينا.

– قلت لكما اكثر من مرة اني عرفت صوته .

– أما هو فقد رآنا وعرفنا قبل ان يسمع كلامنا .

– يا له من داهية دهماء فكيف تمكن من معرفتنا وقد كنا مختبئين في مكان لا أحد يرانا فيه .

– لا تتعجب أيها الصديق فرئيسنا في الليل كالنهار .

– لقد سمعتنا ما أمرنا به رئيسنا الاعظم وذلك بان نتبعـه عن بعد على شرط ان لا نلفت الانظار الينا وان نكون على استعداد لنصرته متى ابدى لنا اول اشارة تبدر منه .

وبينما هم يتحادثون غادروا المكان الذين كانوا متستترين فيه ، وكان الملك قد عطف الى الجهة اليسرى المؤدية الى ساحـة التويليري حيث كان قائماً قصر اللوفر .

وكان أسقف باريس قد وضع سلمه في ذلك الشارع والظاهر ان آلة العذاب التي اشتهرت في ذلك الحين قد اشتق اسمها منه فوقف هنريكوس الملك برهة أمام ذلك السلم وقال بزيد البساطة كأنه دليل يرشد الغرباء على غرائب العاصمة الفرنسية .

– في سنه ١٣٤٤ تعلـق هنريكوس دي مالنيروا على سلم مثل هذه وقد رجم بالأوحال والاحجار ولكنه قضى نحبه في المرة الثالثة أما الجرم الذي ارتكبه فعصيانه اوامر الملك .

فارتجف رفيقاه لسماعهما هذا التعريض الصريح ، بيد ان الملك تظاهر بعدم المبالاة ، وقال له باردليان بملء السكينة :

لحسن الحظ انهم ابطلوا في هذه الايام السعيـدة تلـك الآلات الهائلة التي تدل على توحش لا مزيد عليه .

وأردف جوهان الشجاع قائلا :

– صدقت يا سيدي ولو كان المجرمون يخطئون نحو الملك .

وكان الملك قد توقف أمام احد ابواب قصر اللوفر وفتحه

www.liilas.com

بعجلة ثم التفت الى رفيقيه وقال لهما :

– أشكر لكما تلطفكما بالمجيء معي الى هذا القصر .

وخاطب باردليان بتودد لا مزيد عليه :

– اني لا ازال اذكر حسنات خدماتك التي قدمتها لي فيما مضى وأعدك وعد صادق بان اتناسى كل شيء غير ذلك.

فانحنى باردليان أمامَ الملك باحترام زائد وقال له :

– يسرني ان اقتدي بك يا صاحب الجلالة وان اتناسى ما أردت نسيانه يا مولاي .

فأراد الملك مجاوبته على قولة ولكنه كظم غيظه وخاطب جوهان الشجاع قائلا :

– أما أنت أيها الشاب فاني لستُ اعرفك من قبل ولكني وعدت بمسامحتك والعفو عنك وسأنجز وعدي هذه المرة ولكني انصحك بان تذهب الى احدى الولايات لتقضي فيها أيامك لأن هواء باريس لا يلائم صحتك .

فاصفر الشاب اصفراراً هائلاً وحاول جهده بالتغلب على عواطفه ثم انحنى أمام الملك وقال له :

– انى اشكر بكل خضوع واحترام لجلالة الملك هذه النصيحة الثمينة التي تكرم بان يتحفني بها ويسوءني جداً وأيم الحق ان ابدي لجلالته مخالفتي لأوامره لأن شغلي في الوقت الحاضر يتطلب وجودي في باريس فلا يسعني التخلف عنها .

– فليكن كما تريد أيها الشاب ولكني انصحك بان تبذل مجهودك كي لا اسمع بذكراك بعد الآن .

وأبدى الملك الى باردليان اشارة دلت على مزيد تودده اليه ودخل القصر من الباب السري الذي اقفله وراءه بعجلة ولم يدع لجوهان الشجاع مجالاً لمجاوبته على أمره .

الفصل التاسع

الشجعان الثلاثة

ولم يكد الباب يقفل خلف الملك ويصبح باردليان وجوهان الشجاع لوحدهما حتى سأل الاول الثاني .

– ما الذي كنت تعمله لو أمر الملك بالقبض عليك .

فلم يجاوبه جوهان الشجاع على سؤاله بل رفع يده الى العلاء وصرخ قائلا .

– إلي أيها الشجعان .

وفي الحال اقبل كرنكايل واسكركاس وكركان ووقفوا أمام رئيسهم وكل منهم واضع يده على قبضة سيفه وقد ابرقت عيونهم بالحة العزم وقوة الارادة كأنهم ينتظرون منه كلمة أو امراً لتنفيذه في الحال فصمت جوهان برهة وسأل باردليان عما يرتأيه فأخذ يصغر كعادته حين يرى امراً يعجبه .

وبعد ان تأمل جوهان برجاله وهو معجب ببسالتهم أمرهم بالانصراف ولما ابتعدوا عنه قال لباردليان :

– أن الملك بات مقدساً في نظري وأنت تعرف السبب وإذا كنت لا انوي إيذاؤه والحاق الضرر به فلا يستدل عن ذلك اني اسمح له بقتلي ولا ادافع عن نفسي ولو انهم حاولوا القبض علي لكنت بمساعدة هؤلاء الشجعان حملت عليهم واؤكد بانهم لا يستطيعون الوصول الينا ونحن في قيد الحياة .

– لقد أدركت مأربك لما رأيت هؤلاء الرجال يتبعونك أولا ولست انكر عليك باني لو كنت مكانك لكنت أتيت ذات العمل .

ثم التفت الى الثلاثة الرفاق الذين كانوا يسمعون هذا الحديث وهم سكوت وقال لهم :

– هل عرفتم من هو الرجل الذي كان معنا ودخل قصر اللوفر والذي كنتم تنوون الحملة عليه ؟ انه الملك .. فهل تزالون مصممين على اطاعة رئيسكم من غير تردد إذا طلب منكم مهاجمته .

فصاحوا كلهم بلى بلى .. اننا نفديه بارواحنا وبكل عزيز لدينا فشكر لهم باردليان اخلاصهم ومحبتهم ثم خاطب جوهان قائلا :

– هل لك أن تخبرني عما نويت عليه .

– اني عزمت بمساعدة هؤلاء الشجعان ان أحل على الجميع وافتح لي الطريق الفلاء فاما ان ادرك مأربي أو أموت .

أخاف عليك ايها العزيز ان يكون أمامك الحظ الأخير .

– لست أبالي بالموت. ألم تسمع ما قالته لي يا سيدي وأنها ابنة الملك وبما ان جنوني قد بلغ بي لأن ارفع عيني الى هذه المنزلة الرفيعة فيجب ان اكون اهلا لها ولو ادى بي ذلك الأمر لهلاكي .

– سواء كانت ابنة ملك أو ابنة قروي فالحب الصحيح لا تخدعه هذه المؤثرات الكاذبة وتذكر هذه النصيحة قبل ان تقدم على عمل تندم عليه اما الآن وقد انتصف الليل فاستودعك الله لأني في حاجة كبرى الى الراحة .

– لست اتركك يا سيدي إلا متى اوصلتك الى باب منزلك إذا سمحت لي بذلك .

– ان مرافقتك تسرني سروراً عظيماً أيها العزيز واني مقيم في شارع سان دينيس .

فأمر جوهان رفاقه بالانصراف وابتعد مع باردليان .

الفصل العاشر

المؤامرة

ذعر الرفاق لانصراف رئيسهم بمثل هذه السرعة وماشاهدوه على محياه من امارات الجزع فوقفوا في اماكنهم مبهوتين وقد تولتهم الحيرة والاندهال وقال اسكركاس بلهجة الأمر :

– يجب علينا ان نذهب سريعاً من هذا المكان لئلا يظن السيد كونسيني أننا تركنا وتخلينا عنه .

وأخذوا يسيرون بعجلة وهم يلتفتون خلف البيوت لأنهم اعتادوا على التكتم وكانوا كلهم آذان صاغية لمعرفة ما هو جار حولهم ويتكلمون مع بعضهم همساً لئلا يسمع أحد من الأغراب حديثهم الى أن وصلوا الى منزل السيد كونسيني وفي الحال ادخلوا الى غرفة متوسطة الكبر وهي مفروشة بالرياش الأنيقة ورأوا فيها شاباً في مقتبل العمر يتمشى ذهاباً وإياباً ليخفي اضطرابه وفروغ صبره .

لما غادرت اليونورا غاليكاني غرفة الملكة وجدت زوجها

كونسيني منتظراً الأمر ليدخل ويقابل الملكة ماري دي مدسيس وكان هذا الرجل ربعة القوام متناسب الاعضاء عريض الجبهة واسع الجبين أسود الشارب .

ومن الغريب انه كان كزوجته براق العينين حـــاد البصر ترسل عيناه أشعة مدهشة تدل تارة على القسوة المتناهية وطوراً على اللطف الذي لا مزيد عليه ، اما ملامحه فكانت طوع اشارته تنقلب الى الهيئة التي يريدها ، أما الحيلاء فقد كانت مسطورة بحروف مجسمة على جبهته ، وبالاجمال فقد كان منظره بلبـاسه الأنيق يدعو إلى الدهشة والاعجاب .

ولما ابصرته اليونورا اتقدت عيناها باشعة العطف والمحبـة أما هو فقد كانت بادية عليه أمارات انشغال الفكر والقلق ، ولكنه حاول أن يكتم اضطرابه بما يقوله من لطيف الحديث ، فانحنى أمامها باحترام كما لو كانت غريبة عنه وقال لها همساً :

ـ لقد جاء الشاب الى المنزل يا اليونورا واني عملا بوصيتك تجنبت مقابلته وهو الآن بانتظاري .

فأخذ فؤاد اليونورا يخفق خفوقاً شديداً وتنهدت تنهـداً خرج من أعماق صدرها ودل على مزيد تأثرها ولكنهـا ظلت محافظة على سكينتها وقالت :

ـ ثق أيها العزيز باني فعلت ذلك وانا مدفوعة اليه باسباب خطيرة .

اسألك إذا كنت تنوين استبقاء هذا الشجاع مدة طويـلة

عندك فقد كنت في حاجة قصوى اليه في هذا اليوم .

ـ يخال لي أنك ستضطر للاستغناء عن خدماته بعـد الآن وإذا لم تره غداً فكن على يقين بان ذلك يكون آخر موعد لك معه وتتخلص من هذا الشجاع الذي طالما سلقت عليه كبرياؤه .

ـ عجباً أية مهمة خطيرة عهدتها اليه ايتها الرفيقة .

ـ لقد صحت عزائمهم بعد مزيـــد التردد وسيتم الحادث الخطير في هذا المساء وكن على حذر يا عزيزي فان للحيطان آذاناً في هذا القصر فاذهب أنت إلى هناك وابذل جهـــدك لتستولي على إرادتها فلا تعود عن عزمها الذي قررته .

وسأنام الليلة في قصر اللوفر لاؤدي واجبات خدمتي ولعلك تحسن عملا إذا كنت مثلي هذه الليلة فهل أدركت مني ما أريد قوله لك .

ـ لست أصادق على رأيـك وأرى أن الافضل التمويه على الجميع ليحسبوني قضيت ليلتي في منزلي وسأبذل جهدي لاجيز عليهم هذه الحيلة .

ـ أراك مصيباً في قولك فافعل ما تريده .

وأكرر عليك نصيحتي أيها العزيز بان لا تغادر المنزل هذه الليلة أو بالحري انتظر حتى الساعة الحاديـة عشرة ونصف أو منتصف الليل لأني على يقين بان الامور تكون قد جرت على رغائبنا في تلك الساعة .

ـ أعدك يا ليونورا اني لاأغادر منزلي سواد الليل .

– اذهب يا عزيزي وقابلها لئلا تمل من الانتظار .

وتبعته اليونورا بنظرها حتى غاب عنها فانقلبت ملامحها من السكينة الى الاضطراب وبدت عليهـا كل أمارات الغيرة والحزن كأنها استيقظت من سبات عميق فحركت رأسها بحزن وأجهدت قواها لتظل محافظة على عدم المبالاة وأخذت تناجي نفسها بقولها :

– ان كونسيني عاشق مغرم ولم ألاحظ منه هذا الأمر حتى الآن فهل كنت عمياء حتى لم انتبه لأمره ؟.. وهل مـا يشعر به غرام صحيح أم هي عاطفة بسيطة لا تلبث أن تزول؟ ذلك سر من أسرار الطبيعة لأن ما اعلمه من أخلاق زوجي لا يدعى لي أملا كبيراً به وعلى الحالتين يجب ملاقاة هذه العاطفة منـه لئلا تتملك فيه وتتغلب عليه لأن نتائجها قـد تكون شؤماً علينا .. لسوء الحظ أن كونسيني بات مغرماً في الساعة الـتي ستصبح فيها ماري دي ميدسيس حرة وتتولى زمام احكام هذا الملك الجميل ونحن الآن في أشد الحاجة اليها وأن نتظاهر لهـا بالاخلاص التام لتثق بنا وتعهد الينا قيادتها في السبل الموافقة لمصالحنا .. من هي يا ترى الفتاة التي تعلق بها زوجي ؟

لا ريب بأنها ليست من نسوة القصر ولو كانت منهن لكنت عرفت سره في الحال .. الويل لهذه الشقية فقد كفاني مـا يلذعني من الغيرة بسبب ماري دي ميدسيس وفؤادي لا يتحمل الغيرة من اثنتين اذهب يا كونسيني وقابلها هذا المساء ولكني

غداً سأعرف اسمها ومحل اقامتها فانجز حسابي معها .

فلندع اليونورا غاليكاي سائرة نحو منزلهـا وهي تحاول تحريض جوهان الشجاع على الملك هنريكوس الرابع باثارتهـا عواطف الغيرة في فؤاده وقد عرف قراؤنا الكرام أنها تمكنت من تهييج حنقه على الملك ولكنهـا فشلت في القسم المهم من الخطة الجهنمية التي وضعتها وهو قتل الملك .

ولندعها منهمكة في أمورهـا الخاصة وهي اكتشاف غرام زوجها الجديد وهي تدبر الخطط الرهيبة للانتقام من الفتاة التي أحبها زوجهـا وحاءت لسوء الحظ تعترضها بوجودهـا في أم أعمالها ولنعد إلى كونسيني فقـد كان عالماً حق العـلم حراجة موقفه وأن أقل هفوة يرتكبها تعود عليه بالول الذي ستكون عاقبته الموت .

وكان يعلم أيضاً ان الملك مـا زال في قيد الحياة فـان الذي حرض القاتل على الفتك بالملك يكون عرضة لأشد الأخطـار فقد يقبض عليه ويسجن ويحاكم ويحكم عليه بالقتل والاعدام .

وكان يعلم أيضاً أنه أصبح آلة حية في يد تلك الامرأة التي قام يمثل أمامها دور العشق والهيام وأنه عن قريب سيضمها بين ذراعيه القويتين ، وسواء تمكن من أقناعهـا أو لم يتمكن فهي تستطيـع بكلمة منها أو اشارة أن ترفعه الى اسمى المراكز أو تنزل به إلى حضيض الذل وتلقيه في الهاوية التي كانت مفتوحة تحت قدميه .

ولما شعر من نفسه أنه أصبح حراً طليقاً بادر مسرعاً إلى منزله في شارع سانت هونوري وهو يتظاهر بالسعادة وكانت اليونورا قد عادت الى قصر اللوفر فاستدعى الرفاق الثلاثة واختلى معهم طويلاً في احدى الغرف وزودهم بالتعليمات الصريحة الدقيقة .

**

لم يكن للملك هنريكوس الرابع بسبب حوادثه الغرامية من رجل ثقة يعتمد عليه باسراره وقد كان عنده عدا المركيز دي لافارين عدة أشخاص يطلعهم على أسراره ويكاشفهم بآماله وما يصبو اليه .

وكان لكل واحد من هؤلاء عدة اصدقاء يكاشفونهم باسرار الملك هذا عدا فئة الجواسيس من رجال ونساء الذين كانوا يعملون لحساب البعض فيراقبون ويسمعون وينظرون كل ما هو جار في قصر الملك وجواره .

ولما أصبح الملك الآنسة برتيل كان لا بد له من أطلاع أخصائه على غرامه الجديد فأسرع هؤلاء الى شارع الشجرة اليابسة ليتعرفوا بهذه الحسناء ويتزلفوا اليها ويحصلوا على نعمة التعرف منها ، وتمكنوا من رؤية الآنسة برتيل ولكنهم لم يجسروا على الاقتراب منها .

ولم يكن كونسيني من الاخصاء الذين استحقوا ثقة الملك بل كان له نفر من الجواسيس والرقباء يرفعون اليه تقاريرهم اليومية

فلا تخفاه خفية فاقتدى بغيره وذهب يتجول حول شارع الشجرة اليابسة فأبصر الآنسة برتيل جالسة قرب نافذتها وكان منظرها عليه شبه الصاعقة فانه أحبها في الحال وأقسم يميناً مغلظة بانها ستصير ملكة مهما كلفه الأمر .

وفي تلك الاثناء أقبلت عليه زوجته اليونورا وأخبرته بان الملك سيقتل في ذات الليلة ومتى قتل هنريكوس الرابع يبتدىء دوره في الحكم تحت إسم ماري ميدسيس لذلك أطمأن باله وصمم على خطف الآنسة برتيل في ذات الليلة .

أرسل اسكوركاس ورفيقيه إلى شارع الشجرة اليابسة وأمرهم بمراقبة منزلها وأن يعدوا ما يلزم لخطف الفتاة ولم ينس بان الملك سيقتل أمام بابها لذلك أكد لرجاله بأن خطفهم الفتاة لا يمكن أن يتم قبل انتصاف الليل وأنه يجب عليهم أن يأتوا اليه في تلك الساعة ليطلعوه على ما عرفوه .

وكان كونسيني يعلم حق العلم أنه يستطيع الاعتماد على مهارتهم وهو على يقين بأن تقريرهم سيكون مستوفياً في بابه فيقرر ما يجب عليه عمله بعد أطلاعه على تقريرهم فيقرر خطف الفتاة أو يعدل عنه .

الفصل الحادي عشر

منزل كونسيني

كانت الساعة الواحدة بعد انتصاف الليل لما أقبل الرفاق الثلاثة الى منزل كونسيني ودخلوا الى غرفته وكان قد قضى تلك الساعة وهو عرضة للقلق والاضطراب .

ولم يكن الرفاق الثلاثة يظنون أو يعرفون السبب الذي دعاه إلى ذلك القلق فقد كان كلفهم بخطف إحدى الفتيات وهو أمر ليس أبسط منه في عرفهم وخيل لهم أنهم قاموا بالمهمة التي انتدبوا لها وأدوا الوظيفة المطلوبة منهم بما عملوه .

ولما كانوا يعرفون أخلاق سيدهم حق المعرفة تداولوا في أمرهم ملياً وقرروا أن يعهدوا بالكلام إلى أحدهم أسكركاس ويكتفي رفيقاه بالمصادقة على كل ما يقوله :

ومما هو جدير بالذكر أن الرفاق الثلاثة وصلوا إلى جوار منزل الآنسة برتيل بينما كان الفائد براسلين يتداول مع باردليان والمركيز دي لافارين فعرفوا الأول وهلة لباس الحرس الملوكي

وقروا فيما بينهم أنه لا يليق بهم سماع حديث لا تعلق لهم ، به فابتعدوا عن الحرس جهد الامكان وكانوا قد سمعوا ثلاثة أو أربعة أسماء ووصلت إلى آذانهم بعض الجمل المقتضبة ولكنهم آثروا عزوبتهم على نسيان ما سمعوه .

وبينما هم كذلك ابصروا الجند مقبلاً نحوهم فأطاعوا عواطفهم الأولى وقد بذلوا مجهودهم للاختباء حيث لا يراهم أحد وكانوا يرون بواسطة المشاعل الجند والحرس يحيطون بذلك الشارع ، وأدركوا عندئذ أنهم عرضوا أنفسهم لخطر عظيم كانوا في غنى عنه وأسرعوا كالسهم المارق نحو العين التي رأيناهم مختبئين على مقربة منها .

وكان السيد كونسيني يهمه كثيراً الوقوف على كل ما هو جار في ذلك الشارع لذلك أرسل هؤلاء الرفاق وأمرهم بحسن الترصد ودقة المراقبة ولكنهم لم يتمكنوا من الوقوف على الشيء المهم ولم يسمعوا إلا كلمات وجيزة وصلت اليهم قسماً .

ولما عادت السكينة إلى ذلك الشارع وساد غلبه الظلام وانقطعت الحركة منه خرجوا من مكمنهم ليذهبوا نحو المنزل الذي أمروا بمراقبته ، ولكنهم ابصروا بزيد الاستغراب ثلاثة أشخاص يسيرون الهوينا في الشارع الذي كانوا فيه وهم يتحادثون بزيد السكينة والطمأنينة وقد كرروا مرورهم عدة مرات أمام المنزل الذي أمروا بمراقبته ، فهل هم مكلفون بذات الوظيفة

التي انتدبوا اليها فضلا عن أن وجود هؤلاء الثلاثة الأغراب في ذلك الشارع يعرقل مساعي السيد كونسيني ويحبط آماله .

ولم يكن هؤلاء الرجال يلبسون ملابس الحرس ولا ثياب الجند بل كانت ظواهرهم تدل على أنهم من النبلاء فحمدوا الله في نجواهم لأن عددهم لم يكن يزيد عنهم وهم يستطيعون القيام بالمهمة التي انتدبوا اليها بكل سهولة خصوصاً وأن هؤلاء الاغراب كانوا ظهروا للمرة الأولى في ذلك الشارع فأرادوا مجازاتهم مجازاة رهيبة كي لا يقدموا مرة ثانية على أزعاج السكان وأقلاقهم .

وكانوا يظنون أنهم بعملهم هذا يؤدون الوظيفة التي انتدبوا إليها فيكافئهم السيد الذي انتدبهم اليها بالعطاء الجزيل فضلاً عن أن الاغراب الذين أبصروهم كانت تدل ملابسهم على السعة وبسطة العيش فينالون منهم ما ينالونه وتكون جائزتهم مزدوجة .

وقد رأيناهم في هذه الحال ورأينا أن جيمان الشجاع يداخله في أمرهم قد عكس عليهم ما كانوا يؤملونه فلما رآهم السيد كونسيني داخلين إلى غرفته تنهد الفرح والارتياح لأنه أوشك معرفة ما كان يؤمله فتوقف عن مشيه ووقف أمام طاولة عمله وهي ملأى بالاوراق المختلفة والاجناس والانواع فوقف الرفاق الثلاثة أمامه .

وتأمل بهم كونسيني برهة وجيزة كأنه يريد أن يطلع من ملامحهم ما تكنه سرائرهم ثم قال لهم موبخاً :

— الويل لكم أيها الاشقياء فقد تركتموني في انتظاركم ساعة قضيتها على مقالي الجمر .

لقد كنا وايم الحق أيها السيد نشعر بقلق عظيم لتأخرنا عليك في الجواب ولكنا اضطررنا مكرهين على التخلف وما كان تأخرنا إلا رغماً عنا لأننا لم نجد وسيلة للوصول إلى هنا .

— ولم يفهم السيد كونسيني من هذا الحديث إلا أنهم لم يستطيعوا الوصول اليه في الساعة المعينة فأبدى رغماً عنه إشارة دلت على مزيد فرحه وسروره وزمجر قائلاً :

— إذن لقد قضي الأمر .

ومنذ الساعة قد عزلتكم من خدمه منزلي لأن خدماتكم لم تعد ترضيني فقصوا علي ماذا جرى لكم من الأمور الغريبة .

فانتصب اسكركاس الذي تولى الحديث عن الجميع وقال :

— لقد حاصر الشارع نحو ثلاثين رجلاً من الجند وفي مقدمتهم المسيو دي نوفي فاستحال علينا المرور من جهة الذاهوار ناحية السين كانت محروسة بفريق آخر من الجند وكانوا كثيري العدد فضلا عن الجند الذين جاء بهم القائد براسلين والحرس الذين

استدعاهم المركيز دي لافارين وكانوا يأتون من الحركات المزعجة ما يوهم الناظر أنهم قادمون على عمل عظم أو ان زمن إغتصاب الماضي قد عاد اليوم ولما لم يكن باستطاعتنا الانسحاب بسهولة رأينا أن خير ما نعمله البقاء في أماكننا لأن أقل حركة تصدر منا تعرضنا لخطر القبض علينا والقائنا في أحد السجون .

الفصل الثاني عشر

خطف الانسة برتيل

وبعد أن فكر السيد كونسيني في امره ملياً القى على الرفقاء نظرة رضا لم يكونوا يعهدونها من قبل .

ومد يده إلى درج طاولته وتناول منه كيساً مملوءاً بالذهب أفرغه أمامهم وقال لهم خذوا الذهب مكافأة لكم ولا تحقدوا عليّ .

فنظروا إلى الذهب الملقى أمامهم بانذهال لا مزيد عليه وهم لا يصدقون عيونهم حتى إذا تيقنوا من صحة الهبة الممنوحة لهم تقاسموها أو بالحري تخاطفوها في الحال وقال لهم كونسيني بعد أن أتموا عملهم :

— فلنتكلم الآن عما يهمنا فهل مشروعنا لا يزال في بالكم.

— أجل ولكننا نشترط لانجازه أن لا تكون الطرق مخفورة .

— هل اعتمديتم لما يلزم من الطوارىء

– نعم .

– فلنذهب إذن .

وقام كونسيني فجأة من مكانه بعد أن أخذ كيساً مفعماً بالذهب فوضعه في جيبه ووضع فيها قناعاً حريرياً أسود اللون وتمنطق بأسلحته السوداء والبيضاء وخرج من المنزل بسرعة زائدة وكان الرفاق أتبع له من ظله .

ولما وصل إلى الشارع القى على ما حوله نظرات دقيقة ولما تحقق من خلو المكان من الرقباء سار متوجهاً نحو شارع الشجرة ورجاله على مقربة منه ولكنهم لم يسيروا أكثر من عشرين خطوة حتى انتصب رجل كان مختفياً في أحد الزوايا وأخذ يسير في أثرهم وهم لا يشعرون به .

وصلوا أمام منزل الآنسة برتيل ولم يصادفوا في طريقهم أحداً من الناس فلحق الثلاثة الرفاق بمولاهم عند وصوله إلى السلم ودلوه على الدم الذي بقيت آثاره هناك بعد المعركة التي نشبت بين جوهان الشجاع وباردليان وبين رجال الحاكم الاعظم وقد أرادوا بذلك أن يثبتوا له صدقهم فلا يرتاب في المستقبل بالتقارير التي يرفعونها له .

فتأمل كونسيني برهة لطخ الدم الموجودة على الدرجات البيضاء ثم دخل في عطفه كورباتون فاقترب منه رجل كان مختفياً في الظلام وانحنى أمامه باحترام وقال:

– مولاي أن الحفة موجودة على مقربة من المكان فأبدى كونسيني أشارة بيده ولم يكد يراها هذا الرجل حتى ابتعد مسرعاً من غير أن يتطلع إلى ورائه وفي شارع الشجرة اليابسة صادف الرقيب الذي كان يتجسس خطوات كونسيني فرآه يتأمل بدقة آثار المعركة فاقترب منه وهمس في أذنه بعض كلمات وعاود سيره نحو شارع هونوري ودخل منزل كونسيني

أما الجاسوس فقد القى نظرة سخرية على شرفة المنزل الذي تقيم فيه الآنسة برتيل وحدج منزل جوهان الشجاع بنظرة مأؤها الحقد وهمس قائلاً في جنح الليل البهيم :

– تودعي من أحلام غرامك أيتها الحمامة الجميلة فان عاشقك قد وقع في الشرك الذي نصبته له وإذا رغبت في مقابلته سوف ترينه في ساحة الاعدام .

واختفى في احدى الزوايا لئلا يراه أحد وناجى نفسه بقوله:

– لقد كان أقصى أمالي وغاية سؤالي ومنتهى أن تشهد الأميرة الخطيرة وفوبيتا بؤرجيا عذاب ولدها .. ليتني استطيع ولو بسفك دمي أن أفاديها في أحد الايام وأقول لها : « انظري جيداً أيتها الاميرة فوستا وتأملي ما تشاهدينه فان جوهان الشجاع الذي يعذبه الجلاد وهو وحيدك وأنا انا الذي جعلته لصاً أنه شجاع وأنا الذي اوصلته إلى هذه الحال .

وضحك ضحكة رهيبة لهذه الفكرة الجهنمية وقال :

لقد تأخرت ساعة الانتقام بحلولها ولكنها دنت أخيراً

أونت يا فرستا لا تخسرين شيئاً بانتظارها وسافتش إيطاليا واسبانيا وفرنسا واذهب إلى الجحيم إذا اقتضت الحال لكي أجدك وأبلغك هذه البشرى القاتلة » .

أما كونسيني ورجاله فانهم كانوا يعملون بهمة ونشاط حتى تمكنوا من فتح إحدى النوافذ ودخلوا الغرفة وهي مطبخ واسع كثير النظافة والاتقان ولها بابان أحدهما خشبي والثاني زجاجي فتقدموا منه وفتحوه ودخلوا غرفة المنامة .

وفي الحال ظهر وجه صاحبة المنزل السيدة كولنيكل فانها رفعت ستائر السرير ولما ابصرت الاربعة الرجال في غرفتها بدت عليها أمارات الذعر العظيم وأرادت الصراخ والاستنجاد ولكن كونسيني كان أسرع منها فانه قفز نحوها وأزاح ستائر السرير تماماً وقال لها :

– إذا صرخت أو حاولت المقاومة اقتلك بهذا الخنجر أما إذا سكت وطاوعت أعطيك هذه البدرة فاختاري ما تحبين !

– ولما رأت صاحبة المنزل هذا الرجل المقنع هاجماً عليها بخنجره وسمعت صوته الجهوري وتهديده لها .

أغمضت عينيها وقلبت رأسها على الوسادة وقد كاد يغمى عليها وسألته العفو عنها .

ولم يكد كونسيني من قوله لها اختاري ما تحبين حتى خطفت البدرة من يده كأنها مجذوبة بمغناطيس غريب فدهش من مهارتها وجرأتها فاقترب منها كاركان وقال لها ساخراً :

– تكرمي أيتها السيدة المحترمة بالنهوض من سريرك بعجلة لأننا لا نريد اضاعة وقتنا سدى وليس الصبر من شيمنا .

فهمست العجوز قائلة بعد أن نزلت عن سريرها .

– لا أخالكم تريدون خطف هذه الانسة المسكينة .

– سناخذها معنا في الحال .

– رباه إذا فعلتم ذلك فما الذي يطرأ علي بعدها أيها السادة؟ أنكم بخطفها تقصّون عليّ بالخراب أو بالاحرى بالموت لأني لا أقوى على الحياة إذا غادرت منزلي .

– كفى ثرثرة أيتها العجوز واعلمي بأنك إذا لم تلتزمي الصمت اغمد خنجري في صدرك بدلاً من الذي وعدتك به .

فصعدت إلى الطابق الأعلى وتبعها الرفاق فوقفت أمام غرفة الانسة برتيل وقرعت بابها ونادتها باسمها فأجابتها واجمة :

– ما الذي تريدينه مني أيتها العزيزة ؟

– أرجو أن تفتحي لي بابك يا سيدتي فاني مريضة للغاية .

– وهل مرضك شديد إلى هذه الدرجة ؟

– يخال لي اني سأموت فبربك افتحي لي بابك لئلا أظن انك غير واثقة بي . ؟

ورغماً عن عدم ثقة الانسة برتيل بصاحبة المنزل فقد تغلب كرم خلقها وجودة طباعها فذهبت إلى خزانتها وأخذت منها خنجراً صغيراً أخفته في صدرها وعادت إلى الباب وكان شعورها الخفي كان يدلها على خطر عظيم إذا هي فتحت الباب وقالت لها :

– لقد فتحت باب منزلك إلى الاغراب في هذه الليلة

– وهل كنت أستطيع مخالفة أوامر الملك يا سيدتي ..؟آه يا رباه كم أتألم الآن فبربك افتحي لي بابك .

وكان العذر الذي قدمته مقبولاً في حد ذاته إذ لم يكن من وسيلة لمخالفة أوامر الملك خصوصاً في ذلك العهد ولكنها تغلبت على عاطفة الشفقة التي بدأت تشعر بها وقالت :

– لعلك تعمدت خيانتي هذه المرة أيضاً وأدخلت بعض الاشقياء إلى منزلك .

– اقسم لك يا سيدتي باعز الاشياء علي اني لوحدي وليس معي أحد فهل تتركيني أموت عند بابك من فرط ألمي .

فلم تقو الفتاة هذه المرة التغلب على عواطف شفقتها لأن تلك العجوز الداهية خدعتها بمكرها فندمت لسوء ظنها وحسبت ذاتها مخطئة لتسلحها بالخنجر فقالت لها :

– معاذ الله أن أدعك تتعذبين يا سيدتي بيد اني إذا أصبت بمكروه تكونين مسؤولة أمام الديان الاعظم .

فتحت الباب بكل سكينة وقد قبضت بيدها اليمنى على خنجرها ولكنها لم تكد تفتحه حتى قبض عليها ذراعان قويان فصرخت صوتاً عظيماً ولكن خاطفها القى على رأسها رداء كبيراً ليمنعها من الصراخ واحبت استعمال الخنجر الذي كان معها غير أن خاطفها حملها بقوة بين ذراعيه ونزل السلالم .

ثم وضعوا الانسة برتيل في المحفة ووقف كونسيني أمام باب المحفة ورفع قبعته عن رأسه وقال لها باحترام زائد .

– إذا تكرمت يا سيدتي بمحادثتك بضع كلمات يهمك سماعها .

فأجابته باستهزاء واحتقار قائلة :

أراك تتكلم كالنبلاء ولكنك لست منهم .

فصعق كونسيني لهذه الاهانة وأراد الرد عليها ولكنها لم تدع له مجالاً للكلام بل اردفت حديثها بقولها :

– أن النبيل الذي يستحق حقيقة هذا اللقب لا يتدانى لاستعمال العنف مع الفتيات وإذا كنت صادقاً في قولك وانك تعتبر رغائبي بمثابة أوامر فدعني أعود إلى منزلي وأنا أعدك بان أتناسى عملك .

– إنك تسألينني يا سيدتي الامر الوحيد الذي لا أستطيع منحه لك في الوقت الحاضر على الاقل .

– لقد قلت لك إنك لست من النبلاء وكنت صادقة في حكمي إن أعمالك تنم على أخلاقك فأنت الآن القوي وانا الضعيفة فافعل بي ما تريده لأني لا أتدانى لمناقشتك الحساب عن أعمالك

– أرجوك يا سيدتي أن تتنازلي لسماع ما أريد قوله لك فأنت لا تعرفين بل لا يمكنك أن تتصوري مبلغ الحب الذي أشعر به لك منذ اليوم الذي رأيتك فيه للمرة الأولى ولا تعلمين باني أضحي الليالي ساهراً وأنا أردد اسمك اللطيف المحبوب .. نعم لست انكر اني أستعملت معك الخديعة والعنف وتنازلت الى عمل يشين النبلاء ولكني علمت عن يقين أن خطراً عظيماً يتهددك فلم أرى غير هذه الوسيلة لتخليصك وأنك وايم الحق

ظالمة بتوجيهك الملام والاحتقار لي لأني اقسم لك يا سيدتي بأني لم أشعر في حياتي بحب مثل هذا الحب الصادق الذي أشعر به نحوك .

– أريد أن أعرف منك أمراً واحداً فقل لي هل أنا حرة في أمري أم مقيدة بارادتك .

– بل أنت حرة يا سيدتي وإذا شئت العودة إلى منزلك فافعلي ما تريدينه ولست اسألك مقابل ذلك إلا أمراً زهيداً في حد ذاته وهو أن تلقي علي نظرة تكون أقل قساوة من نظراتك الحاضرة وتقولي لي كلمة واحدة تبعث الأمل في فؤادي ولا أظنني مغالياً في هذا الطلب .

– لقد شفعت خديعتك وعنفك بالاهانة أيها السافل

– تقولين اني سافل فليكن قولك وسأعمل عمل الاسافل

وكانت الفتاة مديرة له ظهرها وأنقض عليها وكمم فاها مرة ثانية قبل أن تتمكن من ابداء أية حركة للدفاع عن نفسها وصرخ برجاله قائلاً :

– سيروا إلى حيث تعلمون .

فتحركت الحفة يحفرها الثلاثة رفاق وسيوفهم مشهرة في أيديهم ومن خلفهم كونسيني الذي انقلبت ملامحه وتقطب جبينه بتهجم زائد وأخذ يناجي نفسه بقوله :

– لقد قلت عني سافل أيتها الحسناء ولكني سأدعك تذرفين بدل الدمع لأهانتك أياي بمثل هذه الجرأة .

الفصل الثالث عشر

انقاذ برتيل

وأخذوا يسيرون في الجهة المؤدية الى نهر السين وكان ساتيا قد خرج من مكمنه ولحق بهم .

في تلك اللحظة ظهر فارس من الجهة المعارضة كان يسير بعجلة وهذا الفارس هو جوهان الشجاع عائداً الى منزله فوقف برهة تحت شرفة الآنسة برتيل وكان شعوره قد دله على خطر مداهم فنظر الى ما حوله بدقة زائدة كأنه يتفحص المكان وقد شاهد عن بعد الجمع الذين كانوا يحدقون بالحفة ولكنه أدار عنهم بصره بغير مبالاة وعاد الى قرب المنزل الذي تقع فيه الحبيبة فلم ير ما يدعو اهتمامه أو يوجب تخوفه بل مدت أمامه السكينة التامة فبقي برهة جامداً في مكانه وهو لا يفارق الشرفة بنظره ثم تنهد تنهداً عميقاً وفتح بابه .

وكان على يقين تام بانه لم ير من أحد ولكنه لزيادة الحرص القى على ما حوله نظراً دقيقاً وبعث بطرف أنامله قبلة خفية

إلى المنزل الذي أودع فيه فؤاده وأخذ يرتقي الدرجات اربعاً اربعاً كأنه اللص يحاذر أن تقبض عليه الشرطة وهو متلبس في جريمته .

أما كونسيني ورجاله فظلوا مواصلين سيرهم حتى وصلوا إلى الجسر الحديدي فاجتازوه ومروا عن يسارهم وهم يقطعون العطفات الضيقة التي يصادفونهـــا في طريقهم حتى وصلوا إلى طريق في منتهى الضيق كانت تدعى شارع الفئران وهي تؤدي إلى شاطىء النهر .

فجاء كونسيني برجاله ومحفته ووقف أمام أحـد الابواب وقرعه قرعاً متفق عليه وفي الحال فتح له فدخله بعد أن خلص برتيل من وثاقها وكمامتها ووضعها في غرفة أنيقة الرياش بديعـة الانتظام فابدى أشارة من يده وفي الحال ابتعد الثلاثة الرفاق ولكنهم لما يتلقوا الاوامر بمـا يجب عليهم عمله وظلوا في المنزل منتظرين الاوامر . ثم التفت إلى برتيل ومد لها ذراعيه وقـال لها بصوت متهدج .

أصغي إلى مما أقوله لك أيتها الفتاة فأنت لا تعرفين من أنا وأني أستطيع أن أجعلك أسعد فتاة في العالم فتحسدك كل نساء المملكة على النعمة التي حصلت عليها فاني غني وقادر وفي أمكاني أن أضع تحت أقدامك الجاه والثروة فتحصلين على اثمن الجواهر وأفخر محلى وتقيمين في قصر دونه قصـــور الملوك وتأكلين أفخر الاطعمة بطباق من ذهب وتنعمين بنعم القصور ... كل

ذلك أقدمه لك لقاء نظرة واحدة فهل تقبلين مني مـا أعرضه عليك .

– أني أفضل أن أبقى مرتدية الاطمار البالية واقتحم الموت إذا اقتضى الامر على العار الذي تعرضه علي بمثل هذه الوقاحة .

– وهل بلغ بك كرهي إلى هذه الدرجة ؟

– قال هذا وتقدم نحوها خطوتين فحسبت أنه يريد الهجـوم عليها ورفعت ذراعها مهددة .

– إذا تقدمت إلى الامام فانت هالك لا محالة .

– من يراك وأنت بهذه النحافة لا يعتقد قط ان فيك روح الجبابرة الابطال ولا اكتمك الحق بان هذه الوقفة تليق بـــك أكثر من عادتك وزادتني شوقاً اليك .

فكري فيما اقترحته عليك إذ لا يمكن ان اسلب لك مثـل هذا الكنز العظيم او انك تعشقين سواي .

– وإذا كان الامر كذلك فماذا يعنيك مني ؟

– حذار لنفسك

– ما الذي أخافه منك فأنا في قبضة يدك وتراني لا أرهب جانبك .

– ولكن استطيع سحق عاشقك .

– كفاك أدعاء كاذباً فهو لو ظهر أمامك لهربت كالارنب وما جسرت على الوقوف بوجهه .

– لعله أحد الاتقياء إذ لا يليق بمثلك غير الشقي .

– بل هو أشرف وانبل وأشجع رجل وجد على سطح الغبراء ولو درى بأمرك معي لكان أذاقك طعم يده الثقيلة .

لا بد لي من تزويق فؤاده بيدي وسأشويه على نار خفيفة وهو على قيد الحياة .

– صدقت فانك تحسن تمثيل دور الجلاد .

– بل أريد أن أراه جاثياً أمامي يسألني العفو والرحمة والويل لك وله .

– انه لا يخشاك ولا يخاف من أحد في العالم فهو الشجاعة المجسمة والجرأة التامة وقد لقبوه بحق بلقب الشجاع .

– ماذا تقولين ؟ اعبيدي اسمه فقد قلت انه يلقب بالشجاع فهل هو جوهان الشجاع .

– أجل هذا هو اسمه .

– حقاً ان هذه الحكاية مضحكة للغاية فهل تعرفين ايتها الحسناء من هو الذي تفاخرين به وتزعمين انه مثال للشجاعة والمروءة انه لص قاتل وقاطع طرق .

– كذبت .

– بل انت واهمة ولم اذكر لك غير الحقيقة فهو في خدمتي .

– اذا كان الامر فهو الخادم المطيع المنفذ أوامر سيده والعار يعود برمته عليك لانك انت الذي تأمره وتعطيه اجرته لينفذ اوامرك فانت القاتل الحقيقي وليس هو ومع ذلك فلست أصدق ما تدعيه بل انت كاذب .

– إذا كان قول الرجل النبيل لا يكفي لاقناع خليلة الشقي فهي تريد شهادة رفقائه الذين على شاكلته فليكن ما تريدين .

وأخذ صفارة كانت معلقة في عنقه وصفر فيها ثلاث مرات وبعد قليل اقبل كركان واسكركاس وكرنكايل ووقفوا أمام مولاهم كالاصنام فسألهم من غير ان يلتفت اليهم .

– ما هو اسم رئيسكم .

– فتناظر الرفاق مذعورين لهذا السؤال وقال احدهم مترددا .

– مولاي . نحن . لا . .

– أجيبوا في الحال ما اسم رئيسكم .

– جوهان الشجاع

– وما الذي يعمله في خدمتي

– انه يؤدي ذات خدمتنا .

وكان كونسيني محدقاً بلانسة برتيل لا يفارقها ببصره فأبدى اشارة الى الرفاق لينصرفوا فلبوا أمره في الحال فكتف يديه على صدره وقال لها بتهكم .

– لقد سمعت ما قاله الرفاق الذين خطفوك وجاؤا بك الى هنا فهل اقتنعت بما قلته لك ؟

– كلا .

– ما قولك أن اريتك أياه رأي العين ؟

– أقول ان عيناي قد خدعتاني ولا أصدقهما .

– إذا رأيت جوهان الشجاع مساقاً إلى ساحة الاعدام والجلاد ليسكب الرصاص المذاب في جراحه الدامية وإذا رأيته معلقاً باربعة خيول تمزق أعضائه وإذا شاهدت جسده طعاماً للخنازير فهل تصدقين ؟

– لست أجهل ان بالامكان الحكم على الابرياء بالطرق السافلة وأنا على يقين من انك لا تحجم عن اية سفالة لادراك غايتك ولكني اعرف ايضاً ان جوهان لا يؤخذ غيلة .

– هذا هو وجه خطائك ايتها الحسناء ولازيدك بياناً اخبرك بانه صار الآن قيد السجن وبعد بضعة أيام يعاني القصاص المعد للخونة أمثاله .. قال هذا وتقدم نحوها فدفعته قائلة :

– قف في مكانك ولا تتحرك منه !

– امرك أيتها الحسناء الجميلة ولست اسألك إلا المجاوبة على اقتراحي ؟

– سألتني إذا كنت اكرهك فأجاوبك اني اكرهك واحتقرك وافضل الموت على ملامستك .

– رغماً عن عواطفك ضدي فستكونين لي !

وهجم عليها فرفعت ذراعها وضربته بخنجرها ضربة شديدة ولكنه كان يراقبها وقد استعد لهذه الطعنة فقبض على ذراعها النحيف بيديه القويتين ولواه فسقط الخنجر من بين اصابعها وصرخت صوتاً عظيماً دل على يأسها فدفع الخنجر بقدمه وقد تهجمت كل عواطفه البهية وأخذ يهجم قائلا :

– يا لك من حمقاء مسكينة حسبت انك تستطعين التغلب علي ولكنك ستصيرين رغماً عنك .

فرجعت برأسها إلى الوراء لتجتنب ملامسة فمه الدنس لوجهها وأخذت تضرب بيديها النحيفتين بينة وبسرة وهو يزيد في ضغطه عليها ويدفعها إلى الحائط .

وعندما شعرت المسكينة بان قواها أخذت تخور ولم تعد تقوى على هذه المطاردة الغريبة أخذت تصرخ قائلة :

– إلي يا جون تعال وخلصني ؟

وخيل لها انها تسمع صوته من بعيد يقول لها لبيك اني أت لانقاذك ايتها الحبيبة .

واستجمع كونسيني قوته وتمكن من رفعها عن الأرض وأخذ يسير بها نحو السرير وهو شبه الوحش الكاسر الذي يقبض على فريسته ويفتح فمه لالتهامها وجعل يقول لها :

نادى عشيقك ما شئت فهو الآن في اعماق السجون ولا يخرج من حبسه إلا ليقاد إلى ساحة القتل .

ولم يكد ينتهي من قوله حتى اصيب بضربة شديدة على قفاه القته على وجهه وسمع صوتاً جهورياً يقول له :

– أخطأت يا كونسيني فاني لست في السجن بل هنا لاناقشك الحساب .

وكانت الضربة التي أصابت نديم الملكة قوية إلى درجة كادت تلقيه على الأرض لو لم تمسكه يد قوية في الوقت الملائم ولكنه لم

يستطع السكوت فصرخ صوتاً دل على المه الشديـــد وفتح ذراعيه ففرت منه فريسته وأسرعت لتحتمي بين يدي منقذها

وقبل أن يعود كونسيني إلى رشده قلبه جوهان الشجاع على ظهره بشدة وصفعه بيده القوية على وجهه صفعة القته صريعـاً وقد أغمى عليه .

★★

الفصل الرابع عشر

القبض على كونسيني

التفت جوهان الشجاع نحو الفتاة وقال لها بلطف لا مزيد عليه .

لا تخافي شراً يا سيدتي .

فرفعت نحوه بصرها وقد بدت في لحظاتها أمارات الشكر والامتنان وقالت له مترجمة عن حبها واخلاصها .

– لم أعد خائفة الآن .

وأثر عليها التعب والجزع فاغمضت عينيها وأغمي عليها ولم تلبث قليلا وأخذت قواها تعود لها تدريجياً فتبسمت لخلصهـا الذي كان واقفاً أمامها خائفاً وللحال سمع بغته أصوات أقفال على مقربة منه فالتفت الى ورائه فلم ير كونسيني وتأكد بانه هو الذي حرك الاقفال بعد ان انسل من الغرفة فاقتربت منه الفتاة بجزع وقد كبر عليها الوهم ودلته على الباب الذي دخل منـــه وهمست قائلة :

– فلنهرب .

فتبسم ابتسامة دلت على مزيد طمأنينته وقال لها :

– لم يبق ما تخافينه ما زلت قريباً منك .

وبينما كان العاشقان يتأملان بعضهما باعجاب عاد كونسيني إلى وعيه فتصور في بداية الامر انه مستيقظ من حلم ثقيل ولكن الحقيقة لم تلبث أن تبادرت إلى مخيلته وأحس بألم شديد على خده من قوة الصفعة التي أصابته فادرك انه كان في يقظة فاتقدت عيناه واحمرتا كالدم وتشنجت أصابعه على قبضة سيفه وناجى نفسه بقوله :

– لا .. لا .. فأنا اضمر له انتقاماً افظع من هذا بل أريد أن أراه يموت ببطء وان يذوقه العذاب الذي لا يطاق وما علي الآن إلا ان اخرج من هذه الغرفة .

ولم يكن اسهل عليه من الخروج من الغرفة التي كان فيها ويقفل من خلفه الباب الذي خرج منه لأن العاشقين كانا منهمكين بامرهما ولا ينتبهان اليه وكان الباب الذي دخل منه جوهان الشجاع يؤدي إلى غرفة للزينة لها باب يتصل بغرفة ثانية فقفز كونسيني نحو هذا الباب وقفله بعنف وكانت هذه هي الحركة التي سمعها جوهان الشجاع .

ولما اصبح كونسيني في مأمن على نفسه لم يعد يخشى سماع صوته أو حركته فضحك ضحكاً عالياً وزمجر قائلا :

– لقد قبضت عليهما الآن .

وقبل أن يتمكن من الالتفات إلى أحدى الجهات شعر بيدين قويتين تقبضان عليه وتمنعانه عن كل حركة وفي ذات الوقت نزع منه سيفه وخنجره وطرحهما في الجهة الثانية من الغرفة .

فذعر كونسيني وصرخ صوتاً رهيباً ليس لخوفه بل لانه توهم ان انتقامه الذي كان يود أن يشتريه بدمه سيفلت منه .

ولما لم يبق معه سلاح تركته الايدي التي كانت قابضة عليه فالتفت الى ورائه شبه الحيوان الكاسر الذي نزع منه فريسته ورأى اسكركاس ورفيقيه واقفين أمامه وهم يتبسمون ابتسامة غريبة وينحنون أمامه باحترام لا مزيد عليه وسمع اسكركاس يقول لهم بتهكم .

– عجباً أيقضي مولاي مصالحه بيده ونحن وقوف لخدمته؟

– لماذا لم يستدع مولانا خدمة المطيعين لتأدية هذه المهمة البسيطة ؟

– لعله أضاع صفارته .

فكاد كونسيني يجن لسماعه هذا التهكم وصرخ قائلاً :

– اتجسرون ايها اللئام على مخالفتي وانتم تعلمون ...

– انصحك أيها السيد بان لا تهيننا لأننا اذا كنا في خدمتك ولم تر منا حتى الآن غير الصدق والامانة فيحق لنا ان ننال منك بعض امتيازات .

ورأى كونسيني عيونهم تتقد بالغضب وقد كادت تخرج من

ارقابها فتأكد ان حالته قد زادت حراجة ومع ذلك لم يستسلم لليأس بل قال لهم بمزيد العظمة والخيلاء .

– حذار لما تقولونه وما تعملونه إذ لا بد لي من ان انالكم في أحد الأيام إلا اذا قتلتموني الآن .

– ان القتل لا يقدم عليه إلا كبار القوم او بالحري من كان مثلك أيها السيد كونسيني اما نحن فنترفع عنه .

– إذن ما الذي تطلبونه مني ؟ وهل تعمدتم خيانتي بعد ان اغرقت عليكم نعمتي وشملتكم بعنايتي وحمايتي ؟ الويل لكم أنكم تخونون مولاكم لاجل فتاة لا تعرفونها ولأجل شقي لا أصل له ولا فصل وسيكون فريسة الجلاد وإذا بقيتم على أثره فسيأتيكم يوم تذهبون معه الى المشنقة فما الذي طرأ على عقولكم وغيرها !

عودوا إلى الحقيقة ايها الاغرار واعدلوا ما يجب عليكم عمله ... لقد اشفقت عليكم وأريد العفو عنكم وان اتناسى تعمدكم أهانتي وتهديدي واسألكم إذا كنتم تقبلون ان تكرسوا لي ساعة واحدة من حياتكم تطيعونني فيها طاعة عمياء بكل أمركم به وإلقاء ذلك امتحكم ثروة طائلة تقيكم شر العوز باقي ايامكم فجاوبوني سريعاً على سؤالي

فتجهمت ملامح الرفاق وسكتوا برهة وهم يتشاورون بالنظر وهمس احدهم قائلا :

– ما هو المبلغ الذي تعطينا اياه ؟

– أعطيكم مائة الف ذهب تقسمونها فيما بينكم فما رأيكم؟ لقد أجبنا طلبك يا مولانا بالقبول .

– وسنخصك مدة ساعة واحدة نطيعك طاعة عمياء ولكننا نطلب منك دفعة معجلة على الحساب لنثبت الاتفاق .

وفي الحال مدوا نحوه أيديهم كمخالب العقبان فمد كونسيني يديه بعجلة إلى جيوبه وبعد أن فتشها ولم يجد فيها شيئاً همس قائلا :

– لم يبق معي شيء من المال فقد اعطيت كل ما كان معي الى تلك الساحرة اللعينة .

– لسنا نتطلب الكثير فانا اكتفي بهذه السلسلة الذهبية المعلقة في عنقك وأنت ما الذي تريده يا اسكركاس ؟

– أنا اكتفي بالعقد الجميل الذي معه فالذي تتمناه ياكركان

– اشتهي ان أرى إذا كان الخاتم البديع الذي يسطع في أصبع مولانا يليق بمن كان مثلي التخت به .

وكان كونسيني يعطيهم الحلى التي يشتهونها من غير تردد ولم يتأثر من معاملتهم له بهذه الطريقة بل اعتبر ذلك دليلا ساطعاً على صدق نياتهم وأنهم لا يضمرون له الخيانة وحسب ذاته سعيداً لادراك مأربه بمثل هذا المبلغ الزهيد لأنه لم يكن ينوي انجاز وعده لهم بإعطائه لهم المال الكثير .

وبعد ان زودهم بتعليماته ختمها بقوله :

– اوصيكم بالمحافظة على جلده لأنه عزيز علي كثيراً .

– لا بدع في ذلك فقد دفعت ثمنه مائة الف ليرة ذهب

– ويجب ان تقبضوا عليه وهو في قيد الحياة .

– أمرك يا سيدي وذلك ما يسهل علينا مهمتنا .

– زدني إيضاحاً فقد كنت احسب الامر بالعكس .

– ان عدم ادراك سيدي ما نقوله يثبت بأجلى بيان أنه من النبلاء الذين لا يحسنون القيام بخيانة صغيرة .

– لم افهم ما تريده فزدني بياناً .

– لنفترض اننا اصبحنا اصدقاء لولانا وقد جئنا لزيارته ووضعنا سيوفنا وخناجرنا على هذه الطاولة (ووضعوا سلاحهم على الطاولة كما أشار اسكركاس لنزيل شكوكك بنا فاتقدم منك مع كرنكايل ونمد اليك ايدينا باخلاص كم فتضع في يد كل منا احدى يديك) فلم يعطه كونسيني يده كما طلب منه بل تراجع إلى الوراء فنأخذها رغماً عنك ونقبض عليك .

وفي الحال لف على معصم كونسيني حبلا متيناً فأخذ يصخب ويصخط ويزبد من فرط غضبه غير ان كل مساعيه لخلاص نفسه ذهبت ادراج الرياح واردف اسكركاس حديثه قائلا :

– لا تيئس يا سيدي فقد اردنا ان نريك كيف نقبض عليك وبعد ان ننتهي من الايدي يأتي دور الذراعين والرجلين ثم نلفك بهذا الرداء الكبير الواسع لنمنعك من أية حركة ونضع في فمك هذه الكمامة الصغيرة حذراً من صراخك ثم نحملك بلطف وندخل بك الغرفة .

وكانوا يخرجون كل حركة يقولونها الى حيز العمل وهم

يضحكون مسرورين من نجاحهم وكونسيني المسكين يتلوى بين أيديهم الى كل الجهات ولا يجد سبيلا للخلاص .

– ثم نطرحك على هذا السرير ونقول لك

وكانوا قد وقفوا باسيرهم أمام جوهان الشجاع فحيوه باحترام وقال اسكركاس .

– هذا هو السيد كونسيني الذي كان يريد ان يقبض علينا وعليك يا جوهان الشجاع ويسلمنا الى ايدي الجلاد قد قبضنا عليه وجئنا به اليك ولو لم نكن احيل منه لكان تمكن من إيذائنا بكل سهولة .

الفصل الخامس عشر

منزل باردليان

لم يحاول جوهان الشجاع منذ فارقه كونسيني ان يسترجع حريته بل ظل واقفاً أمام الفتاة التي احبهـا اكثر من نفسه وهو يتبسم لها بلطف .

ولما رأت برتيل سكينته المدهشة وعدم مبالاته بالاخطـار المحدقة به وقفت بجانبه بثبات تام وقد وثقت به كل الثقة .

وحينئذ دخل الرفاق الغرفة التي كانوا فيها ثم شكر لهم جوهان جميل صنعهم وخرجوا ثم التفت جوهان الى الفتاة وقال لها برقة متناهية .

– انك لا تستطيعي العودة الى منزلـك إذا لا تكونين في مأمن فيه فالى اين تريدين ان اتشرف بالذهاب معك .

– لست ادري لاني لا اعرف احد في هذه العاصمة الكبيرة ولا استطيع الثقة باحد .

تعجب جوهان من هذا الجواب ولكنه لم يظهر عـلى نفسه

شيئاً من التعجب وإدرك في الحال ان ولادتها محاطة بسر عميق فلم تطلب منه اخذها الى ابيها لتيقنها استحالة ذلك وان هـذه الفتاة التي هي ابنة ملك لم يكن لها من مدافع عنها غيره وهو الشاب المسكين الخامل الوضيع الاصل فشعر بهـزة افتخـار وفرح لا يوصف .

ظل برهة مفكراً وهو يتساءل عن المكان الذي يستطيـع أخذها اليه الى ان تصور انه ادرك ما يريده فقـال لها بملء الاحترام .

– اذا سمحت يا سيدتي فاني اذهب بك الى شخص يستطيع ان يجد لك ملجأ امينا ولكني مضطر لاجل ذلك ان ادخـل بك الى المنزل الذي يقيم فيه .

– فلنذهب اليه .

فانحنى أمامها بوقار وأشار بيده الى الرفاق الذين كانـوا واقفين على حده وبلغهم همساً اوامره فقال لهم :

– فليقدمنا اسكركاس وكرنكايـل من جسر سان ميشيل إلى شارع سان رينيس فاننا ذاهبان الى نزل الباسبار توا أمـا كركان فيمشي خلفنا وإذا تعرض لكم احد اقتلوه اولا وفـيما بعد نحقق في أمره فهل تحملون مالا .

فمد الرفاق أيديهم الى جيوبهـم واخرجوها وهي مفعمـة بالذهب فأخذ قبضة منها وقال للفتاة :

– إني طوع إشارتك يا سيدتي .

وظلوا سائرين حتى شارع سان رينيس وهم سكوت وقد استغرقتهم الافكار وكانت الساعة قد قرعت ثلاثاً فطرق جوهان باب النزل بطريقة مخصوصة وبعد قليل أطل رأس أمرأة من احدى النوافذ وسألته قائلة :

— ما الذي تريده ؟

— اود مقابلة سيدي الفارس لغرض هام مستعجل .

وبعد قليل نزلت فتاة كان النعاس لا يزال متغلباً عليها فادخلته غرفة صغيرة يطل بابها الزجاجي على القاعة الكبرى فطلب منها ان تضرم النار في المستوقد وبينما هي تنفذ هذا الامر خاطب جوهان حبيبته برتيل بقوله :

— سأدعك لوحدك بضع دقائق فاستريحي ولا تخافي شراً فان هؤلاء الشجعان الثلاثة سيسهرون عليك مدة غيابي الوجيزة ثم التفت الى رجاله وامرهم بأن لا يفارقوا تلك الغرفة ولا يسمحوا لأي كان بدخولها إلا للفتاة التي رأوها وأهم مما أسألكم ان تحافظوا على أقوالكم ولا تنسوا بان الاذان النائمة تستطيع سماعكم من هذه الغرفة وإذا بلغني ان أحدكم تفوه بكلمة زائدة قاويل له .

وقبل ان ينجز حديثه ظهر في أعلى السلم وسمع صوتاً يقول له :

— تعال أيها العزيز فاني بانتظارك !

— فأخذ جوهان يرتقي درجات السلالم بخفة الغزال ودخل

الغرفة التي يقيم فيها الفارس باردليان الذي كان ينتظره عند بابها والمصباح في يده ولما استوى بها الجلوس قال له الفارس :

— لقد سمعت القرع الذي اتفقنا عليه وبما انك الشخص الوحيد العارف هذا السر علمت انك انت القارع فقمت من سريري بعجلة وقد تيقنت باني لا استطيع اضاعة وقتي سدى فقص علي ما تريده بوجيز العبارة ما جرى معه وكيف تمكن من انقاذ الفتاة التي أحبها وختم كلامه بقوله :

— لست اعرف أحداً اركن اليه فقد ولدت ولا اعرف سر ولادتي وكبرت وشببت ولم يكن عشير لي غير الاشقياء ولست أعرف من هو أبي ولا ادري إذا كنت استطيع اخذ هذه الفتاة الطاهرة الى الاماكن التي اعرفها كما لم اكن استطيع الذهاب بها الى منزلي وتذكرت عندئذ ما تكرمت بعرضه علي وقلت في نفسي انك لا تبخل بمساعدتي لذا جئتك سائلا منك حماية الفتاة التي احبها ريثما تقرر ما تريد عمله وتكون في مأمن من كل اعتداء اثيم فلا يستطيع أحد الوصول اليها حتى ولا أنا .

وكان باردليان يصغي اليه بمزيد الانتباه فقال له :

— إذن فانت تريد اجتناب من تحبها بل اختيارك ؟

— نعم يا سيدي وهو لعمري قرار صعب علي ولكنني أفضله على سواه إلا اذا كانت في حاجة لمساعدتي افلست تشاركني يا سيدي في هذا الرأي ؟

— بلى يا سيدي اني اشاركك فيه تماماً .

وتقلد سيفه على جانبه وقال له بمنتهى السكينة :

– تعالى معي .

لما رأتها برتيل داخلين الى الغرفة التي كانت فيها نهضت واقفة وعرفت في الحال باردليان وهو الفارس الذي رأته من شرفتها في ظروف لا يمكن نسيانها وكانت تجهله ولكنها سمعت الملك يذكر اسمه عدة مرات فلما ابصرته انقدت عيناها باشعة السرور وتقدمت نحوه بلهفة كأنها مدفوعة بقوة غير طبيعية ومدت اليه يدها بلطف لا يوصف وقالت له :

– اشكرك يا سيدي من صميم فؤادي ولتبارك السماء لأنك أردت نصرة الضعيف القوي بسيفك البتار .

– لقد بالغت يا عزيزتي في قولك وجسمت الخطر الذي توهمت انه يتهددك اكثر مما يستحق .

– قليل هم اللذين يقومون مثلك على نصرة البائس ومساعدة الضعيف ويجسر على مخالفة اوامر الملك السكينة التي كنت متصفاً بها حتى ظهر الملك امامي صغير لعظمته بالنسبة اليك .. نعم ان القليلين هم الذين يجسرون على اقتحام خطر المشنقة ويقاوم عسكرياً برمته بمثل ثباتك وجرأتك وما ذلك الا لتنصر رجلاً غريباً عنك لا تعرفه لأنك تحققت ان هذا الغريب يستحق مساعدتك فانت الرجل الوحيد الذي يقدم على هذا العمل الشريف لذلك اشكرك بكل ثقة ولسان لأنك تكرمت بمساعدة ونصرة فتاة مثلي .

ثم التفت الى جوهان وقال له :

– سأذهب قبلك إذا احببت الى المكان الذي أريده وأتمكن من إيقاظ اصدقائي وأطلعهم على ما أريده منهم وبهذه الوسيلة تتمكن يا ولدي من الاستراحة قليلا لأنك تكاد تسقط من فرط تعبك واعيائك وفي أثناء ذلك نتمشى بتمهل نحو شارع الفور الذي لا يبعد كثيراً عن نزل دي سواسون فهنالك الدوق دانديلي الذي اقصده .

– اني اعرف هذا القصر الملقب بمنزل الاسباني .

– هذا هو بعينه فاتبعاني اليه بعد قليل .

وانحنى باردليان باحترام أمام الفتاة وسلم باحناء رأسه على جوهان الشجاع ورفيقيه وخرج مسرعاً .

الفصل السادس عشر

ضيافة برتيل

وصلوا الى شارع الفور ولم يصادفوا أحداً من البشر حتى اذا بلغوه انتصب امامهم احد الرهبان كان الارض قد قذفته فمر بجانبهم وهو يتظاهر بعدم المبالاة بهم .

والظاهر ان جوهان كان يعرف هذا الراهب لأنه لم يكد يراه حتى ارخى قبعته على رأسه وحنيه بعجلة زائدة ووضع يده على اسفل وجهه ليستر ملامحه جهد استطاعته .

وكانت الآنسة برتيل تعرف هذا الراهب ايضاً لأنها سترت ذراعها بالرداء الذي اعطاها اياه جوهان لما ابصرته وكان الرفاق يعرفونه أيضاً فأنهم تجنبوا مقابلته أيضاً حتى ليتعدوا عنه فأخذوا يمشون عليه ويحمدون الصدف لأنه لم يرهم .

وكان هذا الراهب هو الاخ كولار الكامل الذي رأيناه في بداية هذه الرواية وكان وقتئذ بالغاً منتهى شهرته التي حصل عليها ليس عن علمه ولا فصاحته ولا دماثة اخلاقه وفضائله بل

لمكره ودهائه فضلا عن كونه كان مدمناً على المسكرات يحب بسطة العيش والمزاح الدائم .

وسمع الملك بشهرته فأمر بان يقدموه له إذ لم يكن يوجد أحد من نبلاء المملكة وسيداتها العظام إلا ويعرفه وكانوا يتقبلونه بمزيد الترحاب في اي منزل طرقه .

ولم يقف به الامر عند هذا الحد فانه كان على أتم الجهل ومع ذلك فقد أتيح له ممارسة سر الاعتراف وكان له كثير من الزبائن ولكثرتهم كان محسوداً من رفقائه الرهبان .

أما كثرة زبائنه فقد كانت ناشئة عن كثرة مزاحمته فقد كان يجد دائماً عذراً صحيحاً ولو لافظع الجرائم واقبح الآثام فيغفرها بكل سهولة ولو كان القائم بها اعظم المجرمين لذلك كان يقصده كل المجرمين والذين تقلبت عليهم الآثام فيريحهم منها من دون ادنى عناء .

هذا هو الراهب الذي صادفه جوهان الشجاع وهو الملقب بالراهب المضحك .

* * *

وقفت الجماعة أمام منزل حسن المظاهر يعلو بابه الخارجي رأس ثور كبير منقوش على البلاط الرخامي ويحيط به عدة رؤوس من الثيران اصغر منه فقبض جوهان بيده على مطرقة الباب التي كانت تمثل رأس ثور أيضاً وقبل ان يقرع الباب أمر

رجاله بان ينصرفوا ويستريحوا لأنه لم يعد في حاجة لهم .

ثم دخل جوهان وبرتيل الحسناء الى حيث كان يقيم الدوق والدوقة داندبلي اما الدوق فكان رجلا يناهز الاربعين من عمره وقد تغلب عليه وهو حاد البصر وضاء الطلعة تدل ملامحه على معنى الشرف المتجسم .

وكانت الدوقة قد تجاوزت السنة الثلاثين من عمرها وهي بديعة الجمال يزين شعرها الاسود الفاحم المنسدل على كتفيها وهما من أصل اسباني ولكنهما اقاما منذ مدة طويلة في فرنسا فأصبحا يحسنان لغتها ايما احسان .

وكان البهو الذي يقيان فيه مفروشاً برياش أنيقة ليس ابدع منها فاستقبلا الشاب والفتاة بمنتهى الترحاب كأنهم من السلالة المالكة وما ذلك بمقتضى وصية الفارس باردليان الذي كان يحترمانه احتراماً زائداً لانهما لم يستقبلا ضيوفاً بمثل هذا الاكرام .

وتأثر جوهان للغاية من هذا الاستقبال الباهر الذي لم يكن يتوقعه وقد سرته طلاقة الدوق سروراً لا يوصف فأخذ يحادثه من غير تكلف كأنه احد اقربائه وكان باردليان ينظر اليه من طرف خفي وهو مبرور لأنه ذكره أموراً لم يكن يعرفها سواه .

وتقدمت الدوقة للقاء الآنسة برتيل التي انحنت أمامها باحترام واردات ان تندفع بشكرها ولكنها لم تمكنها مما

ارادت بل انهضتها بعجلة وضمتها إلى صدرها وأخذتها الى الغرفة التي خصصتها لها .

ثم الحت على ضيفتها ان تتناول شيئاً من الطعام فأجابتها الى طلبها شاكرة لها حسن اهتمامها وعنايتها .

فأجابتها الدوقة قائلة :

— ان الكثير الذي اعمله معك هو أقل من القليل بالنسبة للذي جلبه بك الى هنا واكراماً لك أكون بمثابة والدتك واعتبرك ابنة لي لأن الله لم يمنحني نعمة الامومة .

وسأطلعك على سري فيما بعد أما الآن فاذا كنت تعتبرين ذاتك مقيدة نحوي بشيء من عواطف الشكران ارجوك ان تثبتي لي ذلك باظهار حبك لي كما بت أحبك .

وأراد جوهان ان يشكر بدوره الدوق على ما فعله من جميل وما اسداه اليه والى حبيبته من المعروف فقال له الدوق بصوت رزين :

— لست مديوناً لي بشيء بل أنا مديون بشكرك فاعلم بان حياتي وشرف الدوقة التي أحبها أكثر من حياتي من نعم وافضال الفارس باردليان وليس هذا فقط فانه مصدر ثروتي وسبب نعمتي ولولاه لما احرزت اللقب الذي احرزته وقد مرت علي عشرون سنة وأنا انتظر بخيره وأنعامه .

أما الأمر الذي تجهله فهو مبلغ العذاب الذي عاناه والاخطار الهائلة التي اقتحمها والتي تفوق الوصف ولا يصدقها العقل وذلك

www.liilas.com

ليمكنني من التمتع بالسعادة التامة خلال هذه العشرين السنة وسيأتي يوم اقص فيه عليك خبر العراك الهائل الذي قام بهذا الرجل الرهيب الذي لم يكن يعتمد على غير قوته وليس له ثروة أو أصحاب يؤيدونه بل كان كل اعتماده على قوة ذراعه وصدقه واستقامته فقاوم المكر والخديعة والظلم والدهاء والتوحش الغريب الذي كان ممثلا بشخص الاميرة فوستا وملك اسبانيا وديوان التفتيش وسأخبرك كيف خرج ظافراً من هذا العراك الذي لم تكن فيه نسبة بين القوتين ولو كان سواه لما ناله غير الموت والهلاك وستسمع أدهش حكاية روتها أساطير الاقدمين .

وقد مرت علي هذه العشرين السنة ولم يمر يوم واحد إلا وسألت ان يمنحني النعمة لاتمكن من خدمته بدوري ولو مرة واحدة في حياتي وأكون قد قمت بأقل واجباتي نحو هذا الرجل الذي ليس له مثيل على سطح الغبراء ولكنه لم يسألني في حين من الاحيان شيئاً من الاشياء .

ففتح باردليان احدى عينيه وقال بمنتهى السكينة :

— لم اسألك خدمتي أيها الدوق لأن الظروف لم تساعدني على ذلك أما الآن يا دون سيزار وقد طرأت هذه المناسبة فكنت أول من فكرت له .

— وهل يعتبر ما تطلبه مني خدمة يا سيدي ؟

ثم التفت الى جوهان الشجاع وقال له :

— مهما تكن هذه الخدمة طفيفة في حد ذاتها فانها تسبب لنا سروراً لا يوصف وبما انك انت السبب في هذا السرور الذي ألم بنا فأنا مديون لك بالشكر ويسرني ان اقوم نحوك ما عجزت عن تأديته فيمكنك أن تعتمد علي في كل امر وتعتبرني اخلص الاصدقاء وأوفاهم .

وأقبلت في تلك اللحظة الدوقة وقالت :

— أما أنا فارجوك ان تعتبر هذا المنزل كمنزلك الخاص وان تتذكر اننا نقبلك فيه دائماً كأعز الانسباء المخلصين .

وشعر باردليان بالتأثر من سماعه هذا الحديث فخاطب جوهان الشجاع قائلا :

— أما انا فلست ادري إذا كانت الدوقة قد نسيت اخبارك بانها تنوي الذهاب غداً مع الدوق الى أملاكها في داندیلی وكن في راحة على الفتاة التي عهدت الى عنايتها فهي في مأمن من كل خطر وليس من أحد يعرف مقرها وكان هذا السفر مقرراً قبل زيارتنا لها واعلم بانك لا تستطيع زيارة الفتاة العزيزة الموجودة في هذه الغرفة أثناء غيابهما عن القصر فانصحك بان تراها في الحال لأنه سيمر عليكما يومان ولا تريان بعضكما وليس مثل هذا الفراق أصعب على العشاق .

وانتهزت الدوقة فرصة هذا الحديث لتقول :

— لماذا لا تأتي معنا الى داندیلی أيها الفارس العزيز فتزور املاكك وتتعرف عليها .

– أية املاك تعنيها أيتها الدوقة ؟

– املاكك في مارجنسي .

– لقد نسيت يا عزيزتي جيرالد ان هذه الاملاك الواسعة لم تعد تخصني وقد اعطيتها .

– بل قل انه يسرك تبذير اموالك وتبديدها وقد سمحت باملاكك الى الفلاحين الذين ينهبونها .

– اخطأت يا عزيزتي لأنهم يشتغلون فيها فلا يمكن ان ينهبوها اما القصر فأنا على يقين بانهم يحترمونه كل الاحترام ولم يدخله أحد منهم حتى الآن .

واستولى عليه تأثر غريب لما ذكر هذه الكلمات وأخذ يناجي نفسه بقوله وهو مغمض العينين .

– هنالك ماتت عزيزتي لويزا التي انتدب وفاتها منذ اربعين سنة ... اجل فلا يدنس أحد بوجوده تلك الغرفة التي كانت تسطع ببهجتها وسحرها فيما مضى من الايام ولست اعود إلى ذلك المنزل الذي يذكرني موتها وانها لم تعد من عالم الاحياء .

ثم تظاهر الدوق سيزار بعدم الانتباه للتأثر الذي بدا عليه وخاطب جوهان الشجاع بقوله :

– اني لم اشتري املاكي في دانديلي الا لمجاورتها املاك ما جنسي .

وقد طالما عللت اماني بان يأتينا يوم ننصرف فيه الى تلك الجهات ونقضي باقي ايامنا في راحة وهناء بال ونعيش كإخوة ضمن عائلة واحدة ... ولو طاوعنا سيدي الفارس على ما نريده لرأى من اعتنائنا بامره ما ينسيه اتعاب الشيخوخة .

فأجابه باردليان بالشكر ثم قاد جوهان الى غرفة حبيبته برتيل وأغلق بابها وعاد الى الدوق والدوقة وقص عليهما تلك الحادثة التي وقعت لجوهان مع الملك وكيفية خلاص برتيل من مخالب كونسيني الخائن .

(١٠)

الفصل السابع عشر

مكاشفة القلوب بالحب

لما رأت الانسة برتيل جوهان الشجاع داخلاً غرفتها نهضت واقفة فاقترب منها الى ان فصلت بينهما طاولة صغيرة احضرتها الدوقة بيدها ووضعت عليها زجاجة من الخمر المعتقة وشيئاً من اللحم البارد المقدد ففاجأته برتيل بقولها :

– لولاك لكنت من الهالكات أيها الحبيب العزيز واني اسألك باعز شيء لديك ان تقص علي سبب وصولك إلى نجدتي في الوقت الملائم .

فضحك جوهان ضحكاً عالياً وقال بمزيد السكينة :

– الأمر بسيط للغاية في حد ذاته فقد كنت عائداً الى منزلي ورأيت الخفة التي ذهبت ولكني لم أتوقع الحقيقة الرهيبة وبينما أنا كذلك تذكرت فجأة اني نسيت ...

– نسيت ان اتفقد عطفه المدخل فأسرعت بالخروج من غرفتي ونزلت السلالم اربعا ولكني لم اكد أصل الى المحل الذي

اقصده حتى رأيت أحدى نوافذه مخلوعة وزجاجها محطماً فجمد الدم في عروقي ولم أعد افكر بأمري فقفزت في الحال إلى داخل الغرفة ورأيت صاحبة المنزل ممدده على بطنها ولكني لم أعرف السبب الذي دعاها للوجود في ذلك المكان في هذه الحالة التي رأيتها بها ولكن منظرها كان رهيباً للغاية لأني لم أر في حياتي وجهاً بشرياً بدت عليه امارات الخوف مثل وجهها في تلك اللحظة فهجمت عليها بشدة وقبضت على ذراعيها وهززتها بعنف لا مزيد عليه وسألتها عنك فادركت اللعينة في الحال مقصدي ولكني كدت اخنقها وأنا غير شاعر بأمري فخففت قليلا من ضغطي عن عنقها حتى اصبحت تقوى على الكلام وهمست قائلة :

– لقد خطفوها رغماً عني وليس لي وحقك دخل بهذه الجريمة فعفوك عني .

وسألتها ان تزيد في بيانها ولكنها لم تتكلم الا مرغمة حتى أكرهها على الكلام وقد عرفت من وصفها للذين خطفوك انهم رجالي وكنت رأيت المحفة ذاهبة في جهة نهر السين فعرفت في الحال الذي ارتكب هذه الجريمة الفظيعة والمكان الذي أخفاك فيه فتركت العجوز اللعينة في مكانها وأسرعت بالخروج من المكان الذي دخلت منه حتى وصلت الى المنزل الذي اقصده وأخذت اقرع بابه بيدي ورجلي وأنادي بأعلى صوتي ولحسن الحظ سمع رجالي صوتي وعرفوني وفتحوا لي الباب وعرفت منهم ما أريده فأعطيتهم التعليمات اللازمة ووصلت اليك في

الوقت الملائم فالامر بسيط للغاية .

– صدقت ولكن يجب ان تسهر على ذاتك فلا تتعرض للاخطار ويجب ان تأخذ لذاتك كل انواع الحيطة فهم لايريدون ضياعك وهلاكك فقط بل يحاولون تلطيخك بالعار .

– وكيف ذلك ؟

– لقد زعم هذا اللئيم انك تقوم عنده بخدمة سافلة .

– اتعنين بقولك انه يتهمني باني اقتل لقاء اجرة اتقاضاها؟

– نعم .

– لقد كذب فاني اقابل الرجل المعين في رابعة النهار وأدعوه للقتال فيكون سيفي مقابلاً لسيف مثله وكثيراً ما قابلت لوحدي عدة أشخاص ومن أية جهة أتاني الموت يكون قتالي شريفاً .

– يا للهول ويا للفظاعة !

– ما هو الأمر الذي تشكين منه يا سيدتي ؟

– المهنة التي تتعاطاها. واني أعلم ان القتل دفاعاً عن النفس سنة طبيعية لا تقبل الاعتراض ولكن القتل لقاء بعض دريهمات أمر فظيع للغاية فهل لم تتعلم هذا المبدأ قبل الآن ؟

قبل ان تجاهري بنفورك مني وكرهك لي وقبل ان تطردينني من أمامك أرجوك ان تصغي لما اقوله لك :

– ان ما ذكرته لا يعنيك قط فأنت اشرف وأنبل رجل عرفته فلا تقل لي شيئاً .

– إذا رفضت سماع قولي يثبت عندي انك تكرهيني كرهاً

عظيماً وإذا كان الأمر كذلك أرجوك ان توضحي لي افكارك وأنا اقسم لك بأني انتحر عند خروجي من هذا المنزل . !

– لماذا تريد تعذيبي بمثل هذه الاقوال ؟

– ماذا أرى ! انك تبكين ولا تطردينني من امامك فهل بقائي قريباً منك لا يخيفك !

– الا تتذكر ما قلته لك عند باب منزلي واني اموت لموتك

– رباه أذن أنت ...

– اني احبك .

– تحبينني فيا الهي هل جننت أو انا حالم ؟

– بل أحبك .

– انا .. هي .. ان ذلك مستحيل .

– ارحوك للمرة الأخيرة بأن لا تعيد أمامي اقوالا تؤلمني فانت اشرف وانبل رجل عرفته .

– بل انا مجنون :

فانحنت اليه وامسكته من يديه ورفعته بلطف عن الأرض وقالت له :

– تعال قبلني فانا خطيبتك يا جوهان .

تعال قبلني قبلني ..

الفصل الثامن عشر

كيف خرج جوهان الشجاع من تلك الغرفة التي اصيب فيها بتلك المؤثرات الغريبة التي لا يقوى على احتمالها العاشق الولهان ! وكيف ودع الدوق دانديلي وزوجته ! وكيف غادر منزلهما ! تلك أسئلة كان يعجز عن الجواب عليها لفرط اضطرابه .

ولم يكد يقفل الباب من ورائه حتى ارتمى على مقعد بجانب الطريق وأخذ رأسه بين يديه وظل برهة مستغرقاً في الافكار العميقة ثم رفع رأسه والقى على ما حوله نظرة تائهة كأنه يريد معرفة المكان الذي هو فيه ونهض واقفاً ثم اسرع يعدو في مشيته وتمنى لو كان له اجنحة يطير بها .

وفي ذات الوقت انتصب شبح في الجهة الثانية وهو يستند الى الجدران لئلا يقع على الارض . .

وقد كان هذا الشبح صديننا كولار الهامل الذي كان يتهادى

بمشيته كعادة السكارى الذين لا يكون لهم من هم وهم يمشون إلا المحافظة على موازنتهم فمر من هناك وهو يتظاهر بعدم رؤية الذين كانوا يرافقون الآنسة برتيل ورفقاءها وجاء فارتمى في تلك الجهة .

وظل الراهب برهة جالساً على الارض وظهره مستند الى الحائط وقد شغلته الافكار العميقة الى ان خطر له ان يقوم وينصرف الى عمله وبعد جهد جهيد تمكن من الوقوف على قدميه وسار يتهادى في مشيته حتى وصل الى دار الكبوشيين وكانت الساعة الخامسة صباحاً .

فأخذ بيده مطرقة الباب وابتدأ يقرعه قرعاً عنيفاً متواصلاً ويصرخ بأعلى صوته قائلا :

– افتحوا الباب للأخ كولار المسكين فهو يكاد يموت من ظمأه .

فلما سمع البواب نداءه هرول مسرعاً لفتح الباب ودفع الأخ كولار إلى داخل الدير وكان كولار ضاحكاً .

وأخذ الرهبان يضحكون بدورهم وهم لا يعرفون سبباً لضحكه وشرع الرهبان يقبلون من كل الجهات ومن كل الاروقة فعقدوا عليه دائرة كان محورها .

وبينما هو كذلك صمت عن الضحك فجأة وقال بصوت جهوري .

– اني ظمآن وجائع .

فاقترب منه أحدهم وقال له :

Aml www. lilas. com

– ارى يا اخي انك في حاجة الى سرير .

– اني جائع وظمآن فمتى اكلت وشربت أنام .

فقاده الراهب حتى وصلا الى سلم حجري فصعداه وبينما هما كذلك عثرت رجل الاخ فكاد يسقط الى الارض لو لم يتمسك برفيقه وابدى بيده اشارة غريبة فظهرت على الراهب الكبوشي أمارات الدهشة والاندهال وسأل الأخ السكير بلهجة دلت على مزيد الاحترام .

– إلى أين تريد ان اذهب بك ؟

فهمس الأخ كولار كلمة سرية وعاودوا سيرهما الى ان وصلا الى قبو دخلاه واقفلا الباب من خلفهما عندئذ ترك الأخ كولار ذراع الراهب الذي كان مستنداً عليه ووقف امامه ثابتاً منتصب القامة رافعاً رأسه بخيلاء .

وقد ظهر كولار الكامل بهيئته الجديدة الراهب الكبوشي بمظهر يدعو الى الاندهال والاعجاب فأخذ ينظر اليه مبهوتاً وهو لا يصدق ما يراه ولكن كولار ابدي له بيده اشارات جديدة فانحنى أمامه بمزيد الاحترام وقال له :

– ما هي أوامرك يا أبتاه

اني محتاج الى الراحة فلا تدع أحداً من الطفيليين يقترب من الباب وتعال في الساعة الثالثة لتوقظني من منامي وسننسى منذ الآن الى ان تصدر لك اوامر جديدة بأني رئيسك إذ يجب ان أبقى في عرفك وعرف الجميع اني الاخ كولار .

ستنفذ اوامرك بالحرف الواحد أيها الأب المحترم .

– حسنا فاذهب الآن يا ولدي .

ولم يكد يخرج الراهب من القبو حتى خفف الأب الذي زعم أنه في حاجة الى النوم والاستراحة ودنا من الباب واصغى ملياً إلى أن بعدت عنه الخطوات ولم يعد يسمع وقعها فاقترب من الحائط وقرع عليه اربع مرات قرعاً غير منتظم ولم يلبث ان سمع من الجهة الثانية جواباً عليه .

وفتح كولار الباب والقى على الرواق المقفر نظراً دقيقاً ولما تحقق خلو المكان انسل من القبو وفتح بابا كان أمامه ودخل غرفة واسعة مفروشة فرشاً انيقاً كان فيها راهبان .

وكان أحد هذين الراهبين عجوزاً طويل اللحية تدل هيئته على لطف زائد وهو جالس على مقعد وثير ينتهي العظمة والخيلاء

اما الراهب الثاني فكان واقفاً أمامه بمزيد الاكرام والاحترام وهو مديراً ظهره نحو الباب وكان قصير القامة نحيف البنية خفيف شعر اللحية قد خطه الشيب قليلاً وبدت على جبينه المريض تجعدات كثيرة مع انه لم يتجاوز العقد الثالث من عمره .

ولما رأى كولار هذا الراهب الذي لم يكن يتوقع مصادفته في تلك الغرفة عاود التظاهر بالسكر المضحك ورأى العجوز هذا الانقلاب السريع فتبسم ابتسامة الرضى .

ولما رأى الراهب الكبوشي القادم الجديد قطب حاجبيه والقى عليه نظرة احتقار وامتهان وأخذ ينظر الى العجوز

بانذهال ليعرف المناسبة بين ذلك الشخص العظيم وهذا المضحك السافل .

وانحنى كولار السكير أمام الراهب العجوز باحترام زائد حتى كاد يخر جاثياً عند قدميه منتظراً ان يوجه اليه السؤال اللازم ولكنه لم يكن يفارق الراهب ببصره ليفحصه بدقة .

وتبسم العجوز مرة ثانية وقال بلطف زائد وبلهجة ايطالية :

– دع تكتمك يا ولدي ومن العبث أن تزيد نفسك تعباً وعناء أن الأب جوزيف دي ترامبلاي ليس من طغمتنا ولكنه سيسمع حديثنا وفي هذا السماع دليل احترامي لذكائه العالي لأن ما منحته من نعمة لا أجود بها على سواه .

وخاطب الأب جوزيف دي ترامبلاي الذي كان يسمع الحديث مبهوتاً وقال له :

– لا تتعجب فهذا الراهب هو العامل الذي كلمتك عنه هو الذي سيعرف فيما بعد بصاحب النيافة الرمادية وما هو إلا مساعد المصلي في دير الكبوشيين .

– عفواً يا أبتاه فقد خدعت بامره كسوالي وأنا الذي أخال ذاتي معداً لادارة مهام الناس فقد بدأت أتعلمهم وأعرفهم . كنت احسب ذاتي قادراً على الحكم على الانسان بمجرد النظر إلى وجهه فاقرأ في كفي كتاب مفتوح وقد خدعت بحيلتك العجيبة ولم أدرك كنهها فلا أزال طفلا لا اعرف شيئاً وقد القيت عليّ درساً شديداً قتل كبريائي ولكني لا أنساه أبد الدهر .

– نعم انك لا تزال طفلا صغيراً وما ذلك إلا لأنك خدعت

بحيلتي بل لأنك لا تزال متردداً بالانضمام الينا ولا تزال مرتابا بقوة وعظمة طغمة يسوع .

وحدق بمخاطبه برهة يسيرة وكان يهز رأسه من حين إلى آخر كأنه يجاوب نداء داخلياً وأشار الى كولار الكامل الذي كان لا يزال واقفاً أمامه موقف الاحترام وقال :

– ان الأب كولار الذي تراه امامك هو أحد رؤساء طغمتنا المحترمين ولكنه يقوم منذ عدة سنوات بمهارة لا مزيد عليها وبدون ادنى تذمر بمهمة تجعله اضحوكة الجميع وسبباً لاحتقارهم وامتهانهم أياه وما ذلك إلا لأنه تلقى الأوامر ليقوم بهذا العمل ولم يعط لهذا الأمر إلا لخير الطغمة ولمجد الله الأعظم وقد تمكن بدهائه وذكائه وفرط خبرته من القيام بمهمته كما يجب ولا عجب إذا طمع بان يصير في أحد الأيام اميراً للكنيسة وسبباً لتفاخر العالم الرهباني به ولعل هذه الفكرة هي التي دفعته لتضحية مطامعه الشخصية وأطفأت نار ذكائه حتى صار يضرب به المثل في الحمق والبله وقد قام بذلك اطاعة للأمر الذي صدر له وان ما فعله هذا الرئيس لا يتأخر أصغر جنود المسيح عن القيام به غير اننا عهدنا اليه بهذه المهمة دون سواه لأنه كان الوحيد الذي يستطيع القيام بها .

والقى العجوز على الراهب الذي كان جامداً امامه نظرة تعطف دهيت بكلمح البصر وعادت اليه في الحال سكينته الاعتيادية فرفع رأسه بعظمة وقال :

– وأنا كلود اكوافيفا الرئيس الأعظم لهذه الطغمة المجيدة واحد حلفاء ابت الاقدس اغناطيوس دي ليولا قد وصلت الى حالة انت ادرى بها من سواك فانا اليوم الأب كلوديو المسكين الحقير وما انا الا راهب ايطالي لا ذكر له وقد قبلني هذا الدير شفقة بناء على وصيتك به وهو الآن مقتنع بالاكرام الذي يبذلونه له نظراً لتقدمه في العمر وما ذلك الا لأن صالح الطغمة يتطلب هذا التكتم .

ونهض واقفاً في مكانه فبدت قامته الهزيلة منتصبة كقضب الخيزران رغماً عن بلوغه السنة السابعة والستين من عمره وقال لأب جوزيف الذي كان يصغي بمزيد الانذهال :

– قل لي أيها الأب جوزيف هل تعرف طغمة يستطيع رؤوساؤهم ان يقدموا مثل هذه البراهين التي تدل على اخلاصهم وعدم مبالاة بانفسهم كما نفعل نحن ؟ كلا فطغمتنا الدينية لا يوجد لها مثيل في العالم لأنك حيث القيت نظرك لا ترى إلا المطامع الذاتية التي لا تحصل منها فائدة تستحق الذكر .

وأخذ يمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً وقد استغرقته الأفكار ثم قال بصوت جهوري :

– نعم روح التضحية الذاتية التي تراها في طغمتنا هي التي تجعلنا ذوي قوة لا تضاهيها قوة ففي كل مكان ترى القوات منصرفة إلى نفع ذاتي وخدمة خاصة أما عندنا فالأمر بالعكس فان الالوف المؤلفة من القوات والافكار تطيع قوة واحدة

وإرادة واحدة وهما قوة وإرادة الرئيس الاعظم فهو يدير الاجسام والأفكار ويديرها .

وبواسطة هذا الاتحاد الغريب تظهر القوة الضعيفة غريبة في نوعها وتسطع باجلى معاني القوة اما ذو الذكاء السامي فانه يظل حقيراً خاملا إذا رأى استاذنا الأعظم وجوباً لذلك وفي الحالتين تكون الغاية واحدة وهي عظمة الطغمة ومجد الله الأعظم ولذلك ترانا رغماً عن الاضطهادات والعذاب التي ألمت بنا لا نزال نقوى من يوم الى آخر وكلما فكر اعداؤنا انهم تمكنوا منا وصاروا على وشك ابادتنا نزداد قوة وعظمة .

ووقف برهة أمام الأب جوزيف وحدجه ببصره مليا وقال له :

– اما أنت فذو دماغ قوي مفكر وقد بلغت بك الشجاعة للاعتراف بهذا الامر واني امدحك على شجاعتك وقد انخرطت في السلك الرهباني لتسود على باقي البشر وتستولي على افكارهم وتقودهم بارادتك وسلطتك فقل لي ما الذي ترجوه من طغمة الكبوشيين ؟ وبعد صمت وجيز قال بثبات وعزم .

قد تصير المصلى العام لهذا الدير وتنوب عن طغمتك الفنية ولكن ما الذي تناله بعد ذلك ! اذا كنت طامعاً بالارجوان والبرفير فقد تصير كاردينالا وتتدخل بشؤون المملكة فتصبح رئيساً للوزارة وتمسي قوياً تخضع لك كل القوات فاذا كان ذلك ما تؤمله فاعلم بان هذه النتيجة ليست السلطة بحد ذاتها بل هي قسم من مجاليها الكاذبة الخادعة .

وتأمله برهة ثانية وقد بدت عليه الإمارات الاستهزاء وقال وقد لطف لهجته معه .

– اسمع ما اقوله ايها الغلام فاني راهب مسكين وعجوز اثقلت كاهله السنون والقبر ينتظره من حين الى آخر فلست شيئاً مذكوراً ولا وجود لي في عين أحد من الناس ولكنني الاستاذ الاعظم لطغمة اليسوعيين .

– وانتصب واقفاً وقد بدت على وجه امارات العظمة والخيلاء وأصبح حاداً قاسياً وأردف حديثه قائلا :

– ان اسبانيا تخصني وإيطاليا ملك لي والبابا يرتجف خوفا أمامي وفرنسا برمتها خاضعة لي وما علي إلا ان أمد يدي القوية لأخضع انكلترا أيضا فاجتاز البحور بعين الخيال ليصير العالم برمته خاضعا لأمري لأن جنودي منتشرين في كل مكان ففي افريقيا وامريكا والهند العدد الوافر منهم وكلهم يأتمرون بكلمة مني انا الاستاذ الاعظم لطغمة يسوع .

ومد ذراعه الى الامام وقد ابدى اشارة واسعة كأنه يريد أن يقبض حقيقة على العالم ويضمه الى صدره الضعيف وظهر هذا الشيخ العجوز وهو في تلك الحال بهيبة مرعبة وعاود حديثه بقوله :

– اردت باشارتك التي ابديتها منذ هنيهة ان تفهمني بان فرنسا لم تدخل في حوزتي بعد الآن لأن ملكها هنريكوس الفاتح قد طردني منها ولكنه اخطأ وهمه كما اخطأ سائر الناس لأنهم طردوا مرفرنسا مئة او مئتين من الرهبان المعروفين رسميا

بانتمائهم الى رهبانيتنا وقالوا في انفسهم لقد تغلبنا على الطغمة اليسوعية وظفرنا برجالها .

وضحك ضحكاً عالياً وقال :

– ولكن لقد ساء فألهم واخطأوا في وهمهم لأنهم تركوا الالوف من المنتمين الينا الذين لا يعرفهم أحد وهؤلاء اشتغلوا في السر ولم يشعر أحد بأمرهم .. لا تعجب مما تسمعه فان لنا احزاباً في كل مكان حتى في هذا الدير بل وفي كل اديرة فرنسا وشوارعها وقصورها والبلاط الملكي وهؤلاء يظلون مجهولين من الجميع إلا اذا سمحت لهم بالظهور واذا اردت الانضمام فتبقى أمام الجميع راهباً كبوشياً لذلك ارى انه يحق لي التفاخر بأني لم اغادر قط هذه المملكة وقد عدت اليها وهدمت المباني التي كانت تحاول عرقلة مساعينا ... نعم ان الملك لا يزال موجوداً ورغماً عن خوفه منا فوجوده يضايقني وقد حكمت عليه واصبحت ايامه معدودة وسيناله الموت عما قريب اما خلفه فسيكون من حزبنا لأني أصدرت الاوامر اللازمة ، لاعداده على هذا الامر . ولذلك استطيع ان اقول لك منذ الآن ان فرنسا صارت ملكاً لي لا يعارضني فيها معارض فهل اقتنعت بصحة كلامي ؟

وصمت برهة كأنه يريد من مخاطبه التفكر بما سمعه واردف حديثه قائلا :

– اما انت المفكر بالحصول على السلطة والعظمة الطامح بالسيادة المطلقة تأمل بالسرور الرجل الذي يستطيع الوصول

الى مركز يقول فيه لعظماء العالم ايها الفاتحون والملوك الذين تنحني امامهم هامات الملايين من البشر والذين اسماؤهم تسطر في سجلات التواريخ بحروف ذهبية الى انقضاء الدهور ، اعلموا بان الرجل العجوز الذي لا يعرفه احد هو الذي يدير اعمالكم ومعاملكم منذ اكثر من خمسين سنة ، فتخضعون لاوامره ونواهيه وانتم لا تشعرون وما هذا الرجل إلا انا وما ذلك إلا لكوني خليفة ابينا الاقدس اغناطيوس دي ليولا .

وصمت برهة وقد كتف يديه على صدره ثم اردف قائلاً :

– قل لي ما هي نسبة السعادة التي تحلم بها إلا التي ذكرتها لك ولكني اعرض هذه النعمة إذا اردت ان تصير من عدادنا فلا تجاوبني على رأيك قبل ان تفكر وتنظر وتتأمل ومتى فارقت هذه المملكة إذا لم تكن من عدادنا ولم تتعين خليفة لي فذلك لأني اخطأت الحكم عليك وانك لست الرجل الذي توسمته .

وعاود الجلوس على مقعده الوثير وخاطب كولار الكامل بقوله :

– تكلم يا ولدي وقدم لي تقريرك بما عملته مع رافالياك .

اني الاحقه يا مولاي ليل مع نهاراً ولولا معاكسة الاقدار لنا لكان قد قضى الأمر في هذه الساعة .

زدني ايضاحاً يا ولدي .

– لقد أثرت عوامل الغيرة في فؤاد رافالياك فلما وصل الى النزل ابصر رجلاً واقفاً عند بابه وحسبه الملك ولكنه لم

يكن الملك لسوء الحظ وقد ابدى حركة غريبة فلم يصبه خنجر رافالياك بل أصاب خشب الباب وانكسر من قبضته .

– ومن كان هذا الرجل !

– جوهان الشجاع

– جوهان الشجاع أي ابن فوستا فكيف وجد في ذلك المكان وهل لم يأتِ البه الملك !

– ان جوهان عاشق مغرم بالفتاة وحبه لها يشفع بوجوده تحت شرفتها ولست استطيع افادتك اذا كان الملك قد جاء او لم يأت لأن التعليمات التي تلقيتها كانت مقتصرة على ان ابقى بعيداً عن مكان الحادثة فكنت وقتئذ في شارع سانت انطوان داخل احدى الحانات حيث تناولت الخمرة بافراط معيب وقد لحقت رافالياك بعد ذلك ولكني لا اظنه يعلم اكثر من هذه التفاصيل .

– ان في الأمر سراً غامضاً ستوضحه لي التقارير التي اتوقع الحصول عليها فقل لي هل لا يزال رافالياك مصراً على عزمه .

– نعم يا مولاي وأنا كفيلٌ .

– حسنا فعرضه على الاعتراف لأحد اليسوعيين الشهيرين مثل الأب روبيني .

– ليس اسهل من هذا الامر .

وسأبلغ الاوامر للاب روبيني أما انت فيجب ان تزيد في مهارتك وبلاغتك واني منذرك منذ الآن بان نصائح الأب

Aml www lilas com

روبيني تخالف تعاياتك على خط مستقيم فهل ادركت مني ما أريده ؟

– نعم يا سيدي فأنك تريد اذا تنبهت الظنون ان يثبت على طغمة اليسوعيين بأنهم بذلوا كل مجهودهم لمنع ذلك الأحمق عن ارتكاب جريمته الجنونية اما الاخ كولار الكامل فهو لا ينتسب للطغمة اليسوعية ويوجد اكثر من الف شاهد يؤكدن بأنه نصح لرفالياك مراراً كثيرة ان يعود الى وطنه ويعيش فيه بأمن وسكينة .

– احسنت ولا اظنك قد اتيت على تتمة تقريرك .

– صدقت يا سيدي فان ابن الأميرة فوستا قد تقابل هذه الليلة مع ابيه الفارس باردليان في منزل الدوق داندبلي .

فرفع رئيس اليسوعيين الاعظم رأسه بلهفة دلت على عظم اهتمامه بما سمعه من حديث وقال :

– هل انت على يقين من هذا الامر ؟ وكيف اطلعت عليه؟ قل ولاتكتم عني سراً تعرفه .

– لقد شاءت الاقدار ان اقف على هذا السر صدفة فقد كنت اوصلت رافالياك الى منزله وانا عائد منه لأنه اقلقني كثيراً بما ظهر عليه من امارات الجزع واليأس لحبوط مسعاه وقد ذكر لي اكثر من مرة انه يرغب في الأنتحار .

– وما هو سبب يأسه الى هذا الحد ؟

– ان هذا الرجل غريب الطباع والظاهر انه يحب جوهان الشجاع حباً عظيماً فاعتبر اعتداؤه عليه جريمة لا تغتفر .

– وما سبب هذه المحبة بينهما ؟

– لم اتمكن من معرفته يا مولاي لانه كان يتهرب بابهام عن خدمات سابقة قدمها له ولم يزدني بياناً .

فكتب الرئيس الاعظم في مفكرته بعض اشارات سرية وقال :

– هل انت على يقين من عدوله عن فكرة الانتحار ؟

– اظنني توفقت لاقناعه بهذا الأمر .

– ولكنك لست على يقين تام مما تقوله .

– سادع معلم اعترافه يوبخه توبيخاً صارماً على عمله ولنعد في حديثنا الى الفارس باردليان وولده .

– بعد ان تركت رافالياك يا مولاي لاحظت اربعة رجال يرافقون احدى الفتيات فعرفتهم للحال انهم جوهان الشجاع وثلاثة من رفقائه الامناء الذين يفتدونه بالحياة .

– ومن كانت هذه الفتاة ؟

– لم اتمكن من رؤية ملامحها رغماً عن الجهد الذي بذلته في هذا الشأن فمررت بالقرب من الجماعة وأنا اتظاهر بعدم الاهتمام بهم ثم عدت على اعقابي وكان جوهان الشجاع والفتاة قد دخلا منزل الدوق داندبلي وبقيت في موقف مراقبتي ورأيت بعد

قليل الفارس باردليان خرج منه ثم تلاه جوهان الشجاع بعد برهة وجيزة ولا ريب بأن الفتاة قد بقيت في منزل الدوق

– بما انهم لم يخرجا سوية فذلك دلالة صريحة على ان الأب لم يعرف ابنه .

– رأيت حادثا اقلقني وأوجب اهتمامي وذلك اني ابصرت جوهان الشجاع ينتحب برهة طويلة أمام منزل الدوق وهذا الرجل يامولاي غريب الطباع قوي البنية متين الارادة ولا غرابة فمن يشابه اباه فما ظلم وما هو إلا ابن باردليان وفوستا ومثل هذا الشاب لا يبكي إلا لحزن لا يوصف او لفرح زائد

– ألم تقل لي انه عاشق لحسناء الشجرة اليابسة .

– بلى يا سيدي .

– اذن يجب ان نقف على عواطف الفتاة نحو هذا الشاب .

– انها تحبه حبا يقارب العبادة وهي لا تكاد تعرفه .

– يحبه والحالة هذه ان نعلم إذا كانت هذه الفتاة لا تزال مقيمة في شارع الشجرة اليابسة وإذا كانت قد انتقلت منه فتكون هي التي ابصرتها .

– سأذهب هذا اليوم وأقابل السيدة كولنيكل واعرف منها ما أريده .

– اذا كانت هي الفتاة التي رأيتها فبكاء ابن باردليان ناجم عن سبب ليس ابسط منه فان العاشقين قد تكاشفا بسر

غرامهما وتوجد بعض الطبائع البشرية لا تستطيع احتمال المؤثرات الشديدة ولعل ابن باردليان يكون من ذوي هذه الطبائع .

ولعل اخطأت باستهانتي بهذه الفتاة حتى اليوم فهي تخالط وتعاشر جماعة يقضي علينا صالحنا الاعظم ان نجعلهم تحت اشد المراقبة لذلك وجب علينا أن نقف على حقيقة أمرها فاجعلها تحت المراقبة وقدم لي التقارير مفصلة عنها لأني اريد الوقوف على سرها .. انها تدعى برتيل وما هذا الاسم الكافي لمعرفة حقيقتها فمن اين أتت؟ وما هي العائلة التي تنتسب اليها وحذار من إغفالك ادنى تفصيل ومتى وقفت على ما طلبته منك تخبرني معلوماتك لأننا قد نكون اخطأنا باغفالنا امر هذه الفتاة .

فانحنى كولار أشارة على طاعته التامة ونهض الرئيس الاعظم من مقعده وأخذ يتمشى في الغرفة رائحا بتمهل ورأسه منحن الى الامام وقد بدت عليه امارات القلق والاضطراب ثم وقف أمام الاخ كولار وقال له بسكينة

لقد قاربنا الوصول الى الغاية المنشودة يا ولدي وهي النتيجة التي نسعى وراءها منذ عشرين سنة بفارغ الصبر وبمنتهى الشدة وبعد قليل من الجهد تصبح ملايين فوستا التي طالما طمع بها الملوك في حوزة ايدينا وعن قريب تتخلص من تمثيل هذا الدور الذي يشق عليك القيام به .

فأبدى كولار اشارة سلبية يريد بها الاحتجاج على ما سمعه

فقال له الرئيس الأعظم بمنتهى التعطف .

– لا تحاول التكتم والنكران يا ولدي العزيز لأنك ستكون سبباً لحصول طغمتنا على عشرة ملايين من الذهب لم تكن تحلم بها هذه الثروة الطائلة ستمكننا بعدة اشهر من القيام باعمال خطيرة كانت لولاها تستغرق السنين الطوال والعمل الشاق فالفضل بذلك عائد اليك انت الذي عرفت ان جوهان الشجاع هو ابن الاميرة فوستا قبل ان يعرفه سواك وبعد أن كدت ايأس من وجوده يجب أن يبقى باردليان وابنه منذ الساعة تحت أتم المراقبة فلا تفوتنا حركة من حركاتهما وهذا لسوء الحظ كل ما يستطيع عمله معهما خصوصاً الأب فانه يتخلص من كل مراقبة أدبية وما هو من الرجال الذين يسلمون أسرارهم للاعتراف ، ومع ذلك فلا بد لنا من الوصول الى غايتنا وذلك لجد يسوع الاعظم وعندي انه يستحيل ان يجهل الفارس باردليان وجود كنز الاميرة فوستا لا سيما وهو الشخص الوحيد المطلع على هذا الكنز وهو الذي يعرف مخبأه كما تعرفه الاميرة وخادمتها بيرتيش فان رئيسة دير مونتار تجهل جهلا تاماً المكان المخبأ فيه وقد أكد لي الاب الذي كوشون الذي يسمع اعترافها انه على يقين تام من جهلها هذا الامر .

– هل يسمح لي سيدي بتذكيره ان رئيسة الدير الحاضرة لما خلقت كلودين دي بوفيلبير في هذه الرئاسة قد وقعت على عقد اعترفت به بان هذا الكنز هو ملك خاص للاميرة فوستا

وتتعهد بان تسلمه للشخص الذي يدلها على مخبئه ويعطيها خاتم فوستا الحديدي .

– وفي مقابل ذلك تسلمه مئتي الف ذهب وقد مر عليها عشرون سنة وهي تنتظر عبثاً حتى كاد يتولاها اليأس أما باردليان فانه يعلم منذ عودته من اسبانيا أي منذ عشرين سنة هذا السر ولكنه رغماً عن فقره المدقع لم يخطر بباله ان يستورد من هذا الكنز العظيم الذي يخصه شرعاً لأنه ملك لولده الوحيد وقد طالما حسبت انه يقع في التجربة ويسقط في الشرك الذي نصبته له ولكن امالي قد خابت ولم ينالني غير العذاب والفشل وما هذا الرجل الا الشهامة المجسمة .

وظل الرئيس برهة يفكر في أمره وهو معجب بشجاعة هذا الرجل الادبية وقوة ارادته التي استطاع بها التغلب على عواطفه ولم يبال باكداس الذهب المتراكمة أمامه ثم قال :

– لقد تغيرت الاحوال اليوم وسيعلم باردليان عن قريب أن جوهان الشجاع هو ابنه من الاميرة فوستا وإذا اقتضى الامر فأنا اطلعه على هذا السر وليس في اخلاق الشاب ما يسيء عواطف الأب الذي لا أراه مولعاً بالبنين كباقي الآباء ويكفيني منه ان يعترف به ويفتح له ذراعيه او ينكره بتاتاً وغاية ما أريده من الامر ان يأتي يوم يأخذه اليه بيده ويريه كنوز أمه

الطائلة ويسلمها له وفي ذلك اليوم السعيد نكون على مقربة منه نراقبه .

فاذهب الآن يا ولدي العزيز واسترح لأنك في حاجة تامة الى الراحة .

وبعد دقائق كان الاخ كولار الكامل او بالحري الرئيس القسري لاحدى طغمات اليسوعيين مستلقياً على السرير الموجود في القبو الذي اختاره له في ذلك الدير وهو يغط في نوم غطيطاً شديداً .

الفصل التاسع عشر

الوصية

يجدو بنا ان نعود بالقراء الى حديث السيدة كولنيكل التي تركناها في منزلها وهي تراقب السيد النبيل الذي خطف الفتاة .

فتقول لما رأت المحفة ابتعدت عن منزلها نزلت عن الكرسي التي كانت جالسة عليها وقد سمعت تقريباً كل الحديث الذي جرى بين كونسيني وسجينته ولكنها لم تلق فيه ما كانت تؤمله .

ودخلت غرفتها وأقفلت بابها بدقة كجاري عادتها ولم تنتبه لنوافذها التي كانت محطمة الزجاج وليس اسهل من الدخول الى غرفتها منها ورأت القطع الذهبية التي كان كونسيني قد القاها على الارض فضمت يديها الى بعضهما بذهول لا مزيد عليه وقالت واجمة :

-- يا الله ما ابدعك ايها الذهب العزيز وما ابهج قطعك الصغيرة اللامعة التي تشبه الشموس الصغيرة .

وانحنت على الارض وأخذت تلتقط تلك القطع وتلاعبها بايديها فتسمع رناتها بسرور لا يوصف وتقول :

– ما اطرب صوتك في الآذان أيها الذهب الرنان ولا ريب بأن ملائكة السماء قد استعارت منك هذه الانغام المطربة الشجية .

وأسرعت الى سريرها وخبأت في فراشها ما التقطته من القطع الذهبية وبينما هي كذلك انقض عليها جوهان الشجاع انقضاض الصاعقة وقد ذكرنا للقراء ما جرى بينهما وانها اطلعته على كل ما تعرفه في هذا الشأن .

وبعد ذهاب جوهان من منزلها صعدت الى الطابق العلوي وأخذت المصباح الذي كان لا يزال منارا وذهبت ففتحت الغرفة التي قابلت فيها الآنسة برتيل الملك هنريكوس الرابع وفتشت حتى عثرت على آنية صغيرة من خشب الابنوس ففتحت أحد ادراجها بيد مضطربة وأخذت منه علبة صغيرة وعادت الى غرفتها فقفلت بابها من الداخل وأفرغت ما كان في العلبة على الطاولة .

وما كان أشد كدرها واستيائها لما لم تجد فيها شيئاً من النقود إذ لم تكن تحتوي إلا على اوراق قديمة العهد ووعاء صغير من معدن ابيض لا قيمة له فأخذته بحنق وهزته . فسمعت من داخله حركة وفتحته بلهفة فرأت خاتماً صغيراً من حديد ملفوفاً بورقة وهو أقل قيمة من الوعاء الذي كان فيه فأعادته باحتقار

الى مكانه وفتحت الورقة لتقرأها ولكنها كانت مكتوبة بلغة تجهلها فاعادتها الى الوعاء ووضعته في جيبها وهي لا تدرك كنه عملها .

ولما فشلت من هذه الجهة عادت الى باقي الاوراق وكانت مكتوبة باللغة الفرنسية فقرأتها بتمعن وتمهل حتى أتت على آخرها وهي حكاية بلانش دي سوجيس فأثرت عليها هذه القراءة تأثيراً كبيراً وهمست قائلة :

– اذن فالانسة برتيل هي ابنة الملك الذي لم يعامل أمها معاملة حسنة وقد يكون مطلعاً على هذا السر الخطير الذي وقفت عليه ويمكنني أن أنال بواسطته ثروة طائلة ولو أدى بي الى المشنقة لذلك يجب علي ان اتروى ملياً في الامر قبل الاقدام على العمل وأرى ان الانسب في الوقت الحاضر تناسي هذا السر ولكن بما ان الانسة برتيل هي ابنة الملك فلا ريب بانه يسر من معرفته وما صارت اليه .

وأعادت تلك الأوراق الى العلبة وفتحت سواها فرأتها مكتوبة بلغة غريبة فطرحتها في العلبة وتناولت ورقة مكتوبة باللغة الفرنسية ولم يكد يقع عليها بصرها حتى حملقت عيناها وأخذ قلبها يخفق خفوقاً عظيماً وهي كتاب مؤرخ سنة ١٩٥٢ ومرسل الى والدة الآنسة برتيل دي سوجيس وهذا نصه :

« لقد طالما حادثتك ايتها العزيزة بشأن الرجل الشهم الظريف الملقب بالفارس باردليان وأنت تعلمين انه كان عدواً

Arif www. lulas. com

لي وجرحني في المبارزة ثم اعتنى بي وعالجني كأخ له وتعلمين أيضاً مبلغ احترامي وتعلقي العظيم بمليكتي المحبوبة الاميرة فوستا » .

« ولما قهرها باردليان اقالتنا من خدمتها وسافرت الى ايطاليا بلاد الشمس ولكنها لم تتركنا قبل ان تكافىء بجود ملوكي الذين خدموها باخلاص ووفاء وتمكنت بواسطة عطائها ان تشتري املاك فوبرون المجاورة لاملاك دي سوجيس حيث اسعدتني العناية بان اصادفك وأحبك » .

« ان اخلاصي للمحسنة الي لا حد له واخلاصي للذي كان عدواً لي ثم اصبح بجوده وكرمه صديقاً مخلصاً لي لا مثيل له وقد سنحت الآن الفرص لاثبت لهما صدقي واخلاصي » .

« ان الاوراق المرسلة اليك طي هذا الكتاب لا توازي بثمن ولا تعادلها قيمة لأنها تدل على المكان المدفونة فيه كنوز مليكتي الاميرة فوستا واليك حكايه هذه الكنوز وكيف اتصلت الى هذه الاوراق وهي امانة مقدسة عهد الى شرفي بالمحافظة عليها » .

« ان مولاتي المحبوبة لم تعد في قيد الحياة فقد قتلت وكانت تحافظ على هذه الكنوز لاستعمالها الخاص ثم ورثتها لولدها الذي رزقته من باردليان وقد قبلت ميرتيس خادمتها الامينة أن تقوم مقام الوالدة التي كادت تظفر بها » .

« وكانت ميرتيس على يقين تام من اخلاصي التام لمليكتي فجاءت لمقابلتي في فوبرون وكاشفتني بسر الغلام والكنوز التي كنت أجهل وجودها وسلمتني هذه الاوراق التي يتمكن حاملها من معرفة مكانها وقالت لي بأن اعداء فوستا الالداء وأعداء خلفائها يفتشون على هذه الكنوز ويسعون جهدهم للحصول عليها » .

« وكانت ميرتيس تحب مولاتها حباً يقارب العبادة وهي مولعة بها ولعاً لا يوصف فارادت ان تسير معها الى الموت ولكن ولادة هذا الطفل اخرتها عن عزمها ولأجله رغبت في البقاء في قيد الحياة فوجهت اليه كل العناية والحب الذي كانت تشعر بهما لوالدته » .

« وسرق هذا الغلام من ميرتيس فلم تقو على احتمال هذه النكبة فتجرعت السم وانتحرت فماتت في منزلي وقد دفنتها دفناً مسيحياً » .

« ان فقد هذه المسكينة خسارة لا تعوض ولو لم تسرع باطاعة عوامل يأسها وأخرت انتحارها لعلي كنت اتمكن من اعادة الطفل اليها لأني ارتاب بالشخص الذي خطف الغلام فقد صادفت في باريس منذ مدة وجيزة فلورانتانيا جدير بارتكاب كل المحارم يدعى بهاتيا وهو يكره مليكتي كرهاً عظيماً وأنا على يقين بأن حقده عليها يدفعه للانتقام منها في شخص ابنها » .

« وبعد خطف الطفل وموت الوالدة ميرتيس أرى أن الاوراق تعود شرعاً الى الوالد اعني به الفارس باردليان الذي يحسن الدفاع عن ثروة ابنه ويحميها من اعدائه أيا كانوا لذلك عزمت على اعادتها له متى صادفته » .

« اما الآن وقد علمت أهمية هذه الاوراق فانا على يقين بانك تحافظين عليها بمزيد العناية لأني اعتبر فقدها او سرقتها عاراً عليّ ولست من الذين يتحملون العار ويحيون بعده »

« واني ارجو أن أتمكن بما اظهره لك من الحب والاخلاص أن ادعك تعدلين عن فكرك الجديد وان تعودي إلى سابق حبك وغرامك فتعيدي الى خطيبك المسكين حظه وهناءه »

وأعادت تلاوة هذا الكتاب عدة مرات ليرسخ في ذهنها واتقدت عيناها باشعة الطمع وفي تلك اللحظة مرت يد فوق كتفها وخطفت منها الاوراق وسمعت صوتاً ينتهرها قائلا :

— الويل لك ايتها الشقية الساحرة الزنيمة ألم يكفك انك خنت الفتاة التي كان يجب ان تسهري عليها وسلمتيها لأعدائها حتى عمدت الآن الى سرقتها .

فذعرت العجوز ذعراً لا يوصف وصاحت قائلة ويلاه يا رباه هذا هو الشاب الذي فاجأني منذ هنيهة فأنا هالكة لا محالة .

وكان القادم هو جوهان الشجاع بذاته فانه كان ماراً من الطريق فدهش لما رأى النافذة مفتوحة فاسرع بدخول المنزل وصعد السلالم والعجوز لم تشعر به لانشغال بالها واضطراب افكارها واهتمامها بهذا الكنز الذي كانت تريد الاستيلاء عليه .

ورفع جوهان قبضة يده فوق راس العجوز فاغمضت عينيها وأدخلت عنقها بين كتفيها وصاح بها .

— قفي أيتها اللعينة واحمدي الله لأني تذكرت في الوقت الملائم انك امرأة لا حول لك ولا قوة .

ثم أخذ يلتقط الاوراق من الأرض ويضعها في العلبة التي كانت فيها ثم ذهب الى النافذة وقفلها ورأى رزمة المفاتيح على الطاولة فالتقطها ووضعها في العلبة وخرج لينجز حسابه مع كونسيني الذي اصبح وجوده خطراً على حبيبته ولما وصل الى بيته لم يره في السرير الذي طرحوه عليه بل كان ملقى على الارض بعيداً عنه والقيود لا تزال في يديه ورجليه وعلى مقربة منه والخنجر الذي كان قد اغتصبه من الفتاة فادرك جوهان في الحال ان سجينه ابصر هذا السلاح وحاول عبثاً استعماله ليقطع القيود التي كانت تمنعه عن الحركة فانحنى الى الأرض وهو صامت وأخذ الخنجر وشد على قبضته بيد متشنجة وهو ينظر الى النديم ولعله لم يره .

ولما ابصره كونسيني منتصباً أمامه والخنجر في يده خيل له أن ساعة موته قد دنت ولكنه كان شجاعاً من فطرته فلم يتحرك ولا بدت على ملامحه امارات الخوف والفزع بل رفع رأسه بكبرياء ونظر الى الشاب بسكينة وقال له :

— اقتلني إذا شئت فقد طالما عهدتك قاتلا سفاكاً .

فلم يجاوبه على هذا القول بل قطع قيود رجليه اولا ثم قيود ذراعيه وخاطبه قائلا :

— لا تقل انك تعفو عني بل قل انك خائف مني أما انا فلست اعفو عنك ولا بد لي من العثور عليك والويل لك مني .

— انني انصحك يا كونسيني بان لا تعترضي ولا تقف في

سبيلي إذا كنت تود المحافظة على حياتك ولك الخيار بأن تعمل بمقتضى هذه النصيحة او ترفضها، قال هذا وخرج فتبعه كونسيني ووضع يده فجأة على الحائط .

ففتح أمامه باب صغير غير منظور وبان منه قبو كثير الضيق فقفز اليه كونسيني ولم يهتم بقفل الباب من ورائه وقبض على زر معدني وشدة بقوة نحو صدره فلم تسمع ادنى حركة او اشارة تنم على عمله .

وأخرج رأسه من الحفرة واصغى قليلا وكانت عيناه تبرقان بأشعة وحشية غريبة وفي ذات الحين سمع صوتاً عقبه حركة دلت على سقوط جسم فترك الزر الذي كان لا يزال قابضاً عليه وتمتم قائلا :

– لقد تم الامر كما أريد .

وأصغى هنيهة فلم يسمع حركة فقفل الباب السري ونزل السلالم بدوره ولما وصل الى الدرجة الاخيرة جس الارض بقدميه قبل ان يفارق المكان كأنه يريد التحقق من ثباته ولما تأكد له مما يريده دخل الرواق وتقدم تواً من صندوق ضخم يكاد يكون مسمراً في الحائط فضغط على زر فيه فانتقل الصندوق من مكانه وظهرت فتحة تبلغ نحو القدم بالعرض والعمق فلم يهتم بالنظر الى ما في تلك الفتحة لأنه كان على يقين بان نظراته لا تخترق اعماق ذلك الظلام الكثيف ولكنه اصغى قليلا فسمع صوت جوهان وهو يزمجر باللغة الايطالية ويشتم لاعناً بافظع السبات والاهانات كأنه يريد ان يفهم منه عدوه

كونسيني انه واقف له بالمرصاد حتى إذا تخلص من الشرك الذي نصبه له يناقشه الحساب ويكيل له الصاع صاعين .

وانتصب كونسيني واقفاً وقد بدت على فمه ابتسامة السخرية والاستهانة وأعاد الصندوق الى مكانه فلم يعد يسمع شيئاً فقال بصوت عال كأنه يريد ان يسمع جوهان الشجاع ما اعده له من العذاب .

– مت في حسرتك أيها الاحمق المغرور ثم خرج من البيت السري مسرعاً ليذهب الى المنزل الذي يقيم فيه في شارع سانت هونوري على أمل ان يصل اليه قبل ان تعود اليونورا غاليكاي من قصر اللوفر حيث قضت ليلتها .

الفصل العشروون

اليونورا وساتيا

تبع ساتيا الخفة التي كانت تقل الانسة برتيل التي خطفها كونسيني حتى رآها دخلت مع الذين كانوا في خفارتها الى المنزل السري .

ولما وقفت ونزل من كان فيها اقترب فعرف المكان الذي وقفت فيه وهمس قائلا :

ـ منزل منفرد على زاوية المينا وسأتمكن من معرفته وأنا مغمض العينين .

وابتعد بسرعة عن ذلك المكان وأخذ يناجي نفسه بقوله:

ـ لا ريب بان كونسيني المسكين لاحظ له من السعادة وها قد اكتشفنا على عش غرامه الأول ولكن السنيورا اليونورا ستكون راضية عني وهي تدفع بكرم حاتمي اجرة من يخدمها باخلاص ولكن ماذا اصاب ابن فوستا يا ترى ولعله قد وقع في الكمين الذي نصب له... ان الحاكم الاعظم قد عمل بنصيحتي

وسأسرع الى المكان الذي ارشدته اليه وقد رأيت على الارض مقفرة مبعثرة من دوس الاقدام وشاهدت الدم سائلا عليها بما يدل دلالة واضحة على حدوث معركة فيها ولا ريب بان ابن فوستا مقيم الآن في احدى السجون الضيقة فيها لسعادتي وهنائي لأني دربته على يدي وعلمته على الشقاوة والدعارة فهو الآن متهم بمحاولة قتل الملك وسليقى العقاب الذي يستحقه ويشتفي قلبي من عذاب والدته .

ولما وصل الى شارع صليب التراهوار رأى شخصاً قد انقض عليه واصيب بضربة شديدة في صدره فعرفه في الحال انه جوهان الشجاع الذي كان خارجاً من شارع الفور فتراجع في الحال الى الوراء واختفى في زاوية هناك لئلا يراه .

وظل الشاب مواصلا سيره الى الامام ولم يهتم به لاستغراقه بالافكار العميقة التي شغلته عما هو جار حوله ولم يكد يبتعد عن ساياتا حتى شعر بارتجاف يتولاه من رأسه الى اخمص قدميه لفرط الالم الذي ناله من الضربة التي اصابته فالقى على ربيبه نظرة ملؤها الحقد والضغينة وتمتم قائلا:

ـ ويلاه انه حر يسعى ويا له من شقي ماهر ربيته على الدعارة والشقاوة فمهر بها مهارة لم تكن تخطر لي على بال ولا بد لي بعد الآن من تجديد الدور الذي مثلناه .

وعاد الى منزله وقد تولاه اليأس العميق وبدت عليه ملامح الكدر والاستياء فارتمى على كرسي واعتقل رأسه بين يديه

وظل مدة طويلة مستغرقاً بالافكار وهو يعد خطـــة جديدة للانتقام .

ولما قرعت الساعة الثامنة ذهب الى شارع سانت هونوري فأمرت اليونورا غاليكاي بادخاله سريعاً الى غرفتها لما بلغهـا خبر مجيئه وابتدرها بقوله بعد التحية :

– إذا أردت يا سيدتي أن تمسكي الثعلب وهو في الفخ فما عليك إلا ان تذهبي الى منزل قائم على زاوية المينا .

– اذن لم أكن مخطئة في حسبـــاني ولا خدعتني ظنوني فزوجي كونسيني قد اتخذ له خليلة جديدة .

لست تستطيعين منع الفراشة عن الطيران من زهرة الى أخرى وأنت اخبر الناس باخلاق زوجك وانه لا يمكن حصره في مكان .

– نعم فهو يهوى كل النساء إلا أنا .

– بل هو سأم منهن وأخذ يهجرهن تباعاً ولا ريب بانك ستنالين منه الحظ الاوفر .

– قص علي ما تعرفه وقل لي قبل كل شيء مـاذا تدعي خليلة زوجي ؟

– اسمحي لي يا سيدتي بان ابين لك وجه خطأك من هـذا القبيل فان الفتاة التي تعرضت لذكرها ليست خليلة زوجك كما تحسبين وأظن بل انا على يقين بأنها ان تكون ذات علاقة معـه إلا اذا استعمل العنف والقوة .

– إذن فهي من ذوات الفضائل اللائي يهربن من التجارب .

– لست أعتقد ياسيدتي بفضيلة بنات حواء ولا تجرحـك مني هذه الحقيقة لأني لا أقول إلا ما اعتقده ولكني أظن بان فؤاد هذه الفتاة قد تسلم الى غير رجلك .

– قل ما تعرفه وسأحكم من قولك على ما اريده .

فأخذ ساتيا يقص عليهـــا ما رآه من حادثة الآنسة برتيل واطلعها على ما سمعه من المناقشة التي دارت بين كونسيني وسجينته فأجابته اليونورا قائلة :

– ان المقاومة التي اظهرتها هذه الفتاة تثبت لي انك كنت مصيباً في ظنونك ولا ريب بانها عاشقة لولدك كما قلت لي قبـل هذه ولكن قل لي هل عرفت بما جرى هذه الليلة مـــع الملك وولدك ؟

– وكيف تريدين أن أعرف أمراً لم أعرفه ولا وقفت عليه . أعلم ذلك بان الملك قد عاد الى قصر اللوفر وهو في صحـة تامة وقد كانت امارات السرور الاتم بادية عليه ومن الغريب أنه جرى حادث يكادلا يصدق فان المركيز دي لا فارين استدعي القائد براسلين ورجال حرسه فهرولوا مسرعين من قصر اللوفر نحو الساعة العاشرة مساء ويقال انه جرت معركة في شارع الشجرة اليابسة وقد اصيب فيها الكثيرون بجراح خطيرة ومن عدادهم المركيز دي لا فارين ويقولوا أن الحاكم الأعظم قدشهد هذه المعركة ومعه خمسون جندياً .

– وهبني اخطأت في وضع خطتي أو أن الملك كان سبباً لخطئي لأنه خرج من قصر اللوفر قبل الموعد الذي حدده بذاته بساعتين ولكن قل لي من الذي دفع الحاكم الأعظم للحضور في تلك الساعة ليشهد هذه المعركة وهل لك أن تقول لي من الذي أنذره بالأمر ؟

– أنا الذي انذرت الحاكم الأعظم .

– ولما فعلت ذلك ؟

– لأني كنت أسعى الى غايتي كماتسعين الى غايتك ولكني لم أقصد معاكستك فيما تريدينه ولولا ذلك لأنذرتك .

– لقد أخطأت بارتيابي بك فقد كان يجب علي أن لا أنسى بانك لا تستطيع خيانتي فدعنا من هذا الحديث .

– اعلمي، يا سيدتي بان خطتك لم تفشل كما كنت تتوهمين بل قد تأجل تنفيذها الى حين وكوني على ثقة بان لا دخل لي في التأخير وكنت قد اتخذت كل الاحتياطات اللازمة ليصل الحاكم الأعظم متأخراً فلا يزعجك فيما تريدينه وما حبط مسعاك بسببه كما تتوهمين بل حدث من الأمور غير المنتظرة ما لا يمكن أن نواخذ على حدوثها وسأقف عليها هذا اليوم وأنبئك بما أعرفه .

هذا ما أعتقده يا سيدتي لأني على يقين بأني لا أدرك المأرب الذي أسعى اليه منذ عشرين سنة إلا بمساعدتك .

– قل لي أولاً إسم والديه ؟

– هو ابن الاميرة فوستا .

– الاميرة فوستا حفيدة السنيور أدى لوكريزيا ومزاحمه البابا سيكتوس .

– أجل هذه هي بالذات ولم توجد لعمر الحق إلا فوستا واحدة .

– لقد أدركت الآن سبب كبرياء هذا الغلام فقد ورث أخلاقه عن أمه، ومن هو أبوه ؟ لعله أمير أو ملك ؟

– بل هو نبيل لا ثروة له ولا جاه، وهو الذي عرقل مساعي الأميرة فوستا وأحبط أعمالها .

فصفقت اليونورا بيديها وصرخت قائلة باعجاب :

– باردليان .

– لقد ذكرت اسمه يا سيدتي .

وظلت اليونورا برهة صامتة وهي تفكر بأمرها وقد بدت على وجهها أمارات الاعجاب والتعطف ولم تتمكن من كتمها وكان ساتيا يراقبها بدقة ولا يفارقها بنظره فشعر بانقباض في صدره وتولاه الوجل وناجى نفسه بقوله :

– عجباً اتتفق مع الولد اكراماً واحتراماً لأمه !

ورفعت اليونورا رأسها وحدجت ساتيا ببصرها وقالت له:

– قص عليّ ما عملته معك الاميرة فوستا فلا ريب بأن حكايتك محزنة ورهيبة وأنا كثيرة التشوق لمعرفتها .

وخيل لساتيا أن ليونورا تريد الاستهزاء والسخرية به

وتنبهت ظنونه فارتاب بمحادثته ولكنه لم يظهر على وجهه شيئاً من التأثر وقال بسكينة لا مزيد عليها :

ليست حكايتي محزنة ولا رهيبة كما تتوهمين بل هي حادثة بسيطة ولكم تجدين مثلها في حياة الاميرة فوستا ؟

— كيف كانت الحال فاني ارغب الوقوف عليها .

— أمرك يا سيدتي وسأطلعك عليها ولكن هذه الحادثة آلمني كثيراً إلى درجة لا توصف لذلك استمحيك الآذن في بداية الأمر بمكاشفتك ببعض إيضاحات وجيزة ثم أقص عليك الحكاية التي تربدينها وأظنك مق وقفت على ما أردت ببيانه تشعرين بأهمية حديثي ولا ريب بأنك عندئذ توافقين على عملي وبما أنك تعرفين حكاية الأميرة فوستا فلا ريب بأنك سمعت بذكر كنوزها .

— ان هذا الكنز الشهير مدفون في دير مونتارتو ومنذ عشرين سنة لا حديث للقوم بسواه أما أنا فاعتقد أنه في غير ذلك المكان أو بالحري أنه لم يوجد قط .

— أحقاً يا سيدتي فالكنز موجود لم تمسه الايدي وأنا الضمين لك بصحة ما أقوله .

ثلاثة وثمانون مليوناً يا سيدتي ومثل هذا المبلغ العظيم إذا دخل صندوق شخص ذكي واسع المطامع يستطيع أن يفعل به العجائب ويصل الى ذروة المجد رقمة الفخار .

وهذا المبلغ العظيم عائد لجوهان الشجاع ابن الاميرة فوستا .

— أمثل هذا المبلغ الباهظ العظيم يعود الى ذلك الشقي قاطع الطرق . لا ريب بانك مجنون يا عزيزي ساتيا فان مثل هذا الشقي لا ينتظره إلا الحبل والمشنقة .

وتأوه ساتيا نفسه بقوله :

— لقد بدأت تعصف الزوبعة وستنقلب الحقد والطمع على مكارم اخلاقها كما كنت أتوقع . ثم قال :

— ما الذي طرأ عليك يا سيدتي حتى تحمست الى هذه الدرجه ؟

وهل ذكر الذهب أمر عليك فأوصلك الى هذه الحال ؟

— إذاً كنت تحسب أن الذهب يغرني و ...

— أجل يا سيدتي فأنت لا تحبين الذهب إلا لأنه آلة قوية لا تقاومها قوة في العالم فهذا الكنز العظيم الذي يسمح لحامله أن يحقق كل مطامعه مهما كانت غريبة في بابها أتيك به وأعرضه عليك .

— هل تعرف مكان هذا الكنز العظيم ؟

— كلا ولكني سأعرفه .

— إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تستبقيه لنفسك ؟

— لا غرابة يا سيدتي إذا رأيتني لا أحفل بهذا الكنز العظيم

الذي يتمنى الحصول عليه أعظم أغنياء العالم وأوسعهم سلطة وقوة ولأجله لا يتأخرون عن سفك الدم البشري .

وقد نسيت بأن أقول لك اني اطلب مقابل هـذا الكنز شيئاً ثميناً بل هو اثمن في نظري من كل كنوز العالم وإذا اقتضى لحصولي عليه سفك دمي لا اتردد قط عن سفكه .

– وما الذي تريده ؟

– اني اطلب رأساً !

– والرأس الذي تطلبه هو رأس جوهان الشجاع ؟

– أجل ولنتفاهم سيدتي في حديثنا فقـد تقولين اني لا أحتاج في قتله لمساعدة أحد .

– صدقت .

– لو أردت قتله لكان الأمر بسيطاً للغاية أما الذي ارغبه وأتمناه هو أن أرى هذا الرأس مقطوعاً بيد الجلاد .

– زدني إيضاحاً فقد نصل الى تفاهم سريع .

– أرى أن الوقت قد حان لأقص عليك مـا عملته معي الأميرة فؤستا الشهيرة وهذه الحكاية التافهة ستهمك الآن .

– تكلم فأني صاغية اليك .

– انك تعرفينني يا سيدتي منذ عدة سنوات وكنت دائماً تحسبين اني اشبه نمراً كاسراً فما قولك الآن إذا أكدت لك أن في صدر هذا الوحش الذي قد خفق فيما مضى فؤاد بشري .

ولا تستغربي مني هذا القول فهو الحقيقة التي لا مرية فيهـا فقد كنت وديعاً كالحمل وكانت صناعتي القتل بكسب معـاشي والقيام باودي ... نعم انها صناعة رهيبة ولكني لم أتعلم غيرها ولا بد لي من كسب ما تقتضيه لوازم الحياة وكنت بصرف النظر عن هذه المهنة أعيش بشرف واستقامة وفي ذلك العهد من حياتي لم أفكر بالحقد والانتقام لأن فؤادي لم يكن مشـغولاً بالغرام وكنت سعيداً للغاية .

وكان عمري وقتئذ سبعة عشر عاماً وكنت جميلاً وشجاعاً وماهراً للغاية في المبارزة على الطريقة الايطالية والفرنسـه والاسبانية وكانت مرغريتا اصغر مني بثلاثة أعوام وهي اجمل والطف فتيات فلورنسا فاحببتها حباً كاد يؤدي بي الى الجنون ومن حسن الحظ أنها كانت تبادلني هـذا الحب أيضاً ، ولكن فضيلتها كانت توازي جمالها الفتان وكنت شريفاً كما قدمت لك فلم يطل الأمر علينا حتى ارتبطنا بعهد الزيجة الشرعية .

ومرت علينا سنة شربنا فيها كؤوس السعادة مترعة فلم أكن أحيى إلا لمرغريتا زوجتي العزيزة التي كنت أحبها حبا يقارب العبادة وهي لم تكن ترى غيري في هذا العالم وبعد تمام السنة الأولى وضعت طفلة ليس اجمل منها بل هي اشبه بالملائكة فزدنا سعادة وأصبح منزلنا على حقارته كجنة الله في ارضه لأن حبنا كان يتزايد كل يوم وباولينـا الصغيرة تشرق علينا كالشمس المحيية وتناغينا بصوتها اللطيف الذي هو شبه زقزقة العصافير

فكنا نبكي ونضحك في آن واحد ونحن لا نشعر بما نعمله .

ولم يلبث أن انقلب حبنا بطفلتنا الى نوع من العبادة وبسبب هذه الطفلة العزيزة اصبحت احتقر الصناعة التي اتعاطاها فعدلت عنها بتاتا ولما كنت ماهراً للغاية في امتشاق الحسام صرت اعلم هذه الصناعة ولا ريب بأن الملاك الطاهر الذي رزقناه جلب لنا السعادة وحسن الحظ فزاد كسبي من هذه الصناعة الجديدة واشتهرت شهرة واسعة وبت اؤمل الحصول على ثروة تكفل لنا المعيشة برضاء في أيامنا وأن أتمكن من اعطاء باولينا العزيزه بائنة تليق بها متى وصلت الى سن الزواج .

وأدركت السنة الثانية والثلاثين من عمري وأشغالي تزداد نجاحا وفلاحا وقد توفقت لاكتشاف طعنة هائلة لقبتها الصاعقة ومعناها بالايطالية ساتيا وكنت لما اصرخ قائلا : أيكون ساتيا فلزمني هذا اللقب الذي اشتهرت به .

وكنا قد جمعنا شيئا من الثروة ومع الغنى تولد الطمع ولم نكن نحرك هذه العواطف إلا حبا بابنتنا وفي أحد الايام وهو يوم شؤم ولعنة رأت الاميرة فوستا ابنتنا باوليفا فاعجبتها وطلبتها منا مؤكدة لنا أنها ستكون سببا لسعادتها وتزوجها لأحد النبلاء الاشراف ...

لسوء الحظ ولفرط جنوننا أجبنا هذا الطلب .

وفي أحد الأيام ذهبت مع زوجتي مرغريتا إلى القصر لنرى

ابنتنا لأننا كنا نرتاح كثيراً لرؤيتها بملابسها المذهبة وهي تتجلى في معالم الزهو والعظمة وقد اعمى الجنون بصائرنا ولما وصلنا الى هناك رأينا ما كاد يميتنا خوفا وذعراً .

– لعلكما رأيتما رأسا مقطوعا .

– كلا بل ابصرنا مشنقة منصوبة والجلاد واقفا بسكينة قرب السلم ويده مستندة على فأسه وقد أحاط به النبلاء والاشراف والحرس والخدم ورجال السيف والخدم والحواشي من رجال ونساء والملكة واقفة بمنتهى السكينة على شرفة قصرها فتطلعنا الى كل الجهات لنرى ابنتنا ولكننا لم نشاهدها فتنهدت تنهداً دل على ارتياحي لأني لم أكن اريد أن تشهد ابنتي هذا المنظر الرهيب .

وبينما نحن كذلك رأينا رجلا مرتديا الملابس السوداء صعد على منصة عالية وتلا بصوت جهوري خطابا لم أفهم منه إلا أن الأمر يتعلق بخيانة عظمى قد تكررت عدة مرات بعد ان عفى عنها اولا وثانيا وان ما يجزي عن قريب درس رهيب لكل من يحاول الاقتداء بهذه الخيانة وأن رأساً سيقطع أمام الحضور.

وبينما نحن كذلك أشعرت كان الصاعقة وقد انقضت أمامي لأني سمعت اسم باولينا ابنتي المحبوبة وكنا قد سمعنا تلاوة الحكم الصادر باعدامها وتأكدنا بان تلك المشنقة المنصوبة كانت معدة لها وان الفأس التي كانت بيد الجلاد ستنقض عن قريب على عنقها الأبيض وتفصل رأسها عن جسدها فيذوي غض حياتنا وقد

قضى علينا سوء الطالع أن نشهد هذه النكبة العظيمة .

ـ يا للهول .

ـ وأردت الهجوم لتخليص ابنتي ولكنهم قبضوا علي ومنعوني عن كل حركة رغماً عن مقاومتي العنيفة فركعت جانباً على الأرض وأنا اتوسل واسترحم وأبكي واستعطف واتهدد وعملت الأم مثلي فأنها سقطت على الأرض وهي تنتف شعرها وتمزق وجهها بأظافرها وتتكلم بما لم استطع فهمه ولكني تحققت أن كلامها كان يلين الصخر الاشم لأن كل الذين كانوا حولنا أخذوا بالبكاء والانتحاب وطلب العفو غير ان الملكة ظلت مصممة على أوامرها باعدام ابنتي وسألتها ان تسفك دمي إذا كانت ظامئة لشرب الدم وتعفو عن ابنتي الوحيدة ولكنها رفضت طلبي وقالت هذه الملكة الكريمة القديسة .

ـ اعطوهما جثة ابنتهما ولتدفن دفناً مسيحياً وهذه هي النعمة الوحيدة التي استطيع منحها لهما .

وأثر هذا التذكار على ساتيا أشد تأثير فهطلت الدموع غزيرة من عينيه وأخذ ينتحب قائلاً :

ـ مرغريتا .. باولينا .

وسكن تأثره تدريجياً فرفع رأسه وأردف حديثه قائلاً :

ـ لست استطيع أن اصف لك كيف خرجت من ذلك المكان الجهنمي وأنا حامل جثة ابنتي الميتة وزوجتي المغمى عليها وكل ما اعرفه انه مر ثمانية أيام على تلك الام المسكينة التي

شاهدت رأس وحيدتها يقطع أمامها وهي مصابة بحمى قوية ذهبت بحياتها العزيزة وبقيت وحيداً في هذا العالم .

ـ كيف استطعت الثبات على هذه النكبات الرهيبة ؟

ـ لقد كان عندي ما هو أهم من الموت يا سيدتي .

ـ أتعني الانتقام ؟

ـ نعم فاني تركت المدرسة التي كنت فتحتها لتعليم حمل السلاح وكنت على يقين بان عملي يعرضني للخراب والهلاك ولكني لم أبال بالعواقب لأني كنت أراقب فوستا وظللت ثلاث سنوات على مراقبتها حتى انفقت كل ما كنت جمعته فعدت الى صناعتي الأولى لأتمكن من القيام باودي وفي أحد الايام من سنة ١٥٩٠ بلغني أن محكمة البابا سيكتسوس الخامس قد حكمت على فوستا بالاعدام غير ان هذا الحكم أبدل بالعفو فاصابتني حينئذ نوبة يأس كادت تقضي علي ولكني بعد بضعة أيام انتقمت انتقاماً رهيباً كاد يبيتني من فرط سروري إذ بلغني أن فوستا وضعت غلاماً وأن أحدى خادماتها قد هربت به الى باريس فتركت فوستا ولم أعد أبالي بها وأسرعت بلحاق ميرتيس الخادمة التي أخذت الطفل فادركتهما وهما في الطريق وقد رسمت في فكري خطة للانتقام من فوستا لا مثيل لها .

ـ وقد قضيت سنتين وأنا اراقب ميرتيس الخادمة والغلام ولكنها كانت تحافظ عليه أشد المحافظة بيد ان الحقد والرغبة

في الانتقام تولدان في الانسان قوة لا تخطر ببال خصوصاً إذا كان المرء مدفوعاً برغبة الثأر الشخصي وبعد سنتين تكلل صبري بالظفر فقد انتهزت فرصة مناسبة تغافلت فيها ميرتيس الطفل مرة فخطفته في الحال .

– لقد ربيت ابن فوستا يا سيدتي واعتنيت به كما اعتنيت فيما مضى بابنتي باولينا ولكن بطريقة أخرى فقد قضيت الليالي الطويلة وأنا سهران عليه كما تسهر الام الحنون على ولدها الوحيد .. وأصيب مرة بحمى شديدة فندرت النذور ليمن الله عليه بالشفاء فاستجاب طلبي وانقذه من الخطر الذي كان يهدد حياته .. لقد بلغ اليوم ابن فوستا السنة العشرين من عمره وهو شجاع باسل لا يخاف احداً ولا يرهبه أمر وهو شقي أيضاً وقاطع طرق .

ورغماً عن مزيد عنايتي به لم يتهذب كما أريد وهذا هو الأمر الذي يسوءني فانه منذ مدة صغره كان ينفر من بعض المبادىء التي كنت أريد تلقينه أياها .. لقد قلت منذ هنيهة انه تلقن مبادىء والدته وشب على اخلاقها فأريد على ذلك بقولي انه متخلق بكثير من طباع والده وعلى كل حال فاني بذلت كل مجهودي لاجعله كما أريد وما الذنب ذنبي إذا كنت لم انجح تماماً وكفاني بان جعلته الآن لصاً وقاتلاً عقوقاً على كل سلطة ولا يخضع إلا لأرادته ولا يعرف له شريعة إلا ما يسنه له هواه فهو الآن معد ليد الجلاد وكنت أرجو بان ينتهي هذه الليلة ولكن ظني قد خاب .

– لهذا السبب أخبرت الحاكم الاعظم .

– نعم يا سيدتي :

– ان ما خاب الليلة يمكن تجديده مرة ثانية .

– أخطأت يا سيدتي فان جوهان ليس من الذين يقعون في الشرك الواحد مرتين بل اني استغرب كيف استطعنا خديعته وهو قد نجا منا في الدقيقة الاخيرة .. ولست أجهل يا سيدتي بأن وجود الملك يضايقك كثيراً ولكن مهلاً فستدرك مأربك منه وليتني على يقين من تحقيق انتقامي كما انت على يقين من ادراك مأربك عن قريب .

– ما الذي تعنيه بقولك فهل عرفت شيئاً جديداً .

– كلا يا سيدتي ولو صدقت الاشاعات التي سمعتها من كل مكان فان ايام الملك اصبحت معدودة وقد قضى عليه بالهلاك ولكني أجهل بيد من يكون موته وكيف يموت وهذا السر لا يعرفه أحد من الناس أو بالحرى هم لا يبوحون لي به غير ان أن الامر الذي نحن على يقين منه أن الملك هنريكوس دي نافار لن يحي طويلا ..

– صدقت وهذه الاشاعة تتداولها كل الالسنة في كل فرصة عن موته القريب .

– كيف كان الحال فاني ساعدتك في هذه المسألة وستعد لمساعدتك حتى النهاية إذا اقتضى الامر .. وقولي لي يا سيدتي

ألم تسمعي بان منجماً قد تكهن للملك بان موته سيكون بعد أول حفلة رسمية يقيمها .

– وهل أنت من الذين يعتقدون باقوال المنجمين والسحرة .

– نعم يا سيدتي وهل أنت تنكرينها ؟

– لست أصدقها كثيراً .

أخطأت يا سيدتي فان الملك ذاته لا ينكر صحتها لذلك أبى أباء باتا أن يقيم حفلة تكريس زوجته الملكة ماريا لأنه على يقين من موته على أثر هذه الحفلة .

ولا يخفاك يا سيدتي أن الخيطة شرط أساسي للنجاح في كل الاعمال .

وما معنى قولك ؟

– انت يا سيدتي التي نلت ثقة الملكة التامة يمكنك أقناعها بان تطلب من الملك تكريسها ملكة على الفرنسيين ولا ريب بان مثل هذه الحفلة تكون شائقة وليس أبهج منها ويكون فيها تحقيق القسم الأول من النبوة أما القسم الثاني فيمكن اتمامه بقليل من المهارة والشجاعة .

– قد تكون صادقاً في قولك غير أن الملك لا يمكن اقناعه بسهولة بما لا يريده فهو إذا رفض أمراً يصر على رفضه .

ليس الأمر صعباً كما تتوهمين فقد قيل أن ما تريده الامرأة يريده الشيطان وبالاحرى الملك الذي هو غير الشيطان ولنعد في حديثنا الى جوهان فما كان أبدع مشهده لو رأيته

واقفاً في ساحة الاعدام بتهمة اعتدائه على الملك ومحاولة قتله فحقا ان مثل هذا المنظر البديع والانتقام الرائع لم يكن يخطر لي ببال وفكري يا سيدتي بما هو معد له من العذاب الرهيب . . ولسوء الحظ أن هذه المكيدة لم تفلح وهيهات أن اظفر بفرصة تكون أكثر ملائمة .

– وما الذي نويت على عمله ؟

– ليس لي من مأرب إلا أن أسوقه وأسلمه الى يد الجلاد .

– وكيف تريد تسليمه يد الجلاد وما هي الطريقة التي اعتمدتها ؟

اليك يا سيدتي الخطة الجديدة التي رسمتها فسأطلع جوهان على أثر كنوز والدته او بالحري كنوزه الخاصة لأن أمه قد تنازلت له عنها ولا يخفاك باني سأكتم عنه هذه الحقيقة فلا يعرف إلا أن الامر يتعلق بمبلغ جسيم ادفعه لسرقته ولا ريب باني سألقي صعوبة عظمى فيما أريده لأن لهذا الشاب افكاراً غريبة لا يحول عنها ولكني اتولج اقناعه بما أريده ومتى اقتنع بذلك اضمن لك أنه يتمكن مع اكتشاف الكنوز الطائلة :

وماذا يحدث بعد ذلك .

– عندئذ يبتدي دورك للمداخلة بالامر ولست ادري كيف تفعلين لاجابة مطلبي لان هذا التداخل من اختصاصاتك وأنا اضمن اليك تدبير هذه المسألة كما تريدين لتدخل هذه الكنوز الى عهدتك أما الآن وقد وقفت على سري وعرفت ما أتوخاه وكل نجاح مسعاي الى عنايتك وسيان عندي حكم عليه بتهمة

اعتداء على الملك ومحاولة قتله أو تهمة السرقة لاني لا أطلب إلا رؤيته مقتولاً بيد الجلاد .

– ولأجل الوصول الى هذه الغاية ترى أنه يجب علي بان ادفع الملكة للمداخلة بهذا الشأن ومتى فعلت ذلك اضطر لاعطائها هذا الكنز بدوري .

– ذلك أمر يعنيك يا سيدتي .

– إذا كنت لا ترى غير هذه الوسيلة لنجاح مسعاك فاعدك باستعمالها لتكون على يقين يا ساتيا بان الذهب لا يغرني .

– حقا يا سيدتي انك مثال للجود وكرم الاخلاق .

وتناولت اليونورا حقيبة مفعمة بالذهب فاعطتها لساتيا وقالت له :

– متى عزم على السعي وراء هذا الكنز تنذرني بعزمه فأمض الآن في سبيلك .

فانحنى ساتيا امامها مسلما عليها وخرج من الغرفة ولم ينبس ببنت شفة ولما أصبحت اليونورا لوحدها سندت ذراعها على طاولة صغيرة كانت قريبة منها واعتقلت رأسها بين يديها وقد شغلتها الافكار العميقة بالاسرار التي كانت وحدها واقفة عليها .

الفصل الحادي والعشرون

الورقة اللعينة

قضت السيدة كولنيكل صبيحة يومها في ملاحظة اصلاح ما تلفه المقنع ورفقائه الثلاثة الذين طرقوا منزلها .

وبعد أن أتمت عملها جلست قرب النافذة المطلة على الطريق وكانت في ذات الحين تراقب المارة لأنها كانت تعتقد ان الاعتراف هو عبارة عن مبارزة حقيقية يجب أن تخرج منها ظافرة فتنال الحل من خطاياها .

ولما قرعت الساعة الثالثة ونصف بعد الظهر رات الكاهن مقبلا من جهتها وكأن الأقدار قد سهلت عليها ما تريده فأنه وقف صدفة أمام باب منزلها فاسرعت بالنزول للقائه . ولما وصلت به الى الغرفة اجلسته على كرسي وأخذت تلاطفه وابتدرها بقوله

– لما دعوتيني أيتها السيدة المحترمة كنت اتساءل وأناجي نفسي لعل أرى شخصاً مسيحياً مؤمناً يقدم لي الضيافة أو قليلاً

من المرطبات لان الحر شديد والظمأ يكاد يقتلني فهل لا يزال عندك شيء من تلك الخمرة فقدمت له أقدم مما عندها من الخمر وأخذا يعاقرانها سوية .

ثم بدأ الكاهن يحادثها بأمور تافهة منتظراً ان تفاتحه بالموضوع الذي يهمه ولم يكن لها ذات الصبر ولا تلك المهارة بل كانت في شوق شديد إلى معرفة مـــا تضمنته تلك الورقة التي كادت تحرق جنبها ثم بادرته بملء الاسف والحزن وقالت .

اني احمد الصدف يا ابتاه التي ارسلتك إلى منزلي فقد جرت فيه بالامس امور خطيرة اود استشارتك بشأنها .

ـ تكلمي يا ابنتي العزيزة ويسرني ان اخدمـــك بمعارفي الكثيرة .

ـ الامور التي حدثت يا ابتاه في منتهى الخطورة والاهمية ولا بد من المحافظة عليها بمنتهى الكتمان .

ـ هل تودين يا ابنتي أن اسمع منك اعترافك ؟

ـ نعم . : نعم .

ـ تكلمي يا ابنتي فاني صاغ اليك .

ـ لا بد لي من اخبارك بانه حدث مصاب عظيم للفتاة التي كانت مستأجرة غرفة في منزلي وهي الفتاة التي كان يهتم بها الملك اهتماماً عظيماً فقد خطفت في الليلة الماضية .

واخذت تقص عليه حكاية خطف الآنسة برتيل وكتمت

عنه بعض التفصيلات التي تعود عليها بالمسؤولية وحورت البعض الآخر فلم تذكره الا كما يوافق صالحها وكتمت عنه انها اصغت الى الحديث الذي بين الفتاة وخاطفها

وكان كولار الكامل يصغي إلى حديثها حسب عادته ولا يقاطعها بحرف منه بل يصادق من حين إلى آخر على عملها وقولها باحناء رأسه ولما انتهت من اعترافها حاول أن يوجه اليها بعض الاسئلة لعله يتمكن من اجوبتها من معرفة الخاطف المقنع ولكن الاباحة بذلك السر لم تكن تروق العجوز الخبيثة فلم يستطع الكاهن رغماً عن دهائه من معرفة ما كانت ترغب بكتمه حق أنه اقتنع بانها لا تعرف الا ما ذكرته له .

وابتدأ عندئذ القسم المهم من الاعتراف فان العجوز طرقت الموضوع الخطير الذي كان يهمها وقالت :

بقيت مدة طويلة بعد ذهاب اولئك الاشقياء وأنا عرضه لاشد الأخطار .

ولم اعد إلى رشدي الا بعد مدة طويلة لان هذه الضربة كانت قوية على امرأة ضعيفة مثلي فلما عاد الي وعيي فكرت بان غرفة تلك الفتاة المسكينة يجب أن تكون قائمة قاعدة فصعدت اليها بغية إصلاحها وترتيبها وبينما انا كذلك فكرت بأني قد اعثر على أوراق مثبتة بها أعرف منها الشخص الذي خطف الفتاة لاني لم اتمكن من رؤية وجهه بسبب قناعه . نعم أني اخطأت بتطفلي ولكن غايتي كانت حميدة وهي خلاص الفتاة

التي عهد إلي امرها إذ لعلها تكون في أشد مواقف الضيق ونجاتها على عملي ولعلي ايضاً كنت استطيع العثور على ما يهم الملك معرفته لأنه كثير الاهتمام بها وقد جاء لزيارتها في الساعة التاسعة ليلا فهل اخطأت بعملي ايها الاب المحترم ؟

– كلا يا ابنتي لأنك كنت مدفوعة اليه بنية حسنة ومقصد صالح ولكني سمعتك تقولين أن الملك جاء لزيارتها .

– نعم يا ابتاه وقد بقي معها في غرفتها أكثر من ساعة .

– اخطأت يا ابتاه في وهمك فهذه الفتاة التي لم تكن تعرف بغير اسم برتيل اتدري من هو ابوها ؟ أنها ابنة الملك بالذات ... حقاً أن هذا الأمر لا يصدق .

– وهل أنت على ثقة تامة مما تقولينه يا ابنتي ؟

ولما رأت العجوز أمارات الشك والارتياب بادية على محيا ذلك الكاهن المحترم اخذت تقص عليه لأجل اقناعه تفاصيل ما قرأته بمذكرة بلانش دي سوجيس ثم قالت :

وقد عثرت بين هذه الأوراق على كتاب موقع عليه من الكونت دي فوبرون وهو كما لا يخفاك خطيب بلانش دي سوجيس وبه يصرح لها عن إرسال أوراق ومستندات ثمينة للغاية والظاهر إنها تدل على المكان المخبأ فيه الكنوز الطائلة التي دفنتها احد الملكات التي يسميها .. فوستا .

ورغماً عن رباطة جأش كولار الكاهن وثبات عزيمته لم يقو على التمالك فقفز من مكانه مذعوراً كأن الأفعى قد لسعته اذ لم

يكن يتوقع سماع هذه المكاشفة الخطيرة ولكنه تغلب على تأثره وعادت اليه سكينته وقال لها بلهجة الآمر :

– اعيدي قولك .. اعيديه .

– نعم أنه اسم غريب لم اسمعه في حياتي ولكني على يقين تام منه لاني حفظته جيداً في ذاكرتي .

– انمي حديثك فهل لم يكن في الكتاب غير اسم فوستا ؟

– بلى فقد قرأت فيه اسماً غريباً وهو مير .. ميرتيس .

نعم نعم هو اسم ميرتيس فقد تذكرته تماماً واسم باردليان وساتيا . ولكن ما الذي اصابك يا ابتاه فتغيرت إلى هذه الحال ؟ .. حقاً لقد اخفتني بانقلاب ملامحك ؟

– حذار يا ابنتي فان ما تقولينه خطير للغاية واعلمي أنك تخاطبين الله في هذه الساعة وهو فاحص القلوب وعارف الافكار الخفية فاجيبيني اذاً كما تجاوبين الله واياك والنكران فهل اخذت الأوراق والمستندات ؟

– واسفاه يا ابت أني لم أحصل إلا على ورقة واحدة منها كنت أود أن تترجمها لي لأنها مكتوبة بلغة غريبة .

– حسناً وأني امرك بان تطلعيني على مضمون هذه الورقة بالتمام وحذار ايتها التعسة من النكران فان خلاصك الابدي يتوقف على صحة اقرارك واقل كذب تتعمدينه يعرضك لنيران الجحيم الدائمة .

ولم تكن تلك العجوز المسكينة تتوقع هذا الانذار

Aml www. liilas.

الرهيب واخذت تتساءل لتعرف ما الذي جنته حتى استحقت الوعيد بنار جهنم الدائمة فجمد الدم في عروقها وعقل الخوف لسانها حتى كان يخنقها وادرك الكاهن أنه لا يستطيع أن يعرف منها ما يريده إذا ظلت خائفة فاراد تطمينها وتسكين هواجسها فقال لها بلطف

– لعلك ارتكبت خطيئتك عن جهل وإذا كان الامر كذلك فانت تستحقين العفو ولكنك لاتنالينه إلا إذا اطلعتيني على سرك بتمامه فتشجعي يا ابنتي وتكلمي لان الله غفور رحيم ولكن حذار أن تذكري اسما قط .

– لقد كان الكتاب منذراً بارسال الاوراق والمستندات المتعلقة بذلك الكنز وهي تدل على المكان المخبوء فيه الكنز الخاص بالملكة والذي وهبته لولدها الذي رزقته من سيد نبيل ... وجاءت بهذا الولد إلى فرنسا إحدى خادمات تلك الملكة .

– وهل جاءت الخادمة بهذا الغلام إلى فرنسا لأجل تربيته ؟

– نعم يا ابتاه ولكنه سرق منها وقد ظن الكونت أنه يعرف سارقه وهو شقي يدعى ..

– ما الذي عملته الخادمة بعد أن سرق الغلام منها ؟

– انتحرت من فرط يأسها .

– فلتحملها الشياطين أما كانت تعلم بان امنا الكنيسه المقدسة قد حرمت الانتحار وما الذي عملته قبل أن تموت .

– أخذت إلى الكونت الأوراق المتعلقة بالكنز .

– ولماذا خصت الكونت دون سواه بهذه الاوراق .

– لانه كان خادماً للملكة وهو صديق حميم لوالد الغلام .

– فهمت الآن فان الكونت كان مناطاً به حفظ هذه الاوراق لتسليمها إلى والد الغلام ولكنه انتحر أيضاً ولتحمل نفسه الشياطين وبهذه الوسيلة ظلت الاوراق عند خطيبته وهي خلفتها لابنتها .

إذن ارني قبل كل شيء تلك الورقة الجهنمية اذ لربما اكون مخطئاً في حكمي .

وكانت العجوز لا تزال جاثية على ركبتها ففتشت في جيوبها حتى عثرت على تلك الورقة اللعينة التي كادت تكون سبباً لهلاك نفسها فتناولها منها كولار الكامل بطرف اصابعه والقى عليها نظرة مريعة ثم القاها على الأرض كأن فيها نار تحرقه واخذ يقسم عليها الاقسام الرهيبة كي لا تضربه فكادت المسكينة تجن من فرط رعبها وجزعها وبعد سكوت قليل خاطبها قائلاً :

– اتعلمين ايتها الشقية من هي هذه الملكة الموهومة ؟ انها وخادمتها شيطانتان فهل فهمت كلامي .

– نعم ... نعم فرحمتك وعفوك .

– اتعرفين من هو الشقي الذي خطف الغلام ؟ أنه شيطان هارب من الجحيم .

– عفواً .. عفواً :

– اتعرفين من هو الكونت وصديقه والد الغلام المزعوم ؟ انهما هالكان قد باعا نفسيهما لهاتين الشيطانتين .

– ارحمني يا الله واعفو عني .

اتعلمين ما تتضمنه هذه الورقة ؟ أنها العقد الجهنمي المبرم بين ذلك الشقيين والشيطان .

فلم تجاوبه العجوز هذه المرة على قوله إذ كان قد أغمى عليها فهز الكاهن كتفيه وقال باستهزاء :

– سيفيدها هذا الدرس فائدة كبرى وأنا على يقين من أنها لا تحكي هذه القصة بعد الآن لأحد .

وذهب بكل سكينة فأخذ كأساً ملأى من الخمر وسكبها على وجه العجوز التي فتحت إحدى عينيها بوجل لا يوصف فقال لها بلطف :

– انهضي يا ابنتي فانا على يقين بانك لم تخطائي عمداً .

فاعادت لها هذه الكلمات سكينتها ولكن ركبتيها ظلتا ترتجفان وأخذت تنظر إلى الكاهن بعينين ملوءهما الرعب والوجل فقال لها :

– اشرعي واعطني ماء مقدساً لاطهر هذا المكان .

فهرولت العجوز إلى غرفة منامها وجاءته بما طلب فأخذ الكاهن يرش الغرفة من سائر جهاتها وسكب الباقي على رأس تلك المسكينة التي كانت لا تزال جاثية أمامه ولما انتهى من عمله

قال لها :

– أما الآن وقد عرفت عواقب عملك الذي اتيته من غير عمد ولا رؤية فحذار أن يكون عندك غير هذه الورقة .

– اقسم لك بخلاص نفسي الأبدي أني لم أخذ غير هذه الورقة .

– لقد صدقتك وأرجو بان لا تكوني قرأت الأوراق الاخرى .

– كيف اتمكن من قرأتها وهي مكتوبة بلغة اجهلها .

– صدقت يا ابنتي .

– وما الذي تريد أن تعمله بهذه الورقة الجهنمية :

– يجب حرقها في الحال .

فتراجعت العجوز مذعورة وقالت وقد ضمت يديها إلى صدرها بوجل زائد .

– الا ترى يا ابتاه أن الكاهن لوحده يستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة من غير أن يعرض نفسه للهلاك .

– فليكن بما تريدين يا ابنتي وسأحرق هذه الورقة بذاتي وزيادة للاطمئنان ساحرقها في الكنيسة واصلي بعدها الصلاة المعتادة .

فانكبت العجوز على يديه تقبلها . وهي تستفيض بالشكر والامتنان وطلبت منه بصوت متهدج أن يمنحها العفو والغفران فقال لها :

ـ لست ابخل عليك بما طلبتيه مني ولكني أرى ان واجبي يقضي علي بانذارك من الهلاك الابدي الذي لا يعود لك معه امل بالغفران إذا حاولت مرة ثانية التفتيش في هذه الاوراق .

واعلمي أيضاً بأن هلاكك يتوقف على ذكرك اسماء هؤلاء الشياطين لأنك تجهلين ايتها الشقية أنك بذكرك اسمائهم تتعرضين لظهورهم أمامك وإذا جرى ذلك وارادو أن يقودوك جبراً معهم فهل تحسبين أنك تستطيعين مقاومتهم ؟ وأني انصحك بتنامي هذه القصة إذا كنت تريدين المحافظة على خلاص نفسك .

ـ أقسم لك يا ابتاه بان انسى كل ما ذكرته لك .

ـ احسنت يا ابنتي وبذلك لا تتعرضين لهلاك نفسك .

واسرع بالخروج من المنزل ليحرق تلك الورقة الجهنمية وظلت العجوز مدة طويلة وهي عرضة لاشد التأثير والاضطراب .

الفصل الثاني والعشرون

معرفة مكان الكنز

ولم يكد كولار الكامل يبتعد عن منزل العجوز حتى أخذ بتلاوة تلك الورقة الثمينة التي تمكن من الحصول عليها بمثل تلك السهولة ؟

ولما انتهى من تلاوتها ذهب تواً إلى دير الكبوشيين ولم يلبث أن دخل الغرفة التي رأيناه فيها عند الصباح وكان لا يزال فيها كلودا كوافيفا يتحادث مع الاب جوزيف على انفراد فلما دخل عليهما ذلك العامل السري نظر الاب الكبوشي اكوافيفا نظرة استفهام فاشار عليه بالبقاء وسأل كولار الكامل بلطفة المعتاد .

ـ هل احسنت القيام بالمهمة التي عهدتها اليك ؟

ـ اجل يا سيدي وقد جئتك باخبار عظيمة الاهمية .

ـ تكلم بسرعة يا ولدي فاني صاغ اليك ؟

فاعاد كولار الكامل الحديث الذي سمعه من العجوز فاجابه اكوافيفا قائلاً :

– إذن فهذه الفتاة ابنة الملك ولكن ما لنا ولها فأن وجودها بات ثقيلاً علينا ويجب التخلص منها موقتاً .

– ليس اسهل من وجودها وانا على يقين بانها هي الفتاة التي ذهب بها جوهان الشجاع إلى قصر الدوق داندبلي ومتى انجزت حديثي يحكم سيدي بوجوب التخلص منها .

– لقد كنت على يقين بانك جئتنا بغير هذا الخبر .

– صدقت يا سيدي .

قال هذا وناوله الورقة التي اخذها من العجوز كولنيكل التي سرقتها من الفتاة المستأجرة غرفة في منزلها فاخذها منه وقرأها بامعان زائد فابرقت عيناه باشعة غريبة كانت الدليل الوحيد على التأثر الذي شعر به في ذلك الحين .

والتفت بملء السكينة إلى الأب جوزيف الذي كان يصغي إلى هذا الحديث وهو صامت واعطاه الورقة وقال له :

– لقد عزمت على أن لا اكتمك امراً ما زلت مخفياً في هذا الدير سواء انضممت إلى طغمتنا أو لم تنضم اليها لاثبت لك ثقتي التامة بك لقاء الخدمة المثلى التي قدمتها لي بسماحك في اقامتي هنا معتزلاً عن جميع الناس فخذ واقرأ هذا الكتاب واحكم بعد ذلك إذا كان يجوز الارتياب بأن العناية الهية تساعدنا .

« كنيسة الشهيد القديس » .

« الواقعة شرقي وأسفل مشنقة السيدات » .

« يحفر في أسفل السور من جهة باريس فتظهر قبة تحتها سلم ذو سبع وثلاثين درجة وهذا السلم ينتهي إلى قبو فيه مذبح وعلى بلاطة هذا المذبح رسم اثنتي عشر درجة فيجب الحفر تحت الدرجة الأخيرة التي يعلوها صليب يوناني فيظهر زر حديدي كبير يقرع عليه بشده فتنكشف حفرة إذا نبشت قليلاً وتظهر بلاطة تحتها تابوت مخبوء فيه الكنز »

وكان الاب جوزيف يقرأ هذه الكتابة بتمهل وامعان كأنه يريد أن يحفظ كل حرف منها ولا تفوت سامعي تلاوتها كلمة من كلماتها المهمة ولما انتهى منها اعاد الورقة إلى اكوافيفا وقال له :

– بقي علينا أن نتحقق إذا كانت هذه التعليمات صحيحة أو كاذبة .

فطوى اكوافيفا الورقة بمزيد الاعتناء وسأل كولار الكامل قائلاً :

– اين عثرت على هذه الورقة ؟

– إنها تتضمن يا مولاي التعليمات التي تبحث عنها منذ عشرين سنة من غير جدوى وقد كانت عند الفتاة المدعوة برتيل دي سوجيس .

– لقد ادركت الآن السبب الذي دعاك لان تطلب مني اخفاء هذه الفتاة فقص علي تفصيل حكايتك .

واخذ كولار الكامل يقص عليه تفصيل الاعتراف الذي

سمعه من العجوز كولنيكل وما سمعه منها عن الكتاب المرسل من الكونت دي فوبرون إلى خطيبته بلانش دي سوجيس ولما انتهى من حديثه فكر اكوافيفا قليلا وقال :

ـ أن ما سمعته منك يدعوني لتحوير الخطة التي كنت قد رسمتها فالآن صرنا نعرف اين نجد الكنز وصار من صالحنا أن لا يعرف باردليان ابنه وهذه الفتاة تعرت الحكاية من اولها إلى آخرها بتفصيلاتها التامة وقد صارت ذات علاقة مع الولد وابيه فاذا جمعت الاقدار هؤلاء الاشخاص الثلاثة وذكر أمامهم عفواً اسم ساتيا يظهر في الحال سر مولد جوهان الشجاع وهو مما يقضي علينا أن نحاذره بكل الوسائل ويجب أن يختفي هذا الشاب ولا يعود للظهور فاصغ إلى ما أقوله لك :

وتكلم اكوافيفا طويلاً وكان كولار الكامل والاب جوزيف يصغيان إلى أوامره بمزيد الاهتمام والاحترام .

*

ننقل القراء الكرام في مساء ذات اليوم إلى غرفة واسعة يدخل اليها النور من نافذتين عاليتين وهي انيقة الرياش فاخرة الامتعه الثمينة فيها مكتبة حوت انفس الكتب الخطية واندرها وهي مجلدة تجليداً مذهباً وفي وسطها طاولة تكدست عليها الاوراق والمحابر وفي جدرانها كثير من الاسلحة المختلفة الاجناس حق ليحتار الداخل إليها إذا كان صاحبها رجل علم

أو صاحب ثروة ام هو من المولعين بامتشاق الحسام ولم يكن فيها اثار التدين غير أن الامر الذي لا مرية فيه أن صاحب تلك الغرفة هو سيد عظيم .

ولا بد لنا أن نأتي على وصف هذا الرجل لعلنا نتوصل إلى معرفه مركزه في الهيئة الاجتماعية فهو شاب في مقتبل العمر لا يتجاوز السنة العشرين من عمره اصفر اللون صغير الشارب حديد البصر تدل ملامحه على الشدة والقسوة وكان في تلك الساعة يتمشى في الغرفة ذهاباً واياباً وهو مرفوع الرأس شامخ الأنف وعليه ثياب من المخمل الازرق موشاة بالحرير والذهب والفضة وفي رجليه حذاء آن لامعان فيهما مهازان من ذهب وعلى جنبه سيف طويل صقيل .

وكان هذا السيد يدعى ارمان دي بلاسيس دي ريشيلو الذي أصبح منذ ثمانية اشهر اسقفاً على لوسون وهو لم يبلغ السنة الثالثة والعشرين من عمره .

دخل غرفته احد الخدم وهمس بعض كلمات فابرقت عينا ريشليو باشعة غريبة وبدت عليه امارات السرور وقال :

ـ دعه يدخل .

وكان الداخل إحد الرهبان الكبوشيين فانحنى بوقار لا مزيد عليه امام الأسقف مسلماً عليه .

ولم يكن الراهب الا الجندي القديم الباسل فرنسوا لوكليرك دي تراميلاي الذي اشتهر منذ عشرين سنة بشجاعته الفائقة

www.liilas.com Ami

وبسالته النادرة في حصار اميانس بعد أن دافع عنها دافاع لا مثيل له وهو ذلك الصفي القديم الذي عرفناه باسم البارون دي مافييرس الذي هجر مهنة السلاح وترك مستقبله غير آسف عليه ليذهب وينزوي في أحد اديرة أورليان وتكنى باسم الأب جوزيف وقد تدرج في المراتب العالمية حتى صار يتوقع أن يصير رئيسا للطغمة الكبوشيين .

وبعد أن تبادلا التحية والسلام جلس الراهب الكبوشي على الكرسي التي قدمها له الاسقف الشاب فسأله قائلا :

ـ هل من احد يستطيع سماع حديثنا !

فقام الاسقف وقفل باب الغرفة الخارجية وعاد فجلس في مكانه وقال :

ـ الآن صرنا في مأمن من الرقيب فلا يسمعنا احد .

فتأمله الراهب برهة كانه يريد استطلاع افكاره وقال له :

ـ هل علمت بأن الملك لن يعيش طويلا ؟

فعاد ريشيلو إلى العبوسة وقطب حاجبيه وقال بصوت اجش :

ـ اجل تلك اشاعة قد تداولها الكثيرون والملك لا يأتي عملا لمنعها بل بالعكس يظهر أنه مقتنع بصحتها اكثر من سواه وهو مع ذلك ممتلىء قوة وعافية ولست ادري .

ـ لقد حكم عليه بالموت ولا توجد قوة بشرية تستطيع

تخليصه من هذا الحكم !

فارتجف ريشليو لسماعه هـذا القول ولاحظ الكبوشي ارتجافه فقال له بسكينة لا مزيد عليها .

وبعد قليل أي بعد انقضاء حياته بمدة شهور تصبح ماري دي ميدسيس ملكة فرنسا وكل المتقربين اليها في الوقت الحاضر ينالون منها حينذاك ما يتمنونه من النعم ومن كان اكثرهم مهارة في التقرب والتزلف كان اجدرهم بالترقي والرفعة فهل فكرت بالمركز الرفيع السامي الذي سيناله ذلك الايطالي الخبيث المدعو كونسيني وهل لاحظت انهم يتزلفون إلى ولي النعم .

فابدى الأسقف إشارة مبهمة من يده وقد كان ينتظر من الراهب أن يوضح افكاره بجلاء فسأله قائلا :

ـ لماذا لا تسعى حتى الآن يا ريشليو لاكتساب رضاء ام الملك .

وكانت لهجته تدل على أنه مقتنع كل الاقتناع بصحة ما يقوله فارتجف الأسقف الشاب لسماعه هذا السؤال ولكنه تغلب سريعاً على عواطفه وقال :

ـ لست أفكر وحقك بغير هذا الامر غير أني لا اجد وسيلة لادراك مارمي فاني لا ازال صغير السن ولم ابلغ بعد الخامسة والعشرين من عمري فكيف استطيع مقابلة ام الملك ! نعم أن كبر السن ليس من الشروط التي يقتضيها الذكاء الواسع والامال الكبيرة .

وسكن ثائره فجأة واتم حديثه بلهجة دلت على اليأس .

– كونسيني ... نعم اني بواسطته استطيع الوصول إلى الملكة ولكن يشترط لذلك أن اتمكن من خدمة مهمة له وحتى الآن لم نسنح لي الظروف بهذه النعمة .

– قل لي ما هو المركز الذي تطمع في الحصول عليه عند الملكة !

– لو كنت مرشدها على الأقل لتمكنت من الحصول على باقي ما اطمع فيه بكل سهولة .

– اعلم يا ريشليو باني جئتك بهذه الوظيفة فلا تقنط فتأمله طويلا بثبات ثم سأله فجأة :

– ما الذي يجب علي عمله !

* *

الفصل الثالث والعشرون

المساومة على الكنز

في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم الثاني وقفت عربة اسقف دي لوسون في شارع سانت هونوري امام منزل كونسيني في الساعة التي ترك فيها بيته ليذهب إلى قصر اللوفر .

وبدا على الاسقف الاستياء الشديد لهذه المعاكسة لأن المهمة التي جاء لاجلها كانت كثيرة الخطورة والاهمية لا تقبل تأجيلا فطلب مقابلة زوجته في الحال .

ولم يكن ريشليو احد اصدقاء كونسيني وقد تقابلا قبل الآن اكثر من مرة في البلاط الملكي وكان الاسقف الشاب يسعى على حماية احد الكبار ليتمكن بمساعدته من الصعود على الدرجة الأولى من سلم الحياة السامية فوقع اختياره على كونسيني وزوجته السيدة اليونورا غاليكاني .

ورأى بعد حين أن كونسيني لا يمكن أن يكون الحامي

المرغوب فيه إذ لم تكن له القوة اللازمة ولكنه تحقق بحسن فراسته إن زوجته اليونورا كانت تمثل القوة التي يحب رهبتها والعقل الذي يديرها اما زوجها فلم يكن الا الذراع العامل ولكنه من عظم فطنته وسمو مداركه عزم على مداراة نديمي الملكة والتقرب منهما على أن لا يترك احداً من المقربين إلى الملك يشعر بامره ولا يخفي ما في هذا العمل من الصعوبة والخطر .

ولا يخفى أن البلاط الملوكي يشبه بحالته ارضاملغومة يقتضي على السائر فيها أن يكون كثير الحذر واليقظة لان كل خطوة منه تعرضه لانفجار اللغوم الهائلة تحت قدميه فتذهب به وبكل الذين يكونون حوله .

ويستحيل على المرء أن يعيش في ذلك الوسط منفرداً إلا إذا فصل الذهب من حيث اتى .

وقد حاول ريشليو القيام بعمل لا يمكن تحقيقه في الظاهر ونجح في مهمته لأنه اهمل المخابرة مع كونسيني ولم يهتم بغير زوجته اليونورا واسفرت تلك المخابرات عن النتيجة الاتية .

لما أخذت تروج الاشاعات عن قرب موت الملك اخذ مركز كونسيني ينجلي ويبشر بمستقبل باهر وكانت اليونورا اشبه بقائد كبير يريد استعراض جيوشه ليتأكد من القوات التي يستطيع الاعتماد عليها قبل أن يشهد الموقعة النهائية فاعدت قائمة باسماء كل اصدقائها الذين يستطيع الاعتماد على نصرتهم وقت الحاجة وكتبت في مقابل هؤلاء اسماء اعدائها العديدين .

ولما وصلت إلى اسم ريشليو ترددت قليلا وناجت نفسها بقولها :

– هذا الرجل ليس من حزبي ولكنه سيصير منه إذا اردت ومتى احببت .

وكان وصول ريشليو إلى منزلها في ساعة ملائمة وكان الاقدار سهلت مجيئه حين غياب زوجها وهو إنما كان بفضل المخابرة معها مباشرة ولم تكد تسمع خبر مجيئه لزيارتها حتى امرت خادمها بسرعة ادخاله إلى غرفتها وكان لا يزال مرتدياً ثيابه الحملية الزرقاء فاثر منظره تأثيراً حسناً على اليونورا التي كانت تراقبه بدقتها المعهودة .

وبعد أن تبادلا التحية والسلام قال لها الاسقف بلطف زائد

– لم اطلب يا سيدتي نعمة مقابلتك على انفراد الا لأني اريد مكاشفتك بامر خطير يهم جلالة الملكة اهمية عظمى .

– لو لم اكن اقدرك حق قدرك يا سيدي الاسقف لكنت سألتك عن السبب الذي دعاك لمقابلتي إذا كان الامر الذي تريد مكاشفتي به يهم جلالة الملك .

– أن ما تكرمت به سيدتي من اظهار عواطف احترامها لشخصي الحقير لا يمكن ان تشعر به جلالة الملكة .

ومعاذ الله أن أجسر على رفع صوتي على مليكتي المعظمة بل سأكون ما حييت من اخلص خدمها وستتأكدين صدق قولي من المهمة الخطيرة التي جئتك بها ولست ادري إذا كنت تقولين

عني رجل ذكاء وفطنة غير اني اشعر في رأسي وفؤادي من العواطف والافكار ما لا يشعر بها غيري من الناس ويسوءني كثيراً ان ابقى مجهولاً لاني لسوء الحظ لم اتجاوز السنة الخامسة والعشرين من عمري .

ولا ريب بانك ستجدين عملي غير متناسب مع وظيفتي اذ لا يحدر بي وانا من رجال الكنيسة ان اعلم مبادىء الكيرياء ولكني أسألك التمهل بحكمك إلى أن تسمعي تتمة حديثي فقد قلت لك اني لا استطيع مقابلة جلالة الملكة فجئت اليك توأ لوثوقي في اخلاصك وتعلقك بشخص جلالتها .

فهل سمعت يا سيدتي قبل الآن بذكر كنز دفنته منذ عشرين سنة اميرة ايطالية تدعى الاميرة فوستا ؟

– اتصدق يا سيدي الآسقف مثل هذه الاكاذيب !

– اخطأت يا سيدتي فان الكنز موجود وانا لا اجهل الدليل الساطع على صحة ما اقوله :

– إذا سلمت جدلاً بما تقول فقد مرت على هذا الكنز مدة طويلة ولا ريب بانه لم يبق في مكانه حتى الآن .

– كلا يا سيدتي بل هو لا يزال في المكان الذي خبأته فيه صاحبته الاميرة فوستا .

هبك صادقاً في هذا القول فاين هو وكيف تستطيع العثور عليه إلا إذا قلبنا باريس وضواحيها رأساً على عقب بالتفتيش عليه وهو امر يستحيل تحقيقه .

– أني أعرف المكان المدفون فيه هذا الكنز .

– أنك تعرف مكانه !

– نعم يا سيدتي فقد حصلت على تعليمات بهذا الشأن ليس اصرح منها وبواسطتها امكن من اكتشاف ذلك الكنز العظيم ولا يبقى علينا لاجل اكتشافه الا العمل الذي يتوقف عليه كثرة نفقاته أو قلتها وعلى حسن الحظ والتوفيق ولكن النتيجة ستكلل بالنجاح ولا بد من الحصول عليه عاجلاً أو آجلا وقد جئتك بهذه التعليمات وليس لي من غاية الا تسليمها لجلالة الملكة.

وبينما هو يتكلم اخرج من جيبه ورقة مطوية اربع طيات وقدمها إلى اليونورا التي كادت تجن من فرط دهشتها واندهاشها ولكنها كانت سريعة التقلب على عواطفها فتمالكت روعها في الحال واخذت منه الورقة وفتحتها وقرأتها بامعان زائد حتى انت على اخرها .

وكانت هذه الورقة نسخة مترجمة إلى اللغة الفرنسية عن الورقة التي قرأها الأب جوزيف باللغة اللاتينية إلى اكوافيفا وكولار الكاهل وكانت ترجمتها دقيقة للغاية لم يدخل عليه ادنى تحوير او تغيير

واخذت اليونورا تفكر في امرها وهي تقرأ الورقة فتسأل عن كيفية وصولها إلى يد الاسقف وسبب تسليمه اليها دون سواها ولم تكن تصدق أنه فعل ذلك مدفوعاً بعامل الاخلاص للملكة بل ودت أن تعرف الثمن الباهظ الذي سيطلبه منها لقاء

هذا التسلم وقد توادرت الاسئلة بكثرة إلى مخيلتها وبعد برهة قالت له بسكينة :

– حقاً أن هذه التعليمات صريحة للغاية ولكني ارجوك أن تخبرني عن كيفية وصولها اليك .

– لا تهتمي بهذا الامر يا سيدتي وكفاك أن ما اعطيك إياه كثير الصراحة والوضوح ولا اظنك تهتمين بغير هذا الامر .

– صدقت ولكن هذا الكنز لا يخصنا فبأي حق نستطيع الاستيلاء عليه وإذا فعلنا ذلك الا يعد عملنا ضرباً من السرقة !

– أني يا سيدتي كاهن قبل كل شيء ولا استطيع أن اقدم نصيحة شريرة لاي كان ولذا شئت اقول لك أني نبيل وليس في استطاعتي القيام بعمل سافل . كلا يا سيدتي فان هذا الكنز اصبح يخص جلالة الملك بحق وضع اليد لأنه قد مر عليه عشرون سنة وهو مخبوء في املاكه وقد ماتت الاميرة قومتا أو بالحري اختفى اثرها وهي واسعة الثروة إلى درجة لا تصدق فلا تبالي بهذه الملايين التي خبأتها وتركتها واذا على يقين من ذلك وقد خلفت هذه الكنوز لولدها وهو قد خطف أو سرق أو ضاع منذ كان صغيراً في المهد فلم يعد له من اثر واصبح هذا المال بحكم الضرورة عائداً لجلالة الملك وأنا الشخص الذي أعرف مقره وقد جئت لاطلعكم على مقره فيحق لي أن اطلب حصتي منه وأظن أن طالي عادل فلا تعترض عليه سيدتي .

ولست أنكر أن مليكنا المعظم هو في مقدمة الملوك مجداً

وعظمة ولكنه في ذات الوقت زوج المليكة فاضلة والحق يقضي علي بان اجاهر لك بأنه زوج شرير وأنت تعرفين هذا الحقيقة اكثر من الجميع لأنك صديقة وندية مليكتنا البائسة وقد شهدت العذابات والاهانات التي تتحملها كل يوم فهل لم يتمزق فؤادك شفقة وحنانا عليها حين رؤيتك هذا العذاب المستمر الدائم الذي تتكبده مليكتنا المحبوبة .. اليس من العار على الوطن أن تكون المليكة التي يجب أن تبقى ابداً مظهراً للاكرام والاحترام عرضه للاهانة والاحتقار وأن تحرم من كل شيء لتتمتع خليلات الملك بالانعام ويبذرن الذهب من غير حساب .. قولي لي بربك يا سيدتي اليس من العار علينا أن نرى مليكتنا محرومة من كل شيء تشتهيه وخليلاته يتداخلن في شؤون المملكة وفقاً لاهوائهن ويحضرون المجالس العمومية والنيابية ويتصرفن في الرعايا تصرف الحاكم المطلق .

وسكت برهة كأنه يريد تسكين تأثره ثم عاود كلامه بلهجة حزينة .

اني وايم الحق أشعر بتمزق في فؤادي حين أرى مثل هذ المنظر المؤلم المحزن لذلك أقول أني سأعمل لجلالة الملكة ما تفرضه علي واجباتي كرجل نبيل وخادم أمين ولكن لا توجد قوة في العالم تحول بيني وبين ما يطلب مني من واجبات الاخلاص والاحترام لجلالة مليكتي المتروكة والمهانة والمعذبة من زوجها المعظم .

– كن على يقين يا سيدي الاسقف بان جلالة الملكة ستقف عن قريب على عواطف اخلاصك وولائك لها .

– أرجو بأن جلالة الملكة أن تتنازل فتقبل ما اعرضه عليها وعلى كل حال أرى من الواجب أن ابلغك بعض تعليمات عن الثلاثة والثمانين مليونا التي أريد تقديمها .

– تكلم يا سيدي فأني صاغية اليك .

– لقد شرفتني يا سيدتي بسؤالك اياي عن كيفية وصول هذه الورقة الي وقلت لك وقتئذ أن هذا الامر قليل الاهمية في حد ذاته والآن أرى أن لا بد لي من تبليغك الحقيقة بتمامها لان الواجب يقضي باطلاعك على هذا الامر فالورقة الثمينة التي اعطيك اياهـا كانت تخص فتاة تدعى الآنسة برتيل دي سوجيس .

– برتيل .. اني اعرف هذا الاسم لكن اسم سوجيس لم اسمع به قبل الآن فمن هي هذه الفتاة

– هي التي كانت تقطن في شارع الشجرة اليابسة وتهتم بها رجال البلاط اهتماماً عظيماً لان الملك كان مغرماً بها وسوجيس اسم عائلتها وهو سر لم يعرفه أحد سواي . وأزيدك علماً بأنني وضعت هذه الفتاة في مكان أمين .

– بربك ما الذي تقوله يا سيدي ؟

– نعم هي مسجونة في دير راهبات مونتارتر ولست ابالغ لك إذا اكدت بأنه يجوز أعتبارها كائنة في ذلك الدير .

– حمداً لله .. واما أنت أيها الاسقف فكن في راحة بال من امرها وأمر عاشقها الشجاع ولنتكلم عنك الآن فانك قدمت لجلالة الملكة خدمة لا يمكن أن تنساها فما الذي تطلبه منها لقاء هذه الخدمة السامية ؟

– مقصدي الوحيد وغاية سؤلي أن اكون مرشد جلالتها .

– اهذا كل ما تطلبه ؟

– نعم يا سيدتي فاني قليل الطمع واعـد ذاتي سعيداً إذا تمكنت من الحصول على هذا المركز الرفيع .

– حسناً فعندما اسلم هذه الورقة لجلالة الملكة اطلب منها التوقيع على الامر بتعينك في المنصب الذي أردته ومنذ الآن صرت اعتبرك مرشداً لجلالتها وليس اسقفاً عاديا ..

فالمحنى ريشليو وقبل يد اليونورا قبلة ضمنها كل عـواطف شكره وامتنانه .

الفصل الرابع والعشرون

سقوط جوهان بالشرك

ترك جوهان الشجاع كونسيني وهو غير حذر منه على الاطلاق وقد كان لاحظ من قبل أن نديم الملكة يلاحقه ويترصدة عن قرب ولكنه لم يخطر له في بال انه سيخونه خيانة سافلة تحط من مقام النبلاء .

ولما شعر بأن الارض تميل تحت قدميه بسط ذراعيه ولفرط دهشته صرخ صوتاً عالياً فسقط إلى الاسفل بشدة ولكنه لم يصب باذى غير أنه ظل برهة مذهولاً ثم انتصب واقفاً وزمجر قائلاً بالإيطالية :

– تعال يا جبان إلى هنا إذا جسرت لا تناول فؤادك من صدرك وامعائك من احشائك ولكنك خسيس جبان لا تجسر على الوقوف امامي .

وكان جوهان الشجاع قد تعلم اللغة الايطالية من سانيا مربيه فاصبح يحسنها كما يحسن اللغة الفرنسية وقد تعمد اهانة كونسيني بالايطالية لأنه ايطالي الاصل .

ولم يلبث بعد قليل أن تأكد أن الصدى وحده هو الذي يعيد شتائمه وتهديداته فالتزم الصمت وكان في ظلام دامس وبسبب سقوطه افلتت من يده العلبة التي كانت معه فاهتم بها قبل كل شيء وأخذ يحس عليها الارض إلى أن عثر عليها بسهولة فرآها قد فتحت وما كان فيها من الاوراق تكدس بجانبها وعلى مقربة منها فوضع كل شيء في مكانه .

وقاس المكان الذي هو فيه على جنح الظلام الدامس فرآه عبارة عن خمسة أقدام صغيرة طولاً واربعة عرضاً وليس فيه فتحة أو منفذ صغير يدخل منه النور أو يتخلله الهواء .

وظل على هذه الحالة في البحث والتنقيب إلى أن اكتشف بعد الجهد الطويل على قباب حديدي مصفح بالمسامير الضخمة وليس له مزقفل داخلي وقضى ليلته ساهراً تتنازعه الهواجس والأفكار وأخذ التعب والجوع والعطش يؤثر عليه ثم مد رداءه في احد الزوايا على البلاط البارد ولم تمر عليه خمس دقائق حتى اخذ يغط غطيطاً عالياً .

الفصل الخامس والعشرون

محاولة قتل جوهان الشجاع

عاد كونسيني الى منزله قبل زوجته اليونورا بمدة طويلة وتمكن من النوم ساعتين بملء الراحة فزال كل اثر من التعب .

وكان قد قضى نهاره حذراً مترقباً أن يسمع من زوجته تعنيفاً وتقريعاً وانذاراً باطلاعها على سره ولكنها لم تفاتحه بشيء من هذا القبيل بل ظلت ملتزمة السكينة المعتادة فارتاح باله وأطمأن خاطره وتأكد بانها غير مطلعة على شيء من عمله

وفكر بامر جوهان الشجاع وأنه في تلك الساعة سجين داخل القبو الذي طرحه فيه وبعد أن اطال افتكاره وطد عزمه على الذهاب اليه لرؤيته فيشفي فؤاده منه .

وبعد أن تناول طعام الظهر حمل قنديلاً صغيراً وذهب إلى خصمه الذي لم يكد يقع نظره عليه إلا وفاجأه قائلاً :

— أيه يا كونسيني ما الذي تعمله هناك ولماذا لا تنزل إلى هنا أنك فطن يا كونسيني كما تدل عليك اعمالك ولست تظهر

بسالتك الا امام فتاة ضعيفة لا حول لها ولا طول للدفاع عن نفسها وليتك تكتفي بعملك فانك تجند عدداً كبيراً من الخدم لحراستك من شرها واذاها . فالويل لك ايها الكلب الاجرب .

رويدك يا كونسيني فان الخوف قد اضل صوابك فما الذي جئت تريده في هذا المكان ؟ هل حسبت أنك تلقاني فيه جزعاً وجلا واتيت لتروي غليل فؤادك برأى ثمرة انتقامك ؟ تكلم . قل ولا تخف فانت على يقين بانني لا استطيع أن أنالك من المكان الذي أنت فيه :

واعادت هذه الكلمات كونسيني إلى شعوره بالحقيقة فكظم الغيظ الذي كان يغطي مراجله في صدره وقال :

— اعلم بانك ستموت في هذا المكان جوعاً وعطشاً .

فضرب جوهان يده على قبضة سيفه وقال بتهكم نعم إذا اردت .

— لقد ادركت ما تريده ولكني القي بين يديك كرة صغيرة تنفجر بلا صوت ولا حركة فتستغرق في النوم العميق ولا تعود تشعر بشيء فانزع منك سلاحك وأكرهك على أن تموت الموتة التي أريدها .

وبعد أن سكت قليلا عاود حديثه بتهمل .

— إن موت الجوع والعطش لهو موت فظيع بل هو عذاب ليس افظع منه اذ يطول فيه النزاع إلى إيام كثيرة بل الى عدة اسابيع وأنت بحمد الله لا تزال في مقتبل العمر وقوة الشباب

وتستطيع احتمال هذا العذاب عشرين يوماً أو تزيد ففكر بالعذاب الذي أعددته لك وأعلم بأن القليل منه يكفي لان يصير المرء مجنوناً وكم من الذين اصيبوا به كانوا يفترسون اعضاءهم من فرط جوعهم ولا ينالها الا العذاب والالم فهذا هو العقاب الذي اعددته لك يا جوهان الشجاع ولكني لست شريراً كما تخالني ولا اتخلى عنك سأحضر لزيارتك من حين إلى آخر لاتحقق الحالة التي تصل اليها فماقولك بذلك ؟ ثم أردف حديثه قائلا :

– اصغ لما اقوله يا جوهان واعلم بانك إذا اردت أن تخرج من هذا المكان حراً طليقاً ، انزل بذاتي لافتح لك باب سجنك واقودك إلى الخارج وأجعلك غنياً عظيماً فاعطيك خمسين الف ذهب ... أني اعرض عليك الحرية والثروة إذا شئت مجاوبتي على سؤال أوجهه اليك .

– متى اجبتك على سؤالك تنسى وعدك لي فلا تأتي لتفتح باب سجني وتخلصني منه .

– لا اطلب منك الجواب على سؤالي الا بعد أن تعادلك حريتك وتحصل على الثروة التي وعدتك بها

– وما يدريك اني متى صرت حراً طليقاً واخذت مالك لا انصرف قبل مجاوبتك على سؤالك .

– تعدني قبل خروجك من هذا السجن بان تجاوبني على سؤالي فاصدق قولك لي بك الثقة التامة .

– هات سؤالك لنراه .

– قل لي أين اخفيت الفتاة الحسناء .

– اهذا ما تريد معرفته فقط !

– نعم ولقاء ذلك اطلق لك حريتك واجعلك غنياً فتكلم حالاً واجبني على سؤالي .

– لك يا كونسيني جواسيس في كل مكان يطلعونك على كل ما يحصل ولا ريب بانهم اخبروك أن الملك رفض ليلة امس الحرس الذي قدمه لجلالته القائد براسلين وابى مرافقة الحاكم الاعظم وفضل التنزه بسكينة مع شخصين غريبين لم يكن رآهما من قبل .

– فأني اسألك عنهما وأريد معرفة مقرهما ولو ...

– اعلم يا كونسيني بأني أحد هذين الرجلين .

– أتريد يا جوهان مجاوبتي على سؤالي ؟

– لقد أراد الملك أن يعرف الذي دعاني لمنازلته وقد كدت اقتله وقتئذ وانا على يقين يا كونسيني بانك تجهل هذا الامر وأني نازلت جلالة الملك الذي سألني .

فقلت له بأني تبلغت سراً أن شخصاً يحاول الدخول خلسة إلى منزل الفتاة التي احبها .

واراد الملك أن يعرف من الذي بلغني هذا الانذار فقلت له أني لم أتعود على خيانة اصدقائي ولا يخفاك أن جلالة الملك ذو مبادىء سامية وعواطف كريمة فصادق على قولي ولم يلح علي

بالسؤال .

– ويحك ايها الشقي هل حسبت اني جئت إلى هنا لسماع اقوالك الكاذبة .

– مهلاً وستتأكد عن قريب أن الامر يهمك اكثر مما كنت تتوقعه فان جلالة الملك قدر عملي حق قدره حتى تنازل لتشريفي بالاكرام .

– أنت .. أنت ! ..

– نعم ولا تعجب في ذلك فقد تنازل ايضاً ليمنحني رخصة لمقابلة جلالته مقابلة خاصة في الغد وسيحضر هذه المقابلة رفيقي المجهول فلا تنس هذا الامر يا كونسيني لأنه في المقام الاول عند الملك .

– وما الذي يهمني من هذا كله وسيان لدي قابلت الملك أولم تقابله أما أنت فكن على يقين بان الملك متى وقف على حقيقة أمرك يتأكد بان الجلاد هو الشخص الوحيد الجدير بالاهتمام بك .

– اعلم يا كونشيني أن رفيقي يعلم علم اليقين بأني لا اتخلف قط عن مقابلة جلالة الملك لأن عليها تتوقف سعادتي في المستقبل فاذا تاخرت عن الحضور في الساعة المعينة يذهب إلى الملك ويقول له أن الشاب الذي نازل جلالتك في الليلة الماضية مرسل اليك من كونسيني النبيل وزوجته الحسناء لانهما يريدان موتك والتخلص منك ولما لم ينفذ لهما مأربهما السافل أرادا

الانتقام منه فقتلاه أو طرحاه في سجن عميق ولولا ذلك لما تأخر عن الحضور ولا ريب أن جلالة الملك يصدق قوله .

– وهل جسرت على هذا العمل ؟

– قلت لك اني كنت حذراً منك وقد تحققت ظنوني .

– كذبت .. كذبت فان الملك لا يصدق هذه الاقاويل

– بل يصدقه لما يسمع شهود وادلة .

– وهل عندك من شهود وادلة ؟

– أجل وهي التي تكرمت بتقديمها لي كما يفعل سائر الجبناء الذين لا اخلاق لهم فمن الذي اجبرك للقول باني سجنت وقبض علي بتهمة محاولتي قتل الملك في الساعة التي كنت اتمشى فيها بسكينة مع جلالته وإذا حاولت النكران يا كونسيني فان كرنكايل واسكوكاس وكركان الذين انذرتهم بالامر يشهدون على اعترافك بهذا الأمر وستقر الفتاة بما سمعته منك أيضاً لان هذه هي الحقيقة الراهنة فهل تحققت الآن أني اتخذت احتياطاتي اللازمة ؟

وسيقبض عليك يا كونسيني كما يقبض على زوجتك الحسناء ولا تعود الملكة وهي حاميتك السامية تستطيع أن تمد لكما يد المساعدة بل تعتبر ذاتها بمنتهى السعادة إذا تمكنت من الخلاص بسهولة من هذا المأزق الحرج .

– سننكر الامر كل النكران ونثبت كذلك بالبرهان .

– انسيت يا كونسيني أننا نكون ستة اشخاص لاتهامك

www.liilas.com

ربما أن الجهل اضل صوابك فانك نسيت الاستجواب الهائل الرهيب الذي يطلق اشد الالسنة كتماناً .

تصور ايها الاحمق موقفك الهائل حين تؤخذ للاستجواب الرهيب فتربط بذلك الدولاب الذي لا يسطيع اشد الرجال قوة واقتداراً احتمال اكثر من دورتين منه فتشعر بتكسر عظامك وتمزيق لحمك فتنادي طالباً التوقف عن تعذيبك لتبوح بسرك ولكنك لما تعترف به تؤخذ من العذاب الى الموت وقبل ذلك تقطع قبضة يدك لانهم يقيدونها قبل وضعك على الدولاب بقيد حديدي محمى إلى درجة البياض ويسكب الجلاد في جراحك الدامية زيتاً حامياً ورصاصاً مذاباً .

اما انا فلست اطلب شيئاً ولا أسألك القيام بما لا تستطيعه وقد اكتفيت بانذارك عما يصيبك إذا لم اكن حراً في غدي وما بقي من الأمر فهو من شؤونك الخاصة .

وكاد كونستيني يفتح فمه ليبلغه عفوه عنه وأنه أصبح حراً طليقاً ولكنه تحير في الحال بيد لطيفة توضع على كتفه فانتصب واقفاً وقد وقف شعر رأسه من فرط ذعره ووضع يده على قبضة سيفه ليفتك بالطفيلي الذي سمع منه هذا الحديث ولكنه ابصر زوجته اليونورا واقفة على مقربة منه وهي تحدجه بعينيها السوداوتين فصرخ بها قائلاً :

– أنت كنت هنا ؟ .. كيف دخلت هذا المكان ومن الذي أطلعك على سري ؟

– لقد سمعت كل الحديث فما الذي نويت على عمله ؟

– إذا كنت سمعتي كل الحديث فكيف تسألينني عما أريد عمله وهل بقي علي إلا أن افتح السجن لهذا اللئيم واتركه حراً طليقاً فهو الآن هتغلب علينا .

– حذار أن تفعل ذلك .

– لقد جننت ياليونورا الم تسمعي تهديده لي ؟

– بلى وأني احذرك من الاقدام على ما نويت عليه .

– أرى أنك ستكونين سبباً لهلاكنا .

– اخطأت فاني اعمل لخلاصك وما عليك الا أن تنفذ الاوامر التي اصدرها لك .

– وإذا خطر بباله ...

– وهل نسيت الكرتين الصغيرتين .

فابدى كونستيني برأسه إشارة مؤداها أنه فهم ما تريده منه وتناول من جيبه كرتين صغيرتين القاهما في غيابة السجن وقال بتزيد الهدوء .

يا لك من أحمق مسكين فقد حسبت أنك تخيفني بهذه الحكاية الملفقة فدع رفيقك الموهوم يقول للملك ما يريده فذلك امر لا يهمني لاني برىء وفي استطاعتي اثبات براءتي متى اردت وإذا كنت في ريب من كلامي فاعلم بأني لن أعيد لك الحرية التي توهمت الحصول عليها وقد راق لي أن اجعلك تتصور اعتقادي بصحة كلامي لاقف منك على غايتك الحقيقة فلم يبق

لك مناص من يدي وستقضي في هذا السجن جوعاً وعطشاً .

والقى من يده الكرتين الصغيرتين فلم يراهما جوهان الشجاع ولا سمع صوتاً لانفجارهما وقد أثرت عليه أقوال كونسيني اشد التأثير لأنه كان يرجو الخلاص وكاد يتحقق رجاؤه وإذا بامساله قد لعبت بها ايدي الاقدار فبات لا يرجو غير الفشل والموت .

ولم يطل تفكره بالامر لأنه شعر فجأة برائحة شديدة تكاد تخنقه فمد يديه إلى الامام وأستلقى على ظهره وقد فقد شعوره واغمي عليه .

**

الفصل السادس والعشرون

اليونورا وكونسيني

رأى كونسيني سقوط جوهان فانتصب واقفاً واعـــاد الصندوق الذي كان يحجب الثقب إلى مكانه وهو لا يدري إذا كان يجب عليه أن يسر أو يستأنف الحكم الذي أصدره على هذا الشاب لأنه لم يكن يعرف إذا كان موته أو خلاصه يتوقفان على عمله .

وأخذ زوجته إلى غرفة مجاورة وقال بلهجة التهديد والوعيد :

– لماذا حلت بيني وبين خلاصه من سجنه فهل توهمت أنه لفق هذه الحكاية لارهابي .

– لعل الامر يكون كذلك ولكني أعرف جوهان الشجاع أكثر من معرفتك له فهو شبه مجنون وله آراء وافكار غريبة وأكاد اجزم بانه كذب عليك ولم يسمعك الا حكاية ملفقة .

– ليتني اكون على ثقة مما تقولينه .

– صدقت وأنا ايضاً لست على ثقة من هذا الامر لأني لا اخاله اهلاً للقيام بكل هذه التحويطات الغريبة التي ذكرها لك ولكن الحوادث التي طرأت علينا تدعوني لتصديق كلامه .

– إذا كان الامر كما تقولين وأنك تعتقدين صدق قوله فلماذا منعتيني عما أريده وحلت بيني وبين اطلاق سراحه .

فهزت اليونورا كتفيها باستهزاء وقالت :

– الم تدرك بان اطلاق سراحه بعد تهديده لك يعرضنا إلى الابد لخطر دائم فتكون تحت شفقته ورحمته طالما الملك هنريكوس في قيد الحياة ويكون في إمكانه أن يستنفد المال الذي يطمع به .

– صدقت يا اليونورا فاني ارغب المحافظة على رأسي قبل كل شيء .

– إذن فقد كنت تنوي العفو عنه بعد أن هددك بوعيده الكاذب وفي امكانه أن يعيده لك كل يوم . ثم استطردت حديثها قائلة :

– قل لي يا عزيزي ما هي المدة التي يظل فيها تأثير هذا المخدر .

– نحو الساعة .

– لنا الوقت الكافي للعمل ما نريده فيجب قبل كل شيء أن نرسل من ينزع سلاح جوهان الشجاع اذ يجب أن يكون على اقتناع تام بانك اردت تنفيذ كل وعيدك ومتى تخلص هذا المساء

من أسرة يقتضي بان لا يحسب أن لك دخلا في خلاصه وبناءً كد بان الأمر لو توقف على ارادتك لكان قضى عليه في الحال والمهم عندي أن يتحقق جوهان بان تهديده لم يؤثر علينا بشيء فهو شاب ذكي متوقد التفكير غير الذاكرة فهو لن يعيد استعمال الطريقة التي تنجح معه في المرة الاولى .

– أنك لوحش إلحق ادهى من ثعلب .

– ذلك ما أنا على يقين منه ولست اطلب منك الا أن يكون جوهان طليقاً في هذه الليلة وما بقي من العمل فانا اتولج قضاءه وكن على يقين بانه لن يتمتع طويلا بحريته الموقعة وانا اكفل لك موته بعد مدة قريبة . ولكن قل لي كيف يتصل الى هذا السجن ؟

– الامر بسيط للغاية لا يحتاج الا النزول للقبو فهنالك الباب الاول الذي على اليسار فهو مقفل دائماً ومفتاحه لا يفارقني ومتى فتح هذا الباب فهناك عدة ابواب غيره في رواق صغير ولكن هذه الابواب لا تكون مقفلة .

– اذن يجب وضع المفتاح بشكل تسهل رؤيته هذا المساء نستطيع تعليقه على باب القبو .

– أحسنت .

– اني ذاهبة لاحضار المفتاح وفي ذات الحين انزع سلاح جوهان الشجاع . ولم يكد يخرج من الغرفة حتى رجع فنادته زوجته وخاطبته قائلة اجلس قريباً مني يا كونسيني فاني أريد محادثتك بامور خطيرة للغاية لقد ازف الوقت يا كونسيني

لتحرض ماريا على وجوب اقامة حفلة تكريسها ملكة على فرنسا وهي الحفلة التي طال امد تأخيرها .

— لماذا . فهل تحاذرين أن الملك إذا مات فجأة يقوم من ينازع الملكة حق الوصاية على القاصر لانها لم تكرس بصفة رسمية .

— ذلك سبب يستحق أن يدرس بمزيد الاهتمام فان الاعذار كلها تخلق بالذين يريدون انتحالها واظنك قد سمعت بالوصية التي كتبها الملك والتي تبطل حق الملكة في الوصاية فلا يبعد أن يقوم من يدعي بان الملك رآها غير جديرة بالحكم لذلك ابى أن يكرسها ملكة على فرنسا .

ذلك كذب وبهتان فان كل رجال البلاط يعلمون أن الملك يتجنب هذه الحفلة حذراً على نفسه لان البعض تكهن له بانه لا يحي بعد اقامتها .

فتبسمت اليونورا ابتسامة التهكم وقالت :

— أن كذب هذه الاشاعة هو السبب الداعي لتأييدها .

— صدقت .

إذا لم يكن غير هذا السبب هو كاف للنظر اليه بعين الجد والاعتبار ولكن هنالك سبباً غيره هو في نظري اهم من هذا بكثير وهو ما يدعوني للتعجيل بهذه الحفلة التي تأخرت منذ عشر سنوات .

— وما هو هذا السبب ؟

— أن أحد المنجمين قد تكهن للملك بانه لا يبلغ السنة الثامنة

والخمسين من عمره وسيموت في عربة على اثر حفلة عظيمة فهل وعيت هذا القول ؟

— ما الذي تريدين عمله ؟

— لا يمكن معارضة الاقدار يا كونسيني وإذا كنا فشلنا في كل مساعينا ضد الملك فما ذلك الا لاهمال لنا ما تنبأ به ذلك المنجم .

— قد تكونين مصيبة في قولك .

— لقد أدرك الملك السنة السابعة والخمسين من عمره وقد قارب السن الذي تنبأ به المنجم ولا ريب بان الحفلة التي قيل عنها هي حفلة تكريس الملكة ولا ريب بان العربة يسهل وجودها وعندئذ نكون قد استوفينا كل الشروط التي ذكرها العراف فاذا أردت يا كونسيني أن نتخلص بتاتاً من الملك علينا أن نغتنم هذه الفرصة السانحة لذلك قلت لك أنه يجب على الملكة ماريا أن تقنعه باقامة هذه الحفلة مهما كلفها الامر ويجب أن نلاحقها بهذا الشأن حتى لا يبقى للملك صبر على ملاحقتها فيجيبها إلى طلبها .

— صدقت يا اليونورا فقد آن الوقت لخلاصنا من الملك وسأسعى منذ الغد لاقناع الملكة بما قلتيه وعليك أيضاً ان لا تهملي امرها بدورك .

— كن براحة بال من هذا القبيل وأعلم بأن هنالك مسألة اخرى لا تقل اهمية عن هذه وهي زيارة اسقف لوسون إلي في

هذا الصباح .

وما الذي يريده هذا المحرك الصغير ؟

– جاء يطلب وظيفة مرشد الملكة .

– هل هذا كل ما يريده ؟ وأظنك قد وعدتيه بالانتظار السنين الطوال فاني والحق يقال لا احب هذا الرجل فان اعماله تقلقني .

– لقد قدم لنا خدمة هذا الصباح فوعدته بان يوقع على امر تعيينه غداً .

– عجباً وهل هذه الخدمة مهمة مثل هذه الدرجة ؟

أنه اشترى مني أمر تعيينه .

– بأي ثمن ؟

– ثلاثة وثمانون مليوناً .

– ثلاثة وثمانون مليوناً .. لقد كنت أعرف أنه غني ولكن ليس إلى هذا الحد الهائل .

– كن في راحة بال يا كونسيني فهذا المبلغ لم يخرج من جيبه .

– لقد كنت في ريب من هذا الامر .

– أن الاسقف جاءنا بكنوز الأميرة فوستا التي لا ريب قد سمعت بذكرها .

– وهل هذا الكنز موجود حقيقة ؟

– اجل وهاك الورقة التي اعطاني اياها الاسقف ريشليو

فاخذها بلهفة وطالعها بتشوق عظيم وكانت تتبعه بنظراتها فلما شعرت أنه انتهى من تلاوتها سألته قائلة :

الا تزال ترى أن الاسقف مبالغ في طلبه ؟

– كلا وايم الحق بل أرى أنه اظهر اعتدالاً غريباً واعدك باني ساسعى منذ الغد لاجابة مطلبه ولعله لا يكون في حد ذاته الرجل الشرير الذي توهمته فيه .

– لا يسها عن بالك بان الملايين التي يقدمها لنا الكاردينال دي ريشليو لا يقصدنا بها بل هو يريد هبتها للملكة .

فابدى كونسيني اشارة مؤداها أنه والملكة شخص واحد لا فرق بينهما .

فتبسمت اليونورا ابتسامة ضمنتها كل افكارها وقالت له :

– لقد ادركت ما تقصده يا كونسيني فانك تقول في نجواك أن بمثل هذه الثروة الطائلة تستطيع تحقيق كل امانيك ولو ظل الملك في قيد الحياة فان المال قوة هائلة لا يمكن مقاومتها .

– صدقت يا عزيزتي فاني بمثل هذا المبلغ العظيم استطيع شراء الملك لو عرضوه للبيع .

– وهل حسبت أننا لا نحتاج الا إلى مد ايدينا لتناول هذه الملايين التي يعرضونها علينا فنقبضها وينتهي الأشكال واعلم بانك على خطأ عظيم إذا كنت تتوهم هذا الأمر فلسوف نلقي من المزاحمين والمعارضين ما لا يخطر لك على بال وسنضطر لاجل

Aml www. 1ilas. com

الظفر بها إلى اشعال حرب عوان مع أخصام اشداء فحذار لنفسك .

– لست أرجو غير هذا الأمر ولا بد لي من الفتك باعدائي

– أعلم يا كونسيني أنه لاجل الحصول على هذه الكنوز يجب أن نقوم بتفتيش دقيق على شرط أن لا تدع أحداً من الذين يعلمون وجود هذا الكنز في مونتمارتر بامرنا وهم كثيرون كما لا يخفاك .

– وما الذي يجب علينا عمله ؟

– دع هذا الأمر إلي فاننا سنحتاج منذ الساعة لمقاومة الملك مقاومة صريحة .

– ويلاه !

– وليست مقاومة الملك بالامر الخطير لقاء ما نحتاج إلى مقاومته من لفيف القسس وجماعة الاكليروس الذين يترقبون الحصول على هذا الكنز الدفين منذ أكثر من عشرين سنة .

– وليس هذا بالامر الهام لقاء ما سنلقه من جوهان الشجاع بربك لا تضحك مستهزئاً فانك لا تعلم أن هذا الشاب إرهب علينا من الملك والذين يلوذون اليه لا يعدون شيئاً مذكوراً ازاء هذا وكفى بذلك سبباً يدعوني لأن أوكد لك وجوب القضاء عليه .

أما أنا فلست اكتمك اني حانق عليه اشد الحنق ولا بد لي من الانتقام منه ولو ادى الأمر لخسارة المال الكثير والوقت

الطويل واقسم لك اغلظ الايمان أنه لن يموت الا بيدي بعذاب ما دونه عذاب الجحيم وليست الاخطار التي تذكرينها لي مما تجملني اعد عن هذه الملابين .

– وكيف تفعل إذا كان النجاح فوق مقدرتك .

– لم يكن يجدر بك ايتها العزيزه أن تذكري لي امر هذا الكنز فقد اعطانا اياه ريشليو ولا بد لي من التغلب على كل الموانع مهما كان نوعها على أن ادرك مأربي من المال .

– لقد كنت على يقين بأنك لا تحجم عن الخطر إذ داهمك خطر مهما كان نوعه بيد أننا أردنا النجاح في مأربنا لذلك وجب علينا أن نفحص بدقة لا مزيد عليها هذه المسئلة من كل وجوهها لنتمكن من التغلب على كل الموانع التي قد تحول دون مرامنا فاعلم باننا سنلقى امامنا رجلاً هو ارهب علينا من كل الناس لو تألبوا علينا لأن لهذا الرجل قوة وذكاء غريبين وقد علمته التجارب والاختبار ما لا يخطر ببال فتمكن من التغلب على الاخطار التي صادفته وقد ازداد اليوم قوة بالحق الذي يريد الدفاع عنه .

– من هو هذا الشيم ؟

– ساطلعك على اسمه فيما بعد وكفاك أن تعلم الآن أن هذا الرجل هو والد الولد صاحب الكنوز التي نطمع في الحصول عليها ولا بد له من الدفاع عن ثروة ولده بشدة رهيبة .

– لقد سمعت بأن الأميرة فوستا تخلت عن كنوزها لولدها

فهل لا يزال حياً حتى الآن ؟

– نعم .

– ومن هو هذا الولد ؟

فابدت اليونورا اشارة بيدها دلته بها على سجن جوهان الشجاع فصرخ قائلا .

– لقد ادركت الآن سر حنقك عليه ويجب أن تعلمي بان ابن فوستا قد مات وكل ما يحول بيني وبين كنوزه ينال ذات العقاب .

فحدجته اليونورا برهة ببصرها وأمارات السرور بادية على وجهها وأردف كونسيني كلامه قائلا :

– هل هذه هي كل الاخطار التي يجب علينا تجنبها ؟

– كلا فاني حفظت إلى الاخير من هو أشد هولاً من الجميع وما لا يعد سواه شيئا مذكوراً .

– قولي فاني صاغ لحديثك .

– يوجد شخص يستطيع بكلمة منه أن يقضي على كل آمالنا وهو الذي وجدت عنده الورقة التي قرأتها .

– وكيف ذلك ؟

– أن هذا الشخص يمتلك عدة أوراق أخرى اكثر اهمية من هذه فاذا اعطاها لصاحبها الشرعي لا يبقى لنا أمل بهذا الكنز .

– لقد ادركت ما تريدي قوله وما على هذا الشخص الا إن

يظهر فلا تستطيع قوة في العالم أن تحول بينه وبين ما يريد بسبب الأوراق المهمة التي يمتلكها غير اني أريد أن يكون لي المكان الاول وأن اصبح وامسى فوق الجميع رفعة واقتدار والشخص الذي تذكرينه قضي عليه بالهلاك ولو كان الملك وإذ قضت الاقدار بان يسلم ما معه إلى شخص آخر فهو هالك ايضاً لا محالة .

– لم اكن اتوقع سماع غير هذ القول منك يا كونسيني وقد اصبت فيما قلته ولكن لعلك تتردد متى عرفت الشخص الذي قضيت عليه بالهلاك ؟

– وما الذي يدعوني للتردد ؟هل اعرف هذا الشخص أولي علاقة معه لاسمع منك التحذير ؟

– لست ادري إذا كنت تعرفه ولكني على يقين بأنه امرأة بل هي فتاة لا تزال في مقتبل العمر ؟

– اتقولين أن عدونا فتاة لا تزال في مقتبل العمر ؟

– ارأيت أنك جبنت عن الاقدام على ما كنت نويت عليه

– بربك قولي لي من هي هذه الفتاة ؟

– انها من اسرة دي سوجيس . وقد كنت على يقين من ترددك في الأمر ولكن لست اكتمك بان هذه الفتاة هي اشد العقاب التي تحول دون ادراك مأربنا وما زالت في قيد الحياة يبقى الخطر مخيما فوق رأسينا ولو لم ننجح في اكتشاف الكنز الذي نود الحصول عليه لأنها لا تستطيع بواسطة الأوراق المهمة

التي في حوزتها ان تذهب إلى الملك وتقص عليه خبرها فيقبض علينا ويزجنا في السجن ليرسلنا بعد ذلك إلى المشنقة .

واستغرق كونسيني في الافكار ولم يعد يرى موجباً للمؤاربة والاحتيال لأن الأمر لا يتعلق بحجبته فعادت اليه قساوته والقى على ما حوله نظراً نفاذاً وهو على يقين من عدم وجود من يسمع حديثها وقال لزوجته بصوت اجش :

— ما زالت هذه الفتاة تضايقنا بوجودها فلنحملها الشياطين ولنذهب إلى حيث الفت .

— كن مطمئناً يا كونسيني فهذه الفتاة لا تضايقنا بعد الآن .

— إذا كان الأمر كما تقولين فلماذا ذكرت لي امرها ؟

— كنت احاذر أن اسمع منك اعتراضاً وأن تأبى الفتك بامرأة وقد رأيتك والحمد لله مصمماً على اتمام العمل .

— وما الذي عملته معها ؟

— لم اقتلها لأن قتلها لا يفيدنا بشيء ولكني دفنتها وهي حية في قبر لا يستطيع أحد في العالم اخراجها منه ولعلها تفضل الموت الف مرة على وجودها فيه — فهل تصادق على عملي يا كونسيني مهما كانت نتائجه ؟

— أجل ولقد احسنت صنعاً ايتها العزيزة !

— لم يبقى علينا الا الانصراف وقد كدت انسى أن اخبرك بانه يجب عليك أن تعطي خدمك اجازة إلى الغد إذ يقتضي

بان الذي يأتي لتخليص اسيرك جوهان لا يصادف احداً في المنزل وبذلك يتحقق جوهان أنك تركته هنا ليموت جوعاً وعطشاً ولم تبادله بوعيده .

وسدت عليه برأسها وخرجت من الغرفة بتمهل وقد شيعها زوجها وهو يشور بالتخلص من ثقل عظيم لوجودها معه ولكنها قبل أن تتجاوز عتبة الباب الخارجي التفتت اليه فجأة وقالت له :

— يجب أن تعرف حقيقة هذه الفتاة بالتمام وقد نسيت ان اعرفك بها فهي تدعى الآنسة برتيل وهي التي كانت تقطن شارع الشجرة اليابسة والتي اهتم بها الملك ورجال بلاطه ردحة من الزمن .

ولو انقضت الصاعقة بين يدي كونسيني فما اثرت عليه تأثير هذه الاقوال فاصفر وجهه حتى شابه الاموات وخارت عزائمه ولولم يتمسك بمقبض الباب لكان سقط إلى الارض فنظرت اليه اليونورا باشفاق وانصرفت وهي تتبسم .

الفصل السابع والعشرون

انقاذ جوهان من موت محقق

لم تكد اليونورا تصل إلى منزلها في شارع سانت هونوري حتى استدعت اليها ساتيا وابتدرته بسؤالها :

– هل علمت ما الذي عمله ابنك هذه الليلة ؟

– كلا يا سيدتي واني لكثير القلق عليه وقد فتشت طويلا ولكني لم اقف له على اثر .

– إذا كنت تجهل امره فانا اعرفه فهو قد وقع في يد كونسيني الذي يريد أن يميته جوعاً وعطشاً .

– لقد انكر هول هذا العذاب ولكني وجدت له ما هو خير منه فانا لا أريد أن يقتل لأني اعددت رأسه للجلاد .

– ذلك ما دعاني لانذارك لتكون على بينه من الامر واعلم بان ابنك سجين في قبو لمنزل منفرد في شارع الجزدان وأنك تجد مفتاحاً معلقاً بمسمار وهذا المفتاح يفتح الباب الاول عن يسارك وأنت داخل فتجاوز رواقاً صغيراً تجد فيه عدة ابواب

غير مقفلة وأنك لتجده بسهولة وهاك مفتاح المنزل فاذهب يا ساتيا ولتكن الفطنة رائدك .

فذهب للحال ولم يلبث أن وصل إلى باب القبو ورأى مفتاحه معلقاً فوق بابه فثبت لديه صدق اليونورا وذهب إلى المطبخ فتناول مصباحاً وأشعله واخذ ينزل بتمهل السلم الحلزوني .

ورأى على يساره الباب الذي دلته عليه ففتحه وإذا هو في رواق ضيق وابصر اربعة ابواب مصفحة بالاقفال الضخمة وفتح الباب الاول وقد كان الصدا علا اقفاله فصرصر صريراً عالياً حين فتحه ودخل القبو فلم يرى فيه أحداً فاخذ ينادي بصوت عال .

– جوهان .. يا عزيزي جوهان .. اين أنت الآن لا تخف شراً فانا ابوك ساتيا .

فتح باقي الاقبية ولكنه لم يلق فيها احداً ورأى على البلاط الاسود في احداها قطعة بيضاء استجلبت اهتمامه فوجه اليها نور مصباحه وإذا هي ورقة فالتقطها واخذ يتلوها في بداية الامر بعدم مبالاة ولكنه كان كلما تدرج في تلاوتها يبدو عليه الاهتمام وارتجفت يداه وابرقت عيناه بسرور لا يوصف ولما انتهى من قراءتها همس قائلا :

لم اكن وايم الحق اتوقع العثور على هذه اللقيا الثمينة .

ثم طوى الورقة ووضعها في جيبه وعاد للتفتيش على

جوهان ولكن اتعابه ذهبت ادراج الرياح وتحقق أنه لم يكن في المنزل فاخذ يعيد كل شيء إلى حالته الاصلية وارجع المصباح والمفتاح إلى مكانيهما وخرج من المنزل وهو مقطب الجبين عابس الوجه لفشله .

ولما وصل إلى الطريق انسل شبح من احدى الزوايا واخذ يتعقب خطواته عن بعد .

* *

الفصل الثامن والعشرون

باردليان واعوان جوهان الثلاثة

وكان كونسيني لما شيع زوجته إلى باب المنزل قد ترك الغرفة التي كانا فيها مفتوحة لانه ابقى فيها رداءه وسيفه ولا بد له من الرجوع اليها لاخذهما .

ولم يكد يخرج من تلك الغرفة التي كان على يقين بان الاذان الغريبة لا تسمع حديثه الرهيب مع زوجته حتى ظهر رجل من خلف الستار المخملي وتقدم بسكينة لا مزيد عليه كأنه في ذات منزله وقفل الباب ووضع مفتاحه في جيبه والقى نظرة على الكرسي التي كان عليها الرداء والسيف وهمس قائلا :

– حسناً ولا بد له من الرجوع .

وتطلع من خلال الباب فرأى كونسيني كالمصعوق وهو متمسك بالعضادة حذراً من الوقوع على الارض فعاد إلى الغرفة ووقف بشكل لا يراه كونسيني عند دخوله ولم يلبث أن ابدى اشارة دلت على استهجانه وهمس قائلا :

Anti www.ilias.com

– لست أريد أن يحسبني قاتلا مثله »

وتناول السيف ووضعه في الجهة المعارضة ليقع عليه نظر كونسيني بمجرد دخوله الغرفة وذهب فاختفى خلف إحدى درفتي الباب .

ولم يكن هذا الرجل الرهيب بسكينته ورباطة جأشه الا الفارس باردليان فكيف وصل إلى ذلك المكان ؟

لا بد لنا من الرجوع إلى رفقاء جوهان الشجاع إذا اردنا اطلاع القراء على هذا السر الغريب .

بعد أن فارق كاركان واسكركاس وكرنكايل رئيسهم اخذوا يسيرون في الطريق المؤدية إلى شارع سانت اوستاش وهم مفعمون الجيوب بالذهب بفضل الجود الذي اظهره لهم كونسيني ولم يلبثوا أن شعروا بالجوع والعطش فاسرعوا خطواتهم حتى وصلوا إلى مطعم في شانفلوري فدخلوه بعجلة لقضاء مآربهم من الطعام .

وتشاوروا بالأمر فقر رأيهم على عدم الذهاب لمقابلة كونسيني بعد الخيانة التي بدرت منهم لأنهم كانوا على يقين مما سيناله منه فدخلوا حانة قريبة وبعد أن فرغوا من تناول طعامهم خرجوا وهم لا يعلمون الوجهة التي يقصدونها ولكنهم لم يكادوا يبتعدون خمسين خطوة عن الحانة حتى ابصروا كونسيني فادهشهم رؤيته وبعد صمت وجيز قال لهما كرنكايل :

– فلنذهب .

فعجلوا خطاهم حتى وصلوا إلى منزل جوهان فارتقى كرنكايل درجاته اربعاً ولم يلبث أن عاد منذعراً وقال :

– إن الباب غير مقفل بالمفتاح والسرير على حاله فهو لم يرجع إلى منزله ولعله ذهب إلى شارع الجرذان .

– ليس كونسيني من الرجال الذين يستطيعون الثبات في وجه رئيسنا وقد رأيناه بام العين . وعندي أن وجود كونسيني حيا وغياب جوهان هو دليل صريح على أنه وقع في كمين له فان المنزل كصاحبه لا يدلني على ما يدعو للثقة به .

وعقدو فيما بينهم مجلساً عسكرياً قر رأيهم فيه على الذهاب إلى شارع الجرذان لمراقبة منزل كونسيني وظلوا سحابة يومهم وهم لا يتمكنون من الدخول اليه واقبل الليل وكانوا يعلمون علم اليقين أن دخوله عنوة ضرب من المستحيل ولكنهم ليس لهم أمل بتسلق جدرانه كانوا يعزون ذواتهم بافتكارهم برجوع كونسيني اليه إذا كان جوهان لا يزال في قيد الحياة .

ولم يكونوا قد أقروا رأيهم على ما يجب عمله ولكنهم عقدوا العزيمة على دخول المنزل مهما كلفهم الأمر فقضوا ليلتهم وهم يتجولون حوله إلى أن بلغ بهم النعاس اشده فاتفقوا على أن ينام اثنان وبقى الثالث متوليا الحراسة وفي كل ساعة يتغير الحارس باحد رفيقيه .

مرت الساعات ولم يبد على احدهم ما يدل على فروغة صبره وإذا بكرنكايل قد ضرب جبهته بيده وقال :

الويل لي من جاهل احمق كيف سهى هذا الأمر عن بالي .

– واندفع كالسهم المارق قاصداً المنزل الذي يقيم فيه باردليان لأنه رأى جوهان قد طلب مساعدته حين الحاجة اليه فبادر لنصرته من غير تردد كأنه من اوفى اصدقائه واخلصهم .

من حسن حظه انه قابل باردليان في القاعة العمومية وهو منهمك بتناول طعامه فاستجمع كل شجاعته ورباطة جأشه بمزيد الاحترام :

– عفواً يا سيدي لازعاجي اياك ولكن الأمر خطير للغاية .

فهب باردليان من مكانه وخرج مع كرنكايل إلى أن وصلا إلى شارع الجرذان فكان أول اهتمام باردليان بمراقبة المنزل ولم يلبث أن تحقق أنه يستحيل دخوله عنوة بل يقتضي لذلك الحيلة والمهارة فاخذ يفكر بأمره وقد شغله هذا الخاطر كثيراً .

ورأى في تلك اللحظة كاركان مقبلا عليهما بسرعة وهو يلهث من فرط تعبه فوقف مبغوتاً لمشاهدته الفارس باردليان فاطمأنه كرنكايل بكلمة منه وقال له :

– أنه قادم واليونورا تتعقبه من غير أن يشعر بها واسكركاس يقبعها وهما لا يدريان به .

فابرقت عينا باردليان باشة السرور وقاد رفيقه إلى إحدى الزوايا وقال لهما :

– بما أن كونسيني قادم إلى هذا المكان فذلك دليل على عدم موت رئيسكما كما كنت اتوقع قبلا فالهم الآن أن ندخل المنزل في الوقت الملائم لنمنعه من ارتكاب القتل الذي لم يتمكن من القيام به ولا ريب بان عقيلته التي تتعقب خطواته هي التي ستفتح لي الباب فاذا فعلت ذلك اتكفل بما يلزم .

ولم يكونا يعرفان باردليان من قبل ولكنهما رأيا من ثباته وتوطيد عزمه ما دعاهما للدهشة والاعجاب فلم يرتابا قط بصدقه وأخذ كرنكايل يفرك يديه بفرح وسرور لذلك طرأ عليه باستنجاده بذلك الفارس الشهير .

وظهر كونسيني اخيراً فتركوه يدخل المنزل ولم يعارضه وتعقبه باردليان فانزوى خلف الباب وظهرت اليونورا ووقفت جامدة في مكانها لا تأتي حركة .

وبعد قليل انفتح الباب وظهرت منه امرأة متوسطة العمر فانسلت الى الخارج وهمست بعض كلمات لا يكاد تسمع ولكنها لم تفت اذن باردليان الذي كان صاغيا بمزيد الانتباه الى ما يجري حوله وبدون من أن يدخل المنزل زاد تخفيه وقد تبسم ابتسامة دلت على سروره .

واجابت اليونورا على الكلمات التي سمعتها بان قدمت للامرأة كيساً مفعما بالذهب فدخلت المنزل واقفلت الباب وراءها وظلت العجوز واقفة برهة عند العتبة ثم ابتعدت في الطريق بخطى متعثرة فخرج باردليان من مخبأه ولحق بها من

غير عناء وقال لها متهكما :

– أني في حاجـــة ايتها الحسناء لمقابلة مولاك السنيور كونسيني فهل تتكرمـــين علي بفتح باب المنزل الذي رأيتك تخرجين منه ؟

– يسؤني يا سيدي ان لا استطيع مجاوبتك إلى ما تريـده لأني لا احمل معي مفتح الباب ولست استطيع قرعه قبل مرور ساعتين لأن مولاي حظر علي ازعاجه وهـــددني بالطرد إذا جسرت على مخالفته .

فمد لها قطعتين من الذهب وقال لها وهو يبتسم :

– لست اسألك ايتها الحسناء أن تقرعي لي الباب بل أن تفتحيه .

– فليبارككِ الله يا سيدي وثق بأني اشعر بيأس لا مزيـد عليه لعدم استطاعتي على اجابة طلبك لأني لا احمل المفتاح فـلا تلح علي وأرجوك أن تدعني أمر وشأني .

– وما قولك بالمفتاح الذي صنعته خصيصاً لخدمة مولاتك عقيلة السنيور كونسيني لتسهل عليك خيانة مولاك وبهـــذا المفتاح تستطيعين اجابة طلبي ؟

فاذا لم تفتحي لي هذا الباب أقودك قسرا اليه وأقرعه ثم اطلع مولاك على سرك وأخبره أنك تخونيه ؛

ويلاه أن هذا هو الشيطان بذاته ثم اخرجت المفتاح مـن جيبها وناولته له .

واطلقت ساقيها للريح وهي تكاد تطير من فرحها .

الفصل التاسع والعشرون

فشل كونسيني

دخل باردلهان للمنزل ووضع المفتاح في جيبه فرأى ذاته في رواق عريض وعن يساره وعن يمينه بابا مقفلا وفي آخر الرواق ستارتين احداهما مسدلة والثانية مرفوعة فاصغى قليلا وانتظر ان يسمع صوت على امل بأن يعرف صوت جوهان ولو عن بعد .

ورفع الباب المفتوح ودخل الغرفة فرأى سيف كونسيني ورداءه فتبسم ورأى الستار فرفعها ورآها تطل على غرفة ثانية فتبسم ايضا والقى على الغرفة نظرة دقيقة فسره ما رآه وأعاد الستاره إلى مكانها وهمس قائلا :

– لقد امنت خطة رجوعي فلنـــذهب ولنسمع حديث كونسيني مع سجينه .

وعاد إلى الرواق ووقف خلف الستار المسدلة فازاح طرفها قليلا فتمكن من النظر والسمع وشاهد كونسيني ممـــدداً على

الارض ومنحنياً على خرق في الارض وظهره مدار إلى الستارة وقد حسب أنه اتخذ كل تحوطاته كي لا يباغته احد ولم يكن قلقاً على هذا الشأن وقد شغله حديثه مع جوهان الشجاع إلى درجة لم يشعر معها بوجود زوجته اليونورا على مقربة منه وكانت هي ايضاً مديرة ظهرها إلى الستارة ومثله مطمئنة البال من مباغتة الأغراب لها .

اصغى باردليان للحديث ولما سمع جوهان يقص على عدوه خبر مقابلته مع الملك وبطلمه على أن الرفيق الغريب الذي صحبه الملك الليلة مستعد لاخبار الملك بسره فتبسم ابتسامة الرضا وقال :

– فكرة حسنة وايم الله فاذا اطلعه كونسيني كما اتوقع اكون قد تحملت هذا العناء على غير جدوى ولكن الامر لم ينقض بعد فلنصبر حتى النهاية .

ولما رأى اليونورا قد تداخلت بالمسئلة تحقق بان الأمر قد انعكس على جوهان الشجاع فلم يتأسف للوقت الذي اضاعه والعناء الذي تجشمه ولما سمع كونسيني يقول لسجينه أنه لا يعبأ بوعيده ولا يبالي بالمكاشفة التي تهدده بها ارتأى بان الوقت قد ازف ليعود القهقري فذهب ووقف خلف الستارة وهو ممسك بيده درفة الباب وقد استعد اقفلها عند ادنى حركة .

وتمكن وهو في موقفه من سماع حديث الزوجين برمته رغماً عن كونهما كانا يتكلمان همساً وكان كونسيني قد استعاد سكينته

ورباطة جأشه فدفع الباب من خلفه وعاد إلى غرفته وهو يتعثر بمشيته فأرتمى على مقعداً هناك وقد كتم زفرة شديدة كادت تمزق صدره .

وبينما هو كذلك قفز فجأة من مكانه كمن لسعته افعى وانتصب واقفاً لأنه ابصر باردليان يقفل الباب ويضع المفتاح في جيبه بمنتهى السكينة ويتبسم ابتسامة التودد ثم حياه بتهكم ظاهر فعقلت الدهشة لسان كونسيني وحملق عينيه بانذهال لا مزيد عليه وأخذ يجيل نظره في جوانب الغرفة كأنه يريد معرفة المكان الذي دخل منه هذا الرجل فرأى سيفه على مقربة منه وتذكر بانه لم يضعه هناك ووقع بصره على ردائه في موضعه الأول .

ورأى باردليان منه هذه الحركة فتحقق ذعره واندهاشه وقال له :

– أنا الذي وضعت سيفك في هذا المكان يا سيدي لتكون مرتاح البال فلا تظن بي سوءاً .

فتناول كونسيني سيفه بلهفة ووضعه في غمده وفي الحال انطلق لسانه فتقدم من الفارس بجرأة زائدة وسأله قائلاً بلهجة تهديدية :

– من أنت ايها الرجل ؟ وما الذي تعمله في هذا المكان ؟ وهل جهلت أني استطيع قتلك كالكلب .

– رويدك يا سيدي ولا تعجل بالحكم على مقدرتك قبل أن تتحققها فاني لا ادعك تفعل معي هذا الأمر قبل أن ادافع عن

نفسي ولو قليلا ولست افاخر بذاتي اذا اكدت لك بان يدي اثقل من أن تتحملها وستعرف عن قريب غرضي من الوجود في هذا المكان اذ لا بد لي قبل كل شيء من مجاوبتك على سؤالك الأول فقد اردت معرفتي فاعلم باني رفيق جوهان الذي تريد أن تميته جوعاً وعطشاً ولقد اخبرك عن عزمي على الذهاب لمقابلة الملك لاخبره بانك كنت متواطئاً على قتله في شارع الشجرة اليابسة .

– اذا كنت أنت رفيقه المنتظر فهاك لاعطيك ما تستحقه واخذ صفارته الفضية وصفر بها بنوع خاص وقد انساه فرحه بلقيا عدوه أنه لم يقم أحد الخدمة بدلاً من الرفاق الثلاثة الذين صرفهم فتركه يفعل ما يريده وذهب الى النافذة ففتحها واطل رأسه منها وقال بلهجة الأمر :

– كرنكايل .

– لبيك يا مولاي .

– ادخل الى هنا واحرس خدم هذا السيد وحذار أن يزعجني أحد منهم في عملي .

قال هذا والقى اليه مفتاح المنزل الذي اخذه من الخادمة الخائنة وكان الخدم قد اقبلوا على صفير مولاهم ولكنهم لما رأوا باب غرفته مقفلا اخذوا ينادونه من الخارج فاندفع كونسيني نحو الباب الذي عليه الستار ولكنه لم يكد يصل اليه حتى تراجع بغضب عظيم لأنه رآه مقفلا ايضاً .

واقفل باردليان النافذة ووقف في مكانه بسكينته المعتادة وهو يتظاهر بعدم الاهتمام بكونسيني ولكنه لم يكن يفارق حركة من حركاته وسمعا وهما في الغرفة حركة الباب وهو يقفل بشدة وصوت عراك في الرواق تلته اصوات استنجاد نسائية ثم ساد السكوت التام .

وقرع باب الغرفة التي كان فيها في تلك اللحظة فذهب باردليان وفتحه فدخل اسكركاس وكرنكايل وتقدما خطوتين في الغرفة وسلما على باردليان بمزيد الاحترام وشاهدا كونسيني واقفاً في احدى الزوايا وهو يصرف باسنانه من فرط حنقه فتبسم له اسكركاس ابتسامة ودية وحياه بتحية من رأسه وقال له :

– كيف حالك أيها السيد فاننا لم نرك منذ اليوم الذي تركناك فيه مقيداً داخل هذا المنزل .

فدفعه كرنكايل بكوعه ليلتزم الصمت وقال مخاطباً باردليان .

– عفواً يا سيدي لازعاجك في عملك ولكنا اردنا اخبارك بان خدم هذا السيد هما اثنان وكركان يكفي وحده لحراستهما لذلك جئنا نتلقى منك الأوامر بما يجب علينا عمله .

– اذهب ايها الصديق واقفل لي الباب الخارجي وقف أمامه ولا تدع أحد يدخل أو يخرج منه وأنت يا اسكركاس فاذهب الى حيث رفيقك كاركان وساعده بحراسة الخدم ولا

www.liilas.com Aml

يقارب أحد منكم الى هنا قبل أن ادعوكم .

والتفت الى كونسيني وقال له بمزيد التأدب .

– أريد أن تعتقد يا سيدي باني ابقيت هؤلاء الرفاق هنا بغية تهديدك لأني احب انجاز عملي ببدي ولم أصل بعد الى درجة من الشيخوخة تدفعني لطلب مساعدة الغير اذا لم يكن امامي الا رجلا واحداً وأني اعاهدك بشرفي بان هؤلاء الرفاق لا يدخلون الى هنا ولا يتداخلون بامرنا مهما كانت نتيجته فاذا تمكنا من الاتفاق لمخرج سوية من هذا المكان على اتم الوفاق اما اذا خرج لوحده فاكون قد قتلت فاتركوا هذا الرجل وحذارمن تعرضكم لهذا الرجل بادنى سوء واتركوه مطلق الحرية يفعل ما يريده .

– امرك ايها المولى الهمام .

فقفل الباب من خلفهم بعد أن صرفهم وخاطب كونسيني بقوله :

– لا اظنك ترتاب بصدقي اما سمعت الأوامر التي اصدرتها امامك وأنا على يقين بانك تكون مرتاح البال من قبلي .

– بما أن الأمر كذلك فمت ايها الكلب الاجرب ؟

واشهر سيفه كلمح البصر وهجم به على باردليان الذي ظل ماتزماً السكينة التامة ورأى السيف مشهراً عليه فحاد عن طريقه فلم تصبه الضربة وفي ذات الحين كان سيفه بيده فهاجم به كونسيني ولم يلبث ان اطار السيف من يده فلم يفشل لهذا

الانكسار وامتشق خنجره وانقض على الفارس فلم يبال به وتركه يفعل ما يريد حتى وصل اليه فقبض على معصمه بيد حديديه وضغط عليه بها فسقط الخنجر من يده وصرخ صوتاً رهيباً دل على فرط المه .

فدفع باردليان الخنجر برجله وقبض على كونسيني من وسطه ورفعه بين ذراعيه كما يرفع ولداً صغيراً وحركة برهة في الفضاء كانه يستعد لقذفه الى بعيد فيسحق عظامه ولكنه لم يفعل ذلك بل اعاده واقفاً على قدميه فكاد يحن من جزعه لأنه حسب ان ساعته الأخيرة قد دنت .

والتقط سيفه فاعاده إلى غمده وقال بمنتهى السكينة .

– اظنك تحققت أني اقوى منك بكل شيء وقد كنت استطيع قتلك كما نزعت منك سلاحك وكان بامكاني تحطيم رأسك على هذا الحائط ولكني لم افعل ذلك والان فاني اسديك نصيحة من صالحك العمل بها إذا كنت تود المحافظة على حياتك !

فقداردت قتل الملك ولم تفلح بمقصدك وقد سمعتك في هذا المنزل تتكلم نبوءة نطق بها احد الدجالين الكاذبين وقد اتخذت مع زوجتك التحويطاب اللازمة لنجاح هذا السعي الذي طالما حبط معكما وقد اصبحت على يقين بانك تنوي قتله وهبك فعلت ذلك فهي مسئلة تتعلق بكما وما انا من الرجال الذين يوشون بك أو ينمون عليك كما قيل لك ...

بل اني اكون ضدك بكل مشروع تقوم به ضد الملك .

– وما سبب ذلك ؟

– لأنك تريد قتل الملك لتنهب المملكة على هواك ولست من الرجال الذين يرضون بتعريض وطنهم لحكم سافل مثلك . وعدا عن ذلك فان امرأتك قد أعطتك ورقة تتضمن بعض تعليمات صريحة تتعلق بارث اميرة تدعى الأميرة فوستا .

– وما شأنك بها ؟

– أني اريد الاطلاع عليها .

حقاً أن المسئلة قد تحولت إلى امور مضحكة فانت لص بكل معنى الكلمة وقد جئت تطالبني بحقك . كدت انخدع في بداية الأمر بظواهرك الغرارة وتوهمتك رجلا نبيلا ولكني الآن عرفت حقيقة سرك ومبلغك من الرجال .

– لست اطلب منك أن تعطيني هذه الورقة بل أن تطلعني عليها لاقرأها واعيدها اليك .

– ولكنك تكتفي بقراءة واحدة لهذه التعليمات الصريحة من ادراك ما تريده وقد املت الوصول الى مأربك بمثل هذه السهولة حقاً أنك رجل أحمق .

سألتني من أنا وقلت لك اني رفيق هذا الشاب الذي سجنته بخيانتك المعروفة ضمن قبر وهو حي يرزق وقد كنت صادقاً في قولي والآن اريدك ببياناً وتعريفاً بحالي باني انا الرجل الذي قهرت القوات التي كان يحبن عن الشبات امامها سواي واعيد عليك ما قالته لك منذ برهة زوجتك المحترمة فانا والد الولد

الذي رزقته الأميرة فوستا بل والد الغلام الذي تخصه هذه الملايين والذي نويتما على قتله لتتخلصا منه وتتمتعا بثروته الطائلة فالواجب يقضي علي بأن أحول بينكما وبين ما تريدان وأن امنعكما عن هذة السرقة لأن الثروة التي تريدان اختلاسها هي ملك شرعي لولدي والورقة التي في حوزتك هي ملك له ايضاً فاعطني اياها في الحال وحذار من المماطلة .

– وإذا ابيت اجابتك الى هذا الطلب .

أعطني الورقة أو تموت . فناولها كونسيني اليه وما قرأها باردليان اعادها اليه ثم قال له : يقي عليك أن تطلق الحرية لولدي جوهان الشجاع وفي مقابل ذلك اجيز لك أن تأخذ وتحتفظ بكل ما تجده مخبوءاً في المكان الذي ترشدك هذه الورقة التي أعيدها اليك .

– أتفعل ذلك يا سيدي وهذه الكنوز ملك شرعي اولدك

– اجل وقد تقول في سرك أنه لا يحق لي التصرف بهذه الملايين فلا اضيعها على ولدي ولكني اجاوبك على فكرك بقولي أني لا اعرف هذا الولد وقد لا أعرفه في حياتي ولكني اعرف جوهان الشجاع وقد قلت أني اهتم كثيراً بامره .

– أن مثل هذا المبلغ العظيم لا يترك بمثل هذه السهولة .

– كن على يقين بان الأموال التي انتزل لك عنها لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة للكنوز التي ادخرتها له لذلك أطلب منك أن تكون مرتاح البال من هذا القبيل .

– وهل أنت غني الى هذه الدرجة ؟

– أجل وأن غناي يفوق التصور فهل تقبل ما اعرضه عليك أو ترفضه ؟

– أني أقبله بزيد الارتيـــاح وسأذهب لأفتح بذاتي باب السجن لا سيري واطلقه منه .

– كلا بل دع الأمور تسير على ما اتفقت عليه مع زوجتك وضع المفتاح خلف الباب واصرف خدمـك وأذهب من هـذا المنزل ودعني أسود عليه الى الغد . وأعلم أن ما اقترحته عليك هو لأجل صالحك لئلا يظهر عليك أنك استسلمت الى دواعي العنف .

– أشكرك يا سيدي شكراً جزيلا لهذا التلطف والكياسة التي ابديتهـــا ولا اكتمك بانه كان يشك علي فتح باب السجن لاسيري وبما أنك لا تعترض على أنجاز الأمر حسب مـــا اتفقنا عليه فأنا اترك لك منزلي الى الغد بل اتنـــازل لك عنه بطيبة خاطر اذا احببت .

– كلا فلست بحاجة الى منزلك بل انصحك بان لا تتقدم لجوهان الشجـــاع والانسة برتيل دي سوجيس باذى لأني أهتم اهتمامـــاً عظيماً بامر هذين الشخصين وأن زوجتك تعرفني حق المعرفة وإذا شئت فهي تخبرك عن مقدرتي وكيف استطيع سحق اعدائي وكل الذين يعترضون لي .

وبعد ربع ساعة لم يبقى في المنزل غير باردليان ورفقائه

فأسرعوا بأخراج جوهان الشجاع من سجنه غير أن الشاب كان لا يزال فاقد الشعور بتأثير المخدر الذي استنشقه ولما فتح أبن باردليان عينيه كان اهتمامه الأول البحث عن العلبة التي كانت معه فوجدها ملفوفة بردائـه وسيفه على مقربـة منه ، فنهض واقفاً وشكر لمخلصيه اهتمامهم به .

وفي الساعة الخامسة غادروا ذلك المكان .

تم الجزء الاول

ويليه

الجزء الثاني والاخير

www.liilas.com